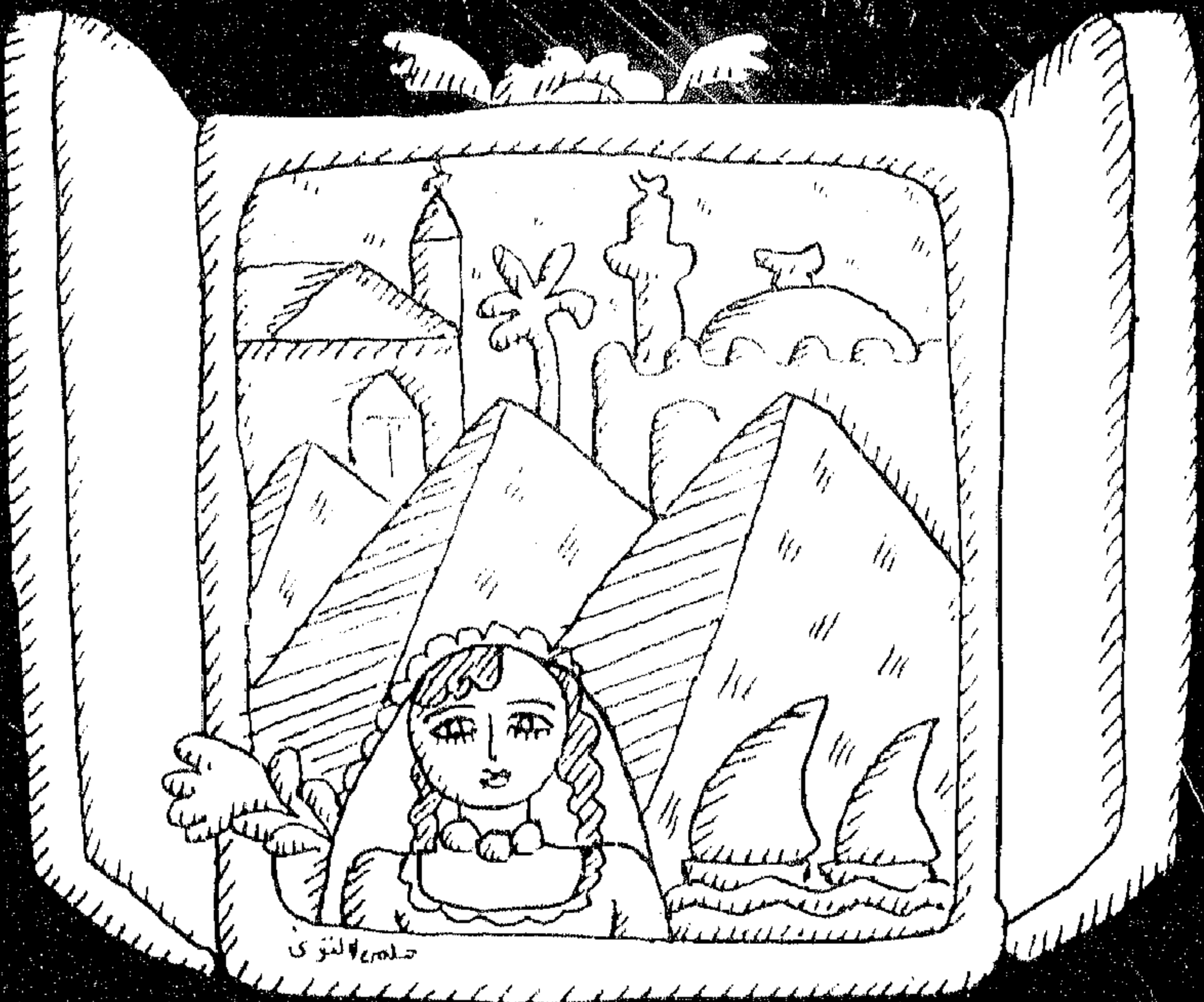


جمال بدوى



مكتبة
أفخة التاريخ

(خان وخوانسار)

دار الشروق



Bibliotheca Alexandrina



0030614

الطبعة الاولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تليكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشوروكى - تليكس : SHOROK 20175 LE

جمال بدوي

الخط فن نافذة التاريخ

دار الشروق

إهداء

إلى روح الزعيم

مصطفى النحاس

تحية عرفان من مصرى عاشق لوطنه ..

إلى روح الزعيم الذى أفنى عمره فى خدمة وطنه ..

ثم غادر الدنيا - كما دخلها - طاهراً من الرجس .

هذا الكتاب بقلم محمد فؤاد سراج الدين رئيس الوفد

قرأت هذا الكتاب مرتين : المرة الأولى ، على حلقات أسبوعية في باب «كان وأخواتها» ، في صحيفة الوفد ، الذى يحضره الأستاذ جمال بدوى ، مؤلف هذا الكتاب ، وذلك على مدى خمسة وسبعين أسبوعاً متتالية . والمرة الثانية بعد أن جُمعت هذه الحلقات فى ملازم وأعدت للطبع . وكانت متعتى بالقراءة الثانية لا تقل عن متعتى الأولى بها ، وذلك لطرافة الموضوعات التى انتقاها المؤلف من تاريخ مصر الحديث ، بدءاً من عهد محمد على إلى عهد الثورة وكذلك للأسلوب الشيق الذى عرف به جمال بدوى .

وقد عالج المؤلف الموضوعات التى تناولها فى كتابه من زاوية جديدة لم تعرفها الصحف من قبل ، ونجح تماماً فى أن يتلافى الجمود الذى يصاحب دائماً الموضوعات التاريخية .

ولاشك أن هذا الكتاب قد أدى خدمة جليلة لشباب هذا الجيل ، إذ عرفه بالكثير من تاريخ بلاده وسير زعمائه ، الأمر الذى تعتمد المسئولون تجهيله به فى معاهد العلم لأسباب سياسية معروفة .

إن ما اقترفه هؤلاء المسئولون فى حق الشباب المصرى ، يعتبر جريمة لا تغتفر لابد أن يحاسبوا عليها أشد الحساب .

لقد وفق الأستاذ جمال بدوى فى اختيار عنوان كتابه ، عندما وصفه بأنه «مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث» . كما وفق فى إعادة الحياة إلى هذه الأحداث القديمة ، التى مر عليها عشرات السنين ونسيها الناس ، وإن كان معظمهم يجهلون أو يجهلون معظمها ، لأن أحدًا من الكتاب - قبل جمال بدوى - لم يهتم بعرضها والتعليق عليها .

إن هذا الكتاب إثراء جديد للمكتبة المصرية كانت فى أشد الحاجة إليه ويذكر لصاحبه بالفضل ، ويزيد من فضله مواصلته لكتابة هذه الحلقات فالقارئ أيا كان شيخا أو شابا ، فى أشد الحاجة إليها . وإننى واثق بأن هذه الدراسات الشيقة ستؤدى غرضها فى تنوير المواطن المصرى بتاريخ بلاده وحياة العظماء من رجال مصر الأوفياء ، بعد أن أزال عنهم جمال بدوى غبار الجحود والتجهيل ، وكشف عن جهادهم النبيل فى سبيل مصر الخالدة .

مقدمة الطبعة الأولى بين يدي القارئ

هذه مشاهد من تاريخ مصر الحديث ، يسعدني أن أضعها بين يدي القارئ الكريم ، لكي ينتفع بها ، وتساعد على تفسير أمور كثيرة تجري من حوله ، فأنا لم أكتبها بهدف تسلية القارئ أو الترويح عنه ، ولكن بهدف إزعاجه حتى يعرف نفسه ، وعندما أمسكت بالقلم لأكتب هذه المشاهد فإنني ما تخيلت نفسي شاعرًا بربابة يحكى لرواد مقهاه أمجاد أبي زيد الهلالي ومغامرات الزناتى خليفة . . ولا تخيلت نفسي مدرسًا يلقي تلاميذه معلومات محفوظة عن عظمة خوفو وهو يبنى الهرم الأكبر . أو شجاعة أحبس وهو يطارد الهكسوس في قفار آسيا . . ولكنى عرفت نفسي واحدًا من أبناء هذا الشعب الطيب الصبور ، حمل على صدره أحجار الهرم وارتفع بها مدمًا فوق مدماك . وحمل على كتفه القوس والسهم والسيف والبندقية ، وسار خلف تحوتمس ورمسيس وصلاح الدين وقطز وبيبرس ومحمد على . . وأمسك الفأس ليشق ترع المحمودية والإبراهيمية والإسماعيلية ، ليعم الرخاء والنماء أرض مصر . . ثم حفر قناة السويس ليربط الغرب بالشرق دون أن يعي أنه سيكون هدفًا للغرب والشرق .

لم يكن همى ، عند كتابة هذه المشاهد ، تسجيل أمجاد الملوك والخلفاء والولاة الذين حكموا مصر ، فكتبُ التاريخ تفيض - والحمد لله - بهذه

المعلومات ، ولكن كان همى هو البحث عن أثر هذه الأحداث القديمة في المصريين المحدثين ، لإيماني بأن تاريخ مصر حلقات طويلة متماسكة ، وأن أحداث اليوم هن بنات الأمس ، ولاقتناعي بأن أحداث التاريخ تجري بقوة دفع مطرد . . فكل حادث يملك في داخله عوامل ذاتية تدفع به إلى الأمام فيتولد منه حادث جديد مشابه له في الشكل ، ولكنه يخالفه المحتوى والمضمون . . وهكذا . . تسير - دوما - عجلة التاريخ ، ومن هنا تبطل المقولة الشائعة بأن التاريخ يعيد نفسه . . فهي مقولة تخالف طبيعة الأشياء وتناقض حركة الحياة التي تسير في خط مطرد نحو الأمام . . ولو تخيلنا أنها تسير نحو الوراء ، لكان شأنها شأن عقارب الساعة إذا دارت في عكس الاتجاه المتعارف عليه منذ اخترعت الساعة . .

وأنا حينما أنظر إلى الشقاء الذي عاناه أجدادنا المصريون وهم يحملون أحجار الهرم . فلا أقول إن التاريخ يعيد نفسه حين أراهم وهم يحفرون ترعة المحمودية أو قناة السويس رغم أن الشقاء واحد في الحالين . ولكن الحالة النفسية التي كان عليها المصري مختلفة : فهو في الأولى تحرك بدافع العقيدة التي تتحدث إليه عن فكرة الخلود ، وقدسية الملك ، أما في الثانية فقد تحرك بدافع من الكرباج ! فلو وصفت ذلك بمقولة إن التاريخ يعيد نفسه . لكان معنى ذلك أن الزمان ثابت لا يتحرك . . وأن المصريين متجمدون . . أو متحركون على إيقاع « محلك سر » ، وهو إيقاع يقضى على الكائن الحي بالضمور والانقراض . وهناك بالطبع ، شعوب تجمدت حركتها فانقرضت والتاريخ يدلنا على أمم لحقتها لعنة الفناء فباتت مجرد ذكرى . ولكن هذا السلوك لا ينطبق على المصريين الذين عاشوا على ضفاف النيل منذ آلاف السنين . واستطاعوا أن يقاوموا عناصر الفناء . ومن هنا نشأت خصيصة التواصل التاريخي عند المصريين . وهي خصيصة لا تتمتع بها أمم كثيرة

معاصرة ، فأنت حين تتحدث عن الجزر البريطانية أو فرنسا أو أسبانيا أو المجر . . لا تستطيع أن تحقق وجود ظاهرة التواصل التاريخي في تلك البلاد . . ولا تستطيع أن تقول إن الشعوب التي تعيش الآن فوق هذه الأراضي هي أحفاد الشعوب التي كانت موجودة قبل ميلاد المسيح ، ذلك أن هذه البلدان تعرضت لموجات هجرة عنيفة من جانب القبائل الجرمانية والمغولية ، فغلبت على الشعوب الأصلية حتى أزاحتها وقضت عليها .

● ولكن . . برغم الهجرات والغزوات العديدة التي تعرضت لها مصر فقد حافظ المصريون على تماسكهم وترابطهم ووحدتهم الاجتماعية والسياسية فالعقيدة قد تتغير ، ويتبدل الدين ، ويتحول اللسان . ولكن يبقى المصريون محافظين على نقاء سريرتهم ومعدنهم . . وعاداتهم وتقاليدهم . . ولا أقول نقاء عنصرهم ؛ لأن نظرية نقاء العنصر نظرية رجعية فاسدة ، وإذا صحت بالنسبة للشعوب المغلقة التي تعيش في أدغال إفريقيا أو فيافي آسيا أو على حافة المحيط المتجمد . . فإنها لا يمكن أن تصح على شعب يشغل قلب العالم ، وتتفتح بحاره وصحاريه على كل الاتجاهات الأربعة . . فقد كان أمراً مقضياً أن يختلط بشعوب أخرى ، بل أقول إن هذا الاختلاط كان من عوامل بقائه ، فقد اكتسب العنصر المصري - إن صح هذا التعبير - صفات وراثية قوية على النحو الذي يعرفه علماء الأجناس والسلالات ، وهذه الميزة حرمت منها العناصر المتعجرفة التي عاشت في مصر أسيرة نقاء العنصر ، فذوت وضعفت حتى انقرضت ، وأنت تستطيع أن تجد ذلك ، إذا بحثت عن أحفاد العناصر التركية المتغطرة التي استوطنت مصر ، ولكن انعزلت عن شعبها ، ولم يسمح لها غرورها واستعلاؤها بالتزاوج من الفلاحين المصريين ، فلن تجد لهم ذكراً على عكس القبائل العربية التي اختلطت وامتزجت فكتبت لنفسها البقاء ودخلت في مكونات السبيكة البشرية المصرية .

وهذه الخصيصة التي يتمتع بها التاريخ المصري - خصيصة التواصل والاستمرار - هي التي جعلتني أفسر أمورًا معاصرة بأحداث قديم ، وخصوصًا عندما يتطرق الأمر إلى العلاقة الجدلية بين الحاكم والمحكومين ، عندئذ يكون من اليسير تفسير هذه القضية في ضوء معطياتها المباشرة ، ويكون من الواجب تأصيلها تاريخيًا ، وربطها بالظروف العملية التي حتمت قيام سلطة مركزية تشرف على توزيع مياه الري على زراع الأرض . . ثم احترام الزراع لهذه السلطة وخضوعهم لما تصدره من قوانين وأنظمة . . فنشأ عن ذلك مولد الحكومة المستبدة التي تفرض سلطانها بقوة القهر . ثم قبول الناس لهذا الاستبداد لأنه مرتبط باستمرار الحياة ودوام النماء . . وعلى هذا فإنه يصعب الفصل بين المشاهد والأحداث المتشابهة من تاريخ مصر ، حتى لو باعدت بينها آلاف السنين ، ورغم أنني أضغ بين دفتي هذا الكتاب مشاهد متناثرة من تاريخ مصر الحديث ، إلا أنني أدعو القارئ الكريم إلى أن يكمل بنفسه بقية المشوار فينقب في بطون الكتب عن أصول هذه المشاهد وجذورها المدفونة في تربة مصر ، منذ فجر التاريخ الإنساني ، عندئذ سوف تكتمل أمامه أجزاء الصورة وتتصل حلقات السلسلة التي أشرت إليها في صدر هذا الحديث . عندئذ يعرف المصري نفسه . . ويجد الجواب عن كثير من الأسئلة الحائرة التي تتزاحم بها أحداث اليوم . . وهذا هو الهدف الرئيسي من إعداد هذا الكتاب .

تبقى بعد ذلك ملحوظة . . فسوف يجد القارئ الكريم أنني أهملت ذكر المصادر والمراجع ، وهي مسألة يهتم بها كُتَّاب التاريخ ، وكان من السهل أن أفعل ذلك . . ولكنني وجدت أن ذلك سيبدو عملاً مظهرياً . فما أسهل أن أسجل أسماء مئات الكتب التي رجعت إليها . . ولكنني لم أفعل ؛ لأنني لا أكتب رسالة جامعية تحتم على ذكر مصدر الحدث . ولكنني أقدم تحليلاً للحدث نفسه . . ولذلك تغافلت عن ذكر المصدر ، إذا كان الأمر يتعلق

بالأحداث ، لأنها ملك للجميع ، وذكرها مشاع في عديد من الكتب . ولكنى تعمدت ذكر المرجع ، حين كان الأمر يتعلق برأى أو وجهة نظر تفسر الحدث نفسه ، أو تستخلص منه نتيجة بعينها . . فهى ملك لصاحبها وحده .

وفاء وعرفان

وفى ختام هذا التقديم ، فإن واجب الوفاء يقتضىنى أن أتقدم بالعرفان لكل المؤرخين والباحثين والكتّاب ، الذين رصدوا تاريخ مصر بعين فاحصة . فقد أفدت منهم وتعلمت على أيديهم الكثير .

كما أتقدم بخالص التقدير والاحترام ، للأستاذ الكبير محمد فؤاد سراج الدين زعيم حزب الوفد ، الذى جاء إصراره وجلده وإيمانه عاملاً مؤكداً فى عودة حزب الوفد إلى الساحة السياسية بعد فترة ركود دامت ثلاثين عاماً . وكان ظهور جريدة « الوفد » فرصة ذهبية لظهور هذه المشاهد على صفحاتها الغراء . ومن ثم كانت مثار مناقشات مثمرة بينى وبين هذا الزعيم ، الذى يحفظ فى ذاكرته وعقله أدق الأسرار عن مرحلة زمنية تشغل نصف القرن .

ويسعدنى أن أقدم امتنانى ، إلى أخى وصديقى وزميلي مصطفى شردى رئيس تحرير « الوفد » ، الذى أتاح لهذا الباب التاريخى « كان وأخواتها » أن يحتل مكاناً مرموقاً على صفحاتها منذ عدها الأول . كما لا يفوتنى أن أشيد بملاحظات الأصدقاء والأخوة الذين لم ييخلوا على عبارات التشجيع التى كان لها أبلغ الأثر فى تقويم هذه المشاهد وإظهارها فى أكمل صورة وأدعو الله تعالى أن يمدنى بعونه ، حتى أستطيع مواصلة الرسالة التى أحملها بين جنبى تجاه بنى وطنى . . إنه سميع مجيب .

جمال بدوى

مصر الجديدة أكتوبر ١٩٨٦

غرباء .. لكن أمراء

في تاريخ مصر الإسلامية ، أسماء لامعة لحكام غرباء ، وثبوا إلى السلطة جهاراً نهاراً ، وأهلها صامتون مستسلمون لا يملكون غير الدعاء لولى الأمر بالصلاح والعز والتأييد . عندك - مثلاً - أحمد بن طولون ، الجندي التركستاني الذي جاء أبوه إلى بغداد أسيراً ، فلم يلبث الابن أن شب في حرس البلاط العباسي ، حيث تتهيا الفرص أمام هؤلاء الجند المحظوظين لحكم الولايات الإسلامية ، وكانت مصر - أغنى الولايات وأعرقها - من نصيب أحمد ، فاستقل بها عن دولة الخلافة وأقام فيها إمبراطورية وصلت حدودها إلى الأناضول ، وهناك محمد بن طغج بن جف الإخشيد ، الذي ولد في فرغانة من بلاد ما وراء النهر ، وسلك نفس الطريق الذي سلكه سلفه ، حين ألقت به الريح إلى أرض الكنانة ، وعندك كافور ، العبد الخصى ، الذي تولى الوصاية على أبناء سيده الإخشيد ، فأطاح بهم واستبد بالأمر وأصبح ملكاً مرموقاً يقصده العلماء والأدباء والشعراء ، ومنهم « المتنبي » الذي مدحه بأجمل الأوصاف طمعاً في أن يمن عليه بحكم أحد الأقاليم المصرية ، فلما خاب سعيه هرب من مصر في ليلة عيد ، وهو يهجو كافوراً بأقذع الشتائم . وعندك بدر الجمالي ، المملوك الأرمني ، الذي استقدمه الخليفة الفاطمي المستنصر من عكا لمعالجة الفوضى التي عمت البلاد بسبب الصراع بين زعماء فرق الجند المرتزقة ، فقطع رؤوسهم وأعاد الاستقرار والأمن إلى ربوع مصر ، وأحاط القاهرة بسور حجري سميك ، لا تزال بقاياها ماثلة في أبواب الفتوح والنصر وزويلة ، وترك في مصر سلالة الوزراء العظام ، وعندك شجرة الدر الجارية الحسنة ، التي قدمت مصر لقمة سائغة إلى بني جنسها المماليك ليحكموها ٢٥٠ سنة أويزيد .

وقائمة الحكام الغرباء ، الذين استولوا على مصر ، طويلة ومتشعبة ، وهى أشبه بسلسلة محكمة ، أحاطت برقاب المصريين وحالت بينهم وبين حكم أنفسهم . ولعل أقرب هؤلاء الحكام الغرباء إلى عصرنا ، محمد على تاجر الدخان الألبانى الذى جاء إلى مصر جنديا فى حملة عثمانية لإخراج الفرنسيين منها ، فوضع رجله فيها ولم يغادرها أبدا ، وأقام فيها إمبراطورية وأسرة ملكية . فأما الإمبراطورية فقد اندثرت قبل أن يموت ، ووقع بيده شهادة وفاتها فى اتفاقية لندن ١٨٤٠ ، وأما الأسرة ، فقد بقيت ١٥٠ سنة حتى أطاحت بها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كيف استطاع هؤلاء الأفراد المغامرون ، أن يحكموا بلداً قديماً عريقاً كمصر ، دون أن يكون لأهلها رأى فى هذا الحكم ؟! هذا سؤال خطير ، ينبغى على كل مصرى أن يفكر فيه جيداً ، وأن يبحث عن الجواب بنفسه ، فى بطون الكتب وعلى جدران المتاحف ؛ لأن الجواب سيكشف له عن بعض أسرار الشخصية المصرية ، ويلقى الضوء على سلوكياتها وعاداتها وتقاليدها ، وسيضع أيدينا على مفاتيح العلاقة الأزلية بين المواطن والسلطة ونظرته إلى الحكومة ، ودرجة احترامه للنظام والقانون ، ومغزى الأمثال الشعبية التى نحتها الوجدان المصرى من الواقع . .

وقبل أن نمضى فى رحلة البحث المضنى ، أرى من الأمانة أن أعرض عليك تحفظاً ، يديه بعض المؤرخين إزاء وصف أولئك الحكام بأنهم « غرباء » ؛ فهم يرفضون هذا الوصف ، وحجتهم فى ذلك أن هؤلاء الحكام ما وصلوا إلى قمة السلطة إلا فى ظل الإسلام ، الذى يرفض تقسيم الناس عرقياً أو قومياً أو جنسياً أو وطنياً ومن ثم فهو يفتح الباب أمام أى إنسان أمين تتوفر فيه مؤهلات الحكم ، لكى يصل إلى القمة ولو كان عبداً حبشياً . . وما يهم الإسلام هو أن يلتزم الحاكم بمبادئ العدل والإحسان والمساواة والشورى وبعدها يكون على الناس السمع والطاعة . فأرجو أن تضع هذا المفهوم فى اعتبارك ، وأن تبحث عن الجواب .

الصعلوكة على عرش فرعون

من كان يصدق أن ترتقى هذه « الصعلوكة » في سلم المجد والعظمة ، حتى
تتربع على عرش فرعون . . ويكون لها في تاريخ مصر والعالم الإسلامى مكان
مرموق . . ؟ فتاة جميلة ، أشبه بزهرة متوحشة ، نبتت بين الصخور في الهضاب
الآسيوية ، ثم طوحت بها الريح إلى هذا البلد العجيب - مصر - الذى يحنو على كل
غريب ، ويحتضن كل وافد . . فإذا بالزهرة البرية تثبت جذورها فى الطين ، وتسفر
عن شجرة باسقة القوام . . تطاول السحاب . . وتصمد للأعاصير، ويثول إليها
زمام الأمر فى الديار المصرية ، فى لحظة من لحظات التاريخ الفاصلة . . فالصليبيون
قد احتلوا دمياط . . ويمموا زحفا نحو القاهرة . . والدولة كلها ، بسلطانها
وجيشها وشيوخها وشبابها ، تمركزت فى المنصورة استعدادا لمعركة المصير . . وفى تلك
اللحظة الحرجة مات السلطان فى معسكره . . ولك أن تتصور وقع الخبر على
المقاتلين ، وهم يتهيئون للزحف . . ولكن الجارية الحسنة ، شجرة الدر - أو شجر
الدر كما ورد فى بعض المصادر - تكتمت الخبر . . وأدارت الأمور بكفاءة يعجز عنها
الرجال . . حتى تحقق النصر الساحق الماحق . . واندحر الفرنسيين ، وبات
ملكهم - لويس التاسع - أسيرا فى دار ابن لقمان ، تحت حراسة الطواشى صبيح . .
وبذلك انفتح الباب على مصراعيه ، أمام شجرة الدر لتجلس على عرش خوفو
وتحتمس وكيلوباترا والمعز لدين الله وصلاح الدين الأيوبي . .

* كيف حدث ذلك . . ؟

وكيف استطاعت هذه المرأة ، باهرة الحسن ، أن تبلغ القمة التى قصرت دونها

أعناق الرجال ، وأن تملك العرش الذى يتصارع من حوله أمراء البيت المالك الأيوبي ، وصناديد الجيش المملوكى ؟

لم تكن « شجرة الدر » ، تحمل فى يدها سيفاً ولا رمحاً . . ولا تقود من ورائها جيشاً يدفع بها إلى القمة بقوة القهر أو بحق الفتح . . ثم إنها لم تكن من سليلات البيت الأيوبي ، حتى تطالب بوراثة العرش ، لم تكن تملك شيئاً من مسوغات التعيين فى هذا المنصب الرفيع . . فضلاً عن كونها أنثى فى بلد مسلم يأبى حكم النساء . . ولكنها كانت تطوى جوانحها على إرادة حديدية تتواضع أمامها عزائم الرجال . . وتملك ذكاء خارقاً ، ودهاء فائقاً ، ومقدرة فذة على التدبير ، ومن يملك هذه الأسلحة فى دنيا السياسة ، لم تكن به حاجة إلى تكديس السلاح أو تحريك الجيوش . . وفوق ذلك كانت تعرف كيف تتعامل مع هذا الصنف من الرجال وكلهم طامع فى العرش . . وكلهم يحمل فى قلبه بذرة الضعف أمام زهوة الحكم وبريق السلطة . أما هى . . فكانت تتعفف وتتعرز وتتمنع . . فكانت بذلك أقوى منهم أجمعين . . حتى جاءوا إليها طائعين يحملون إليها عرش مصر على طبق من الفضة . . !!

من أين جاءت هذه الزهرة الوحشية . . ؟ كيف نبتت وترعرعت قبل أن تحتل قلب سيدها ومولاها ، الملك الصالح نجم الدين أيوب ، آخر الملوك الأيوبيين فى مصر ؟

إن مصادر التاريخ لا تقدم لنا معلومات دقيقة عن المراحل الأولى من حياة شجرة الدر ، شأنها فى ذلك شأن كل الصعاليك الذين أصبحوا من المشاهير ، بعد أن اجتازوا صدر الشباب . . ومتى كان التاريخ يهتم بالحشائش الطفيلية التى تنبت على حواف الترع وسفوح الجبال . . ؟!

وشجرة الدر ، واحدة من ملايين المشردين ، الذين هاموا على وجوههم فى الطرقات هرباً من زحف المغول ، فتداولتها أيدي النخاسين ، يبيعونها لمن يدفع فلا تكاد تستقر فى بلد ، حتى ينهار ويستسلم . فى أية شجرة إنسانية تنتسب الفتاة ؟ لا أحد يعرف ! فالبعض يقول إنها أرمنية . . والبعض يزعم أنها تركية . . وآخرون

يؤكدون أنها شركسية من القوقاز . . أما هي فلا تتكلم . . ولا تفصح عن ماضيها . . ولا تكشف عن شيء من حياتها الأولى . . كأنها تريد أن تضع على الماضي ستارًا كثيفًا . . وإزاء هذا الصمت المريب ، تطوع المؤرخون - أدام الله عزهم - فصنعوا لها تاريخًا مجيدًا ، واختلقوا شجرة عريقة الجذور ، ثم جعلوا منها ثمرة زكية لهذا المنبت الأصيل ، فزعموا أن أباهما هو السلطان أزبك البهلوان ملك تبريز - من بلاد العجم - أما أمها فقالوا إنها الأميرة السلجوقية الشهيرة فاطمة خاتون .

ويبدو أن هذا « البهلوان » كان اسما على مسمى ، فلم يكذ يسمع باقتراب المغول من مملكته ، حتى ترك الجمل بما حمل ، وتخلّى عن شعبه وأسرته ، ومضى إلى معسكر الأعداء ذليلاً خائراً يعمل في ركبهم ، ويساعدهم على تدمير الممالك الإسلامية المجاورة ، فلما علمت فاطمة خاتون بجريمة زوجها ، أعلنت أنها طالق منه . وحملت طفلتها ، ورحلت إلى بلاط السلطان جلال الدين ، آخر ملوك خوارزم ، وطلبت منه أن يتزوجها ، وأخذت تشد أزره حتى يصمد أمام جحافل المغول ، ولكن الإغصار المغولي كان أقوى من الجميع ، فاكتسح مملكة خوارزم ، وفر جلال الدين ليلفظ أنفاسه في جزيرة معزولة في بحر قزوين ، ثم لحقت به فاطمة خاتون . أما الطفلة الصغيرة شجرة الدر ، فقد ضاعت في زحام الحياة ، حتى التقطها النحاسون . وظلت الأيدي تتداولها ، إلى أن وقعت في حوزة الأمير الأيوبي المصري نجم الدين ، وكان يعيش يومئذ منفيا في حصن « كيفا » ، على مشارف العراق . . ولما علمت أنها وضعت قدميها على عتبات العز والمجد ، لم تلبث أن صارت سيدة القصر وصاحبة الأمر والنهي . لقد دخلت قلب سيدها الأمير ، ولم تخرج منه حتى النفس الأخير الذي لفظه في المنصورة . وما إن وارت التراب ، حتى جلست بعده على عرش مصر المحروسة ، وتقبل المصريون الأمر الواقع باستسلام وطواعية ، ولم تظهر عليهم بادرة تمرد أو سخط ، لأنهم كانوا قد فقدوا القدرة على التمرد والسخط منذ حكمهم الغرباء قبل ٢٥٠٠ سنة ، ولم يشعروا بالدهشة ، إذ تحكمهم جارية مجهولة الهوية . ولكن - بعد ٨٠ يوما من التسلط - أزيحت السلطنة عن العرش لأسباب خارجة عن إرادتها وإرادة الشعب المصري .

فى الليلة الموعودة

كان من المستحيل أن تستقر شجرة الدر على عرش مصر لفترة طويلة ، بالرغم من تقبل المصريين لهذا الوضع الشاذ . . . وبالرغم من رضاء زعماء المماليك ، الذين آلت إليهم مقاليد الأمور ، بعد خلع آخر سلاطين البيت الأيوبي الحاكم « توران شاه » ، وقتله فى فارسكور . . . ولم يأت الرفض من جانب المحكومين . . . ولا من جانب الحكام . . . وإنما جاء من جانب الخلافة العباسية فى بغداد ، إذ أرسل الخليفة المستعصم رسالة تقريع وتأنيب إلى زعماء المماليك لأنهم ولوا عليهم امرأة . . . وقال لهم إذا كان عنصر الرجال قد ندر عندكم ، فأبلغونا نرسل إليكم . . . رجلا . . . !

وفعلت الرسالة فعلها ، واستجاب المماليك لتعليمات الخليفة بالرغم من أن الخلافة كانت فى مرحلة الأفول والاحتضار ، ذلك أن قادة المماليك - وهم عبيد مشترون بالمال - كانوا يشعرون فى أعماقهم بدناءة أصلهم ، وافتقارهم إلى سند شرعى يخولهم حكم مصر ، ولم يكن سكوت المصريين عن استبدادهم بالأمر ، دليلا على الشرعية . . . كذلك فإن الانتصار العظيم الذى حققوه على الصليبيين فى المنصورة ، لم يكن مبررا كافيا لاستيلائهم على شئون مصر .

وبعد مشاورات ومداولات للخروج من الورطة ، استقر رأى الحكام الجدد على تزويج السلطنة شجرة الدر من أحد أركان النظام الجديد ، « عز الدين أيبك » . . . فيصبح للحكم واجهة « رجالي » ترضى غرور الخلافة وتحوز بركاتها . ومن ناحية أخرى ، يمكن الحفاظ على مكانة السيدة التى يرجع الفضل إليها فى انتقال السلطة من البيت الأيوبي إلى بنى جنسها المغامرين القادمين من فيا فى القوقاز .

وقبلت شجرة الدر هذا الحل ، الذى يمكنها من الاستمرار فى حكم مصر من

تحت ذقن زوجها . وكان من الممكن أن تستمر اللعبة طويلاً ، لولا أن دخلها عنصر
العاطفة النسوية ، وهو عنصر مدمر لا يقيم اعتباراً لقواعد السياسة وأصول الحكم .
فقد أقدم أيك على خطوة جريئة ، حين تجرأ على الزواج بسيدة أخرى اسمها أم
على . . . ولم تتخيل شجرة الدر ، التي ذاقَت لذة الاستبداد والتفرد ، أن تصبح «ضرة»
لامرأة أخرى تشاركها قلب زوجها ، واقتنعت بأن أيك قد خرج على أصول اللعبة
المتفق عليها ، فحق عليه العقاب . وفي الليلة الموعودة ، مضى المسكين إلى مخدع
شجرة الدر ، حيث تقيم بالقلعة ، فاستقبلته وهي في أبهى زيتها ، وأظهرت له من
مفاتيح أنوثتها ولواعج حبها ، ما لم يلمسه من قبل . فلما ذهب إلى الحمام وألقى
بجسده في المغطس ، تكالب عليه غلمان السلطنة ، وهم يشهرون بأيديهم القباقيب
الخشبية ، وانهالوا على رأسه وهو يصيح بزوجه مستغيثاً . . ضارعا . . ولكن
صرخاته ذهبت أدراج الرياح . . ولم تجد ضراعاته صدى في قلبها الذي قد من
صخر الجبال .

وبعد أيام ، لقيت شجرة الدر حتفها ، بنفس السلاح الحقير الذي قتلت به
زوجها ، على يد ضررتها الست أم على ، ثم ألقى الغلمان بجثمانها من فوق أسوار
القلعة لتنهشه الكلاب والضواري . . وبعد ثلاثة أيام ، تطوع بعض أهل الخير
بجمع ما تبقى من رفاتها ، ودفنوه في المسجد الفخم الذي أقامته لنفسها بالقرب من
ضريح السيدة نفيسة . . وانتهت مأساة امرأة لم تفلح أبهة الملك وعظمة السلطان
وزهوة الطغيان ، في أن تنسيها أنها امرأة .

عنزة السيدة نفيسة

بات المجتمع المصرى ، خلال العصرين المملوكى والعثمانى ، نهبا للخرافات والخزعبلات ، والأساطير التى كانت عقول خبيثة تنسجها ، مستغلة سذاجة الناس وضحالة وعيهم ، ومستنزفة ما فى جيوبهم . وقد استيقظت القاهرة ، ذات صباح على قصة خرافية تزعم أن عنزة صعدت فوق مئذنة مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وأخذت تكلم الناس ، وتحضهم على فعل الخيرات ، وتحذرهم من ارتكاب الموبقات . وتطورت القصة ، بعد أن تناقلتها السنة العوام ، فأضافوا إليها بعض التوابل والمشهيات ، واكتملت لها عناصر الإثارة والتشويق ، واستقرت القصة فى الشارع المصرى ، على النحو التالى ، كما رواها الجبرتى .

كان بعض الجند المصريين ، قد وقعوا أسرى الحرب فى بلاد الفرنجة . وذات يوم ، اشتروا عنزة ليذبحوها فى مجلس الذكر الذى عقده ، قربانا إلى الله ، كى يفك أسرهم ويعيدهم إلى ديارهم ، ولكن الحارس القائم على أمرهم ، أبى عليهم ذلك واستولى على العنزة ومضى بها إلى بيته . فلما أوى إلى فراشه ، رأى فى منامه رؤيا مزعجة ، فأدرك على الفور أن العنزة مباركة ، فلما أشرق الصباح ، أعاد العنزة إلى الجند ، ثم أطلق سراحهم ، وزودهم ببعض المال كى يستعينوا به على الرحيل إلى بلادهم ، فاستقلوا مركبا إلى مصر ، ومعهم العنزة المباركة . فلما بلغوا القاهرة ، ذهبوا من فورهم إلى مسجد السيدة نفيسة ، وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها . وفى الصباح وجدوا العنزة قد اعتلت المنارة ، وسمعوها تكلم الناس . وكان للمسجد خادم ذكى اسمه الشيخ عبد اللطيف ، أدرك الفائدة العظمى التى ستعود عليه من ترويح قصة العنزة ، فأشاع بين رواد المسجد أن السيدة نفيسة خاطبته من مقصورتها وأوصته

بالعنزة خيرا ، وذاعت الخرافة بين أهل القاهرة ، فتوافدوا على المسجد لرؤية العنزة والتبرك بها ، والتبرع لها بما تجود به أريحيتهم . وانفتح باب الرزق الرغيد أمام الشيخ عبد اللطيف ، فوضع تسعيرة محددة لكل درجة من درجات القرب من العنزة أدناها الرؤية المجردة ، وأعلاها المسح على جسمها ، والحصول على بركاتها وانهاالت الهدايا والندور على الشيخ عبد اللطيف ، فكان يخبرهم بأن العنزة لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، ولا تشرب إلا ماء الورد المحلى بالسكر المكرر . فيحمل الناس إليه أطنانا من هذا وذاك ، حتى تكدست لديه أكوام من أطايب الطعام والشراب . وبلغت القصة مسامع الأميرات وزوجات الكبراء والقادة ، فكن يتسابقن إلى صنع القلائد الذهبية والأقراط والأساور ، ويبعثن بها إلى الشيخ عبد اللطيف ، ليزين بها جسد العنزة المباركة .

* * *

وكان الأمير عبد الرحمن كتحدا ، من أشد الأمراء حزما وحسما ، وأكثرهم وعيا ورفضاً لهذه الخزعبلات . فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يرجوه أن يتعطف بزيارته في قصره ، وبصحبه العنزة ، حتى يتمكن أهل بيته من رؤيتها والتماس البركة منها . وسعد الشيخ عبد اللطيف ، بهذه الدعوة التي ستفتح أمامه قصور الأمراء والكبراء . . . وحدد يوما لهذه الرحلة الميمونة ، فتجمع أرباب الطرق الصوفية في موكب مهيب ، لمصاحبه من مسجد السيدة نفيسة إلى قصر الأمير كتحدا ، المجاور لمسجد أحمد بن طولون . وامتنطى الشيخ عبد اللطيف بغلته ، وحمل العنزة في حجره ، تحيط به الأعلام والبيارق ، وتتقدمه الطبول والزمور . . . وتهادى الموكب عبر شوارع الصليبية وسوق السلاح ، والناس يتجمعون من كل أنحاء القاهرة لرؤية العنزة المباركة ، وهي تتربع في دهشة من هذا الحشد الغريب ، ولا تدرى شيئا مما يدور حولها ، حتى إذا بلغ الموكب باب القصر ، نهض الأمير هو وضيوفه من العظماء والوجهاء لاستقبال العنزة المباركة ، واستأذن الأمير في أن تمضى العنزة إلى جناح الحريم ، فرحب الشيخ عبد اللطيف ، وأعطاه العنزة ، فحملها الخدم إلى المطبخ حيث انهاالت عليها سكين الجزار ، فذبحتها وسلختها وتسابق الطباخون إلى سلقها وتحميرها ، بينما اتخذ الشيخ عبد اللطيف مكانه في صدر المجلس ، يروى للأمراء مزيدا من الخرافات عن كرامات العنزة .

وحان موعد الغداء ، فأمر كتحدا بمد السباط ، فدخل الخدم يحملون أطباق الفتة تعلوها هبر من اللحم الشهى . . وانهاالت أيدي الأمير وضيوفه تنهش أطايب اللحم . . وبين الحين والحين كان الأمير يحث الشيخ عبد اللطيف على تناول المزيد من اللحم قائلا : كل ياشيخ عبد اللطيف هذه القطعة السمينة . . فيلتهمها الرجل ممتنا . . والأمراء من حوله يتغامزون ، ويكتمون ضحكاتهم ، حتى فرغوا من الطعام وشرب القهوة ، فنهض الشيخ عبد اللطيف مستأذنا في الانصراف ومعه العنزة . فقال له الأمير عبد الرحمن . . أى عنزة تقصد ؟؟

فقال خادم المسجد : العنزة المباركة التى دخلت جناح الحريم !
فقال الأمير : العنزة لم تدخل جناح الحريم مطلقا . . ولكنها دخلت بطنك ياكاذب . . يافاجر . . يافاق . . وهذا دليل على ضلالك المبين .

* * *

وبهت الرجل ، من هول المفاجأة ، التى وقعت على رأسه كالصاعقة . . وحاول الإفلات بجلده . . ولكن الأمير أمسك بخنقه وأمر مماليكه بضربه ستين عصا على رجليه . . ثم أمر بجلد العنزة فطرحه على عمامته ، وطاف به الجند شوارع القاهرة ليكون عبرة لغيره من الأفافين والنصابين الذين يحتالون على الناس بالأساطير التى تستغل عواطفهم الدينية . . والدين منها براء .

يا خفى الألفاف

فى الثانى والعشرين من أكتوبر ١٧٩٨ ، انطلقت أول قنبلة من المدافع الفرنسية المثبتة فى حصون القلعة . فسقطت فى صحن الأزهر ، وتناثرت شظاياها ، ففتكت بالجموع التى احتشدت فيه . ثم توالى سقوط القنابل ، حتى أوشكت جدران الجامع أن تتداعى على الأشلاء الممزقة والجثث المتراكمة . وكان وابل القنابل يتساقط من أعالى القلعة ، فيدمر الأحياء المجاورة للجامع العتيق ، ويحيلها ركاما ، وكان الأزهر فى حد ذاته هدفا مطلوبا ، فمنه انطلقت جذوة الثورة على الحملة الفرنسية . وإلى رحابه لجأ الثائرون . فأصبح بؤرة للوطنية المتأججة ، إلى جانب كونه معقلاً للعلم والدين .

وكانت القلعة ، منذ بناها صلاح الدين الأيوبي ، على التلال المشرفة على العاصمة ، حصنا عسكريا منيعا ، هدفه حماية القاهرة من تهديدات الغزو الصليبي على الحدود الشرقية ، وربطها بحزام من الأسوار والأبواب الضخمة التى لا تزال بقاياها قائمة عند بوابة الفتوح وبوابة المتولى وباب النصر وفم الخليج . . ولكن القلعة لم تستخدم أبدا فى تحقيق الهدف العسكري الذى أنشئت من أجله ، ولم تفلح القلعة مرة واحدة فى صد الغزاة الذين توافدوا على مصر ، بدءا بالجيش العثماني ومرورا بالحملة الفرنسية ، وانتهاء بالقوات البريطانية التى زحفت على القاهرة بعد إخماد الثورة العربية ، وهزيمة الجيش المصري فى التل الكبير . . . فيم إذن فائدة القلعة ؟

* * *

لقد استقر فى عرف المؤرخين الذين رصدوا تاريخ القلعة ، أنها لم تكن أكثر من

حصن منيع لحماية حكام مصر ، وقمع الشعب إذا فكر في التمرد أو العصيان . .
فالقاهرة بحكم موقعها على رأس الصعيد وعند مفترق الدلتا ، هي مفتاح الحكم في
مصر ، من يملكها يملك مصر كلها . ومن يملك القلعة يملك القاهرة . وكانت
الفجوة القائمة بين القلعة والقاهرة ، على اتساع الفجوة القائمة بين الحكام الغرباء
والمحكومين المغلوبين على أمرهم . فالقلعة تقف في عليائها وقفة الشموخ
والتحدى . . بينما العاصمة ترقد في سلامة وطمأنينة على ضفة النيل ، وبين أحضان
الروابي الخضر التي تحيط بها . . تكد وتكدح ثم تنام ملء جفونها وحكامها لا
ينامون . . عيونهم دائما مفتوحة على المجهول . . وترصد كل ما يجري في الأزقة
والخوارى المكدسة تحسبًا لما يجبئه الغد .

ولقد أدت القلعة الغرض الحقيقي منها . . ووفرت عنصر الأمان لحكام مصر على
تعاقب الأجيال . . منذ الأيوبيين والمماليك والعثمانيين حتى أبناء محمد علي . . كلهم
عاش في حصونها . . واحتفى بقلاعها . . واستعلى على شعبها . . فلا يهبط إلى
المدينة إلا مضطراً . . وكان أول الهابطين هو الخديو إسماعيل ، بعد أن بنى قصر
عابدين وجعله مقراً رسمياً للحكم . أما نابليون ، فقد أدرك المهمة الحقيقية للقلعة
فمنذ دخوله القاهرة ، بدأ في ترميم أبراجها ، وتدعيم حصونها استعداداً لليوم
الموعود . .



ولقد أتى اليوم المرتقب ، عندما ثارت القاهرة على الفرنسيين ، فلم يتورع نابليون
عن صب نيرانه الحامية على الجامع الأزهر وما جاوره من أحياء مكتظة بالأهالي . .
يقول الجبرتي في وصف هذه المذبحة : « فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا في
عمرهم عاينوه . نادوا ياسلام من هذه الآلام ، ياخفى الألفاف نجنا مما نخاف .
وهربوا من كل سوق ، ودخلوا في الشقوق . وتتابع الرمي من القلعة والكيان ، حتى
تزعزعت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور
ونزل في البيوت والوكائل ، وأصمت الأذان بصوتها الهائل . . وبعد هجعة من
الليل ، دخل الفرنج المدينة كالسيل ، ومروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانعا .
ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا

بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأواني والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيهم ، وألقوها بصحنه ونواصبه ، وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثيابه أخرجوه . . وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون ، وللنجاة بأنفسهم يطلبون ، وانتهكت حرمة تلك البقعة ، بعد أن كانت أشرف البقاع . وكثير من الناس ذبحوهم . وفي بحر النيل قذفوهم ، ومات في هذين اليومين ، أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله .

سنوات الحيرة

كانت السنوات الخمس ، التى تلت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، من أروع حلقات التاريخ المصرى كفاحاً ونضالاً وحركة وحيوية . . ولكنها تبقى - مع ذلك - أشد هذه الحلقات مدعاة للدهشة والحيرة . . كانت هذه السنوات بمثابة لحظة إشراق بعد ليل طويل حالك السواد ، وكان المتوقع أن يسفر الفجر الوليد عن حركة تحرير كبرى يتخلص فيها الشعب المصرى من أغلال النظام القديم ، ويتحرر من رق الترك والمماليك . . ولكن الثمرة الناضجة ، وضعت على طبق من الفضة وقدمها السيد عمر مكرم بالهناء والشفاء ، إلى الضابط الألبانى المغامر محمد على ليحكم مصر مع أبنائه وأحفاده قرناً ونصف قرن بالتهم والكمال . . وكأننا يابدر لا رحنا . . ولا جينا . . !

والأمر المؤكد ، أن المصريين أفادوا من الحملة الفرنسية ، برغم النكبات والكوارث التى سببتها لهم ، فالحملة التى ضمت كتيبة من العلماء ، وحملت مع المدفع المطبوعة والصحيفة والمعمل ، تركت بصماتها على العقل المصرى . وتسامع المصريون بأفكار الثورة الفرنسية التى هزت عروش أوروبا ، وترددت بينهم أسماء فولتير وروسو ومونتسكيو ، وأضرابهم من آباء الفكر الليبرالى ودعاة الحرية والمساواة ، وحق الشعوب فى التمرد على الطغاة والمتجبرين . ولاشك أن المصريين شاهدوا ولمسوا وتأثروا بالنمط السياسى الجديد ، والتقاليد الجديدة التى جاء بها الفرنسيون . فلما غادروا مصر كانت الشراذم التركية والمملوكية تتهاى لاستعادة مجدها الغابر . . كانت تمسك فى يدها الأغلال والأصفاد ، لتضعها فى عنق الشعب المصرى مرة أخرى ، ولم يكن من المعقول أن يتم لهم ما أرادوا بعد أن تجلى جنبهم وخورهم وتحاذلهم أمام الفرنسيين ، لقد هربوا جميعاً من الساحة كالفئران المذعورة ، وتركوا المصريين وجهاً

لوجه أمام قدرهم . . وأثبت المصريون أنهم رجال ، من خلال الثورات والهبات التي قاموا بها ضد الاحتلال الفرنسي ، ودفعوا ثمن الحرية بالدم والعرق والدموع . . أفليس من حقهم بعد ذلك أن يستمتعوا بالحرية . . ؟ أليس من حقهم أن يتطلعوا إلى عصر جديد ، تتحدد فيه العلاقة بين الحاكم والمحكومين على أسس جديدة ومفاهيم جديدة تختلف عن تلك التي كانت قائمة في العصر الوسيط . . ؟

* ولكن أى تحرر كان المصريون يريدونه . . ؟

* وما هو مفهوم الحرية الذى ينشدون . . ؟

هذا هو السؤال الصعب الذى تحار فى فهمه العقول . . ولكنى نكون منصفين مع آبائنا وأجدادنا ، ولكيلا نقسو فى أحكامنا عليهم ، يجب أن نضع فى اعتبارنا اختلاف المفاهيم بين عصرنا وعصرهم ، إذ من الخطأ الكبير أن نحكم على عصرهم بآراء عصرنا . . ومن الظلم والإجحاف أن نحاسبهم بتقاليد عصرنا ، التى تضع اعتبار الاستقلال الوطنى فوق كل اعتبار ، ولم تكن مثل هذه المفاهيم شائعة أو مطروقة فى زمانهم ، ولعل أوضح دليل ، هو تصرف الزعيم عمر مكرم الذى حمل لواء الثورة . . ولكنه انتهى بها إلى أحضان السيادة العثمانية ، وكان فى كل ما فعل منسجما مع أفكار عصره . . معبرا عن آراء مواطنيه التى لا ترى الأمان إلا فى ظلال السلطان ، ولا تتصور الانفصال عنه .

وإذا كان الأستاذ الرافعى ، قد ارتفع بالشعور القومى المصرى فى ذلك العصر إلى مرتبة نظيره فى فرنسا ، وما أحدثه من ثورة استقلالية كبرى ، فإن الدكتور حسين مؤنس يحذرنا من الإسراف فى هذا التقدير ، لأن المصريين لم يكونوا يطلبون الحرية والاستقلال كما نفهمهما الآن . ولم يكن عمر مكرم نفسه يفهم الحرية بأكثر من أنها رفع المظالم وتخفيض الضرائب .

ويرى الدكتور مؤنس أن عمر مكرم ، لم يكن فريداً فى فهمه هذا . . بل كان مثله فيه ، كممثل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من أهل البلاد ، فمهما بلغت مطامعهم ، لم يكن أحد منهم يفكر فى أن يتولى بنفسه حكومة البلاد . بل كان أقصى أمانهم أن يتقربوا إلى أولى الأمر ، وأن يحظوا منهم بالعطف والرعاية ، وتلك

نتيجة طبيعية للوضع السياسى الذى وجد الشعب المصرى نفسه عليه ، فى ظل الحكومات التى تواترت عليه من قديم الزمان ، إذ أضعف فيه ثقته بنفسه . وجعله يخشى المسئولية ولا يقتدر على أعباء الحكم ، فيكتفى بأن يكبله إلى الأجانب ويتولى هو المعاونة والمساعدة ، وهذا ما فعله عمر مكرم . . فقد ترك الأمر طوعية لمحمد على ، وسلمه كل مقومات الحكم ، كأنه كان يشعر فى نفسه بأنه غير كفء له .

تحرير التجنيد

كيف سكت المصريون - وهم أبناء المجد القديم والحضارة العريقة - على استبداد المماليك بهم ، وانفرادهم بالحكم دونهم ؟ وقد عرفنا أن المماليك كانوا صبية يباعون في أسواق الرقيق ، فأكثر الحكام الأيوبيون من شرائهم ، وجعلوهم جنودا في الجيش . فلم يلبثوا أن قوضوا عرش سادتهم ، وأصبحوا هم ملوك مصر وشكلت منهم أرستقراطية عسكرية تستأثر بخيرات البلاد ، ولا تترك لأصحابها غير الفتات . . ١١

كيف تقبل المصريون هذا الوضع المهين واستسلموا له كأنه قدر لا فكاك منه ؟ هذا السؤال يجب أن يطرحه كل مصرى على نفسه ، ويبحث عن الجواب ، كي يتعلم أن التهاون في أداء الواجب القومي لابد أن يؤدي إلى التسيب والانحلال وضياح الاستقلال ، وإهدار العزة الوطنية ، وليس أقدر من الدفاع عن الوطن واجبا تبذل من أجله المهج والأرواح ، فإذا تخلى أبناء البلاد عن هذا الواجب المقدس وحمله عنهم الغرباء ، فقد حق لهؤلاء أن يقبضوا ثمن عرقهم ، ومن يبذل الدم من حقه أن يجنى الشهد .

ولو تتبعنا تاريخ العسكرية المصرية ، على مدى ألفى عام أو تزيد ، فسوف نكتشف أن عبء الدفاع عن البلاد ، قد انتقل من كاهل أبنائها إلى أيدي الأجناد الأجنبية : الإغريق والرومان والعرب والأكراد والمغاربة والسودان والترك والأرمن والشركس والبلغار . . إلخ . منهم كانت تتألف كتائب الجيش ، وفي المعارك التي تسمع عنها في حطين والمنصورة وعين جالوت ومرج دابق والريدانية . . فاعلم أن المحاربين كانوا من خارج العائلة المصرية ، ولم يكن للمصريين في هذه الملاحم غير المساندة المعنوية وخدمة الجيش .

من المستول عن تجريد المصريين من السلاح وإبعادهم عن حقل التجنيد . . ؟
إن الجواب عن هذا السؤال سيجعلنا منصفين في تقويم تاريخنا . . وحتى لا نسرف
في تعذيب أنفسنا ؛ فالواقع أن عملية إبعاد المصريين عن الجيش ، كانت عملية
مدبرة حرص حكام مصر - وكلهم من الغرباء - على توارثها وتنفيذها بدقة . كانوا
يخافون اليوم ، الذى يتخلى فيه الفلاح المصرى عن الفأس ويحمل السيف أو
البندقية . كانوا على ثقة بأن أول عمل سيقوم به هذا الفلاح ، هو أن يستدير ليسدد
فوهة بندقيته نحو صدور الذين أذلوه وأهانوه وسرقوا عرقه ، و « قطعوا » وسطه من
كثرة الضرائب . . « وهذا ما فعله أحمد عرابى » . لذلك لم يفكروا قط في تجنيد
المصريين ، وفضلوا عليهم المرتزقة والصعاليك والمغامرين . . ولك أن تتصور عمق
الآلم النفسى الذى كان ينتاب المواطن ، وهو يرى نفسه محروما من شرف الدفاع عن
وطنه ، ويبقى حبس الحقل والمعمل والورشة ، مثل ربات الخدور . . ١١



ولك أن تقول : ولماذا لم يتطوع المصريون لأداء واجب الدفاع عن وطنهم دون
انتظار للنفير . ؟ وأقول لك إن الانخراط في سلك الجندية لم يكن تطوعيا ، ولكن
كان يخضع لأنظمة وقيود لا يتصورها العقل الحديث ، وفي العصر المملوكى ، كانت
العسكرية حرفة لها أصول وقواعد ، ونظم وطقوس ، يخضع لها الجندى من الحياة
حتى الممات . . وكان أول شروط الجندية ، أن يكون الجندى صبيا « مملوكا » دون
الحادية عشرة . ومعنى ذلك حرمان المصريين الأحرار من التجنيد ، لأنهم يفتقدون
شرط « العبودية » الذى فصله المماليك على مقاسهم . . حتى أبناء المماليك بعد أن
يتحرروا من الرق - لم يكن من حقهم دخول الجيش ، وكانوا يسمون « أولاد الناس »
ويمارسون أعمالا راقية خارج النطاق العسكرى .

إلى هذا الحد ضاقت سبل التجنيد أمام المصريين ، حتى في الأوقات التى جفت
فيها ينابيع المماليك والمرتزقة ، واحتاجت البلاد إلى سواعد بنيها ، لم يكن الحكام
يجربون على تجنيد المصريين ويبحثون عن البديل في شتى الأسواق . ويحدثنا التاريخ
عن ذلك الوالى العثمانى - واسمه أويس باشا - وقد فكر يوما في تجنيد المصريين ، فلم
يكن من الجنود الانكشارية إلا أن تأمروا عليه وقتلوه حتى يسدوا الباب أمام أى

حاكم يفكر فى الاستعانة بالفلاح المصرى . وكان معنى عزل المصريين عن الجيش
عزلهم عن شئون الحكم . . وفى خلال عشرين قرنا ، لم يظهر حاكم مصرى واحد !!
ألم يكن بين المصريين من يصلح ليجلس على عرش مصر ؟ !
إنه سؤال غريب حقا . . يحتاج إلى تفكير . .

كذاب زفة

قبيل مجيء الحملة الفرنسية ، كانت مصر تخضع لسيطرة زعيمين من شيوخ المنسر ، عكفا على مص دماء المصريين ، قطرة بعد قطرة حتى جفت عروقهم وذوى عودهم ، وانهد حيلهم ، وخربت ديارهم . وكان المصريون يتحملون هذا البلاء بحجة أن هؤلاء المماليك يحملون عنهم عبء الدفاع العسكرى ، ويدودون عن حياض الوطن ، ويردون عنه كيد المغيرين . . إلى آخر هذه الحجج الواهية التى يشيعها المؤرخون ، لتبرير عجز المصريين وسكوتهم عن الضيم والذل والعبودية .

كان هذان المملوكان الغاصبان - إبراهيم بك ومراد بك - يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء ، فهما أسدان جسوران على الشعب المصرى المسالم المستكين ، ولا يتورعان عن حرق القرى ، وتدمير المزروعات ، وهتك الأعراض ، وسبى النساء وسفك الدماء ، وتشريد الناس فى الفلوات ، من أجل حفنة ريالات . . ولكنها كانا أرنبين هزيلين فى ساحة الوغى . . فما إن يبدأ وطيس القتال ، حتى يطلقا سيقانها للريح ، تاركين المصريين العزل ، كالأيتام على مائدة اللثام . . فإذا زال الخطر ، وانقشع العدو . . عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم ، بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولى . . والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم ، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخرى !!!

كان إبراهيم بك أكثرهما دهاء ومكرا ، ولذلك لم يورط نفسه فى معركة غير محسوبة . أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتى « يغلب على طبعه الخوف والجبن ، مع التهور والطيش والتورط فى الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر فى

حرب بأشرها أبدا ، على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور» .

ولقد دلت جميع الأحداث ، على أن هذا الأمير المتسلط ، كان مغرورا إلى حد البلاءة . . (همباكا) إلى درجة العبط . . (جعجاعا) في تقدير بطولته وقدرته على سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه . فإذا حانت ساعة الجدد ، واستشعر العين الحمراء في خصمه ، ولى مدبرا ولم يعقب ، ولا يكف عن الجرى حتى يطمئن على أنه لا يزال حيا . . ولذلك تشاءم المصريون ، عندما علموا أنه سوف يتصدى لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه على القاهرة قادما من الإسكندرية ، لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم (كذاب زفة) ، ولن يصمد طويلا في المعركة . . وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلى المعركة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق . . لا يصلحون إلا للكسر والأكل .

* * *

وصدق المصريون في حدسهم . . وكانت معركة إمبابة مهزلة انكسرت لها نفوسهم وكرامتهم . . وكانت الجموع الغفيرة من أهل القاهرة تقف على ساحل بولاق خلف الجناح الآخر من فرسان المماليك بقيادة إبراهيم بك . . ووقف الجميع يرقبون تطور المعارك على الضفة الغربية للنيل ، وسجل مؤرخنا الجليل عبد الرحمن الجبرتي وقائع الهزيمة في هذا التقرير الموجز :

في يوم الجمعة ، التاسع والعشرين من شهر المحرم ١٢١٣ هـ ، التقى العسكر المصري مع الفرنسيين ، فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه . ولم يقع قتال صحيح ، إنما هي مناوشة من طلائع العسكريين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين ، واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانه والآلات الحربية وعلقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود فاشتعلت جميعها بالنار ، واحترق المركب بما فيه من المحاربيين وتطايروا في الهواء . فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزما ، وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره . ونزلت المشاة في المراكب ، ورجعوا طالبين مصر . ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر ، فاشتد انزعاج

الناس ، وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق ، وحضر الباشا (الولى العثمانى)
والعلماء ورءوس الناس ، وأعملوا رأيهم فى هذا الحادث العظيم ، فاتفق رأيهم على
عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . . وفى يوم الإثنين حضر مراد بك إلى بر إمبابة
وشرع فى عمل المتاريس ، وأحضر المراكب الكبار والغلايين التى أنشأها بالجيزة
وأوقفها على ساحل إمبابة وشحنها بالعساكر والمدافع ، فصار البران الشرقى والغربى
مملوءين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة . وفى يوم الثلاثاء نادوا بالنفير
العام وخروج الناس للمتاريس ، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع
لبر بولاق . وصعد السيد عمر أفندى مكرم إلى القلعة ، فأنزل منها بيرقا كبيرا ، سمته
العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق ، وحوله ألوف من العامة
بالنبايت والعصى ، يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور
وأما مصر (القاهرة) فكانت خالية الطرق ، لا تجد بها أحدا سوى النساء والأطفال
وضعفاء الرجال ، والأسواق مقفرة . وكثرت الإشاعات بقرب وصول الفرنسيين إلى
مصر ، وتختلف الناس فى الجهة التى يقصدون المجىء منها ، وليس لأحد من أمراء
العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم بالقتال ، قبل دخولهم وقربهم
ووصولهم إلى فناء مصر . بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث
مكانه ، لا ينتقل عنه ، ينتظر ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل .
وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو .

ولما كان يوم الجمعة ، وصل الفرنسيين إلى الجسر الأسود ، وأصبح السبت
فوصلوا إلى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين
ولكن الأجناد (المماليك) متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم
حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى رئيسهم ، محتقرون شأن
عدوهم . ولما كان وقت القائلة ، ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا
ناحية بشتيل ، فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيين ، فكروا عليهم بالخيول ، فضربهم
الفرنسيين ببنادقهم المتتابعة . ولما قرب طابور الفرنسيين من متاريس مراد بك
ترامى الفريقان بالمدافع . فلما سمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء
بالصياح : يارب ، ويالطيف ، ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم

وجلبتهم . فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ، ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والخراب ، وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح .

أما طابور الفرنسيين الذى تقدم لقتال مراد بك ، فقد انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب ، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطًا بالعسكر وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح ، وانعقد الغبار ، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح ، وصُمّت الأسماع من توالى الضرب ، بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة ثم كانت الهزيمة على المعسكر الغربى (جيش مراد بك) فغرق الكثير من الخيالة فى البحر (النيل) ، والبعض وقع أسيرًا فى أيدي الفرنسيين ، وملكوا المتاريس ، وفر مراد بك ومن معه إلى الجزيرة ، فصعد إلى قصره ، وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة ، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلىة (الصعيد) ، وبقيت القتلى والثياب والأسلحة ملقاة على أرض إمبابة تحت الأرجل . . . » .

هذا هو كذاب الزفة الذى فر كالفار المدعور ، أمام جمحافل الفرنسيين ، بينما كان يمارس دور الغضنفر على الشعب المغلوب على أمره .

الشيخ نابليون

لم تكن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، عام ١٧٩٨ م ، تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملة السابقة التي اجتاحت الشرق الإسلامى ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . بل يمكن وصف حملة نابليون ، بأنها كانت (لا دينية) ، إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع ، الذى قاد الحملة الصليبية السابعة ، واحتل دمياط ، ثم أسره المصريون فى المنصورة عام ١٢٥٠ م ، وبعدها رفعته الكنيسة إلى مرتبة القديسين ، مكافأة له على نضاله المستميت ضد العالم الإسلامى . وكانت الظروف الدينية والمنطلقات العدائية التى تحركت منها الحملات القديمة ، تختلف عن الظروف السياسية والتقلبات الأوروبية ، التى كانت وراء حملة بونابرت .

لقد جاء نابليون إلى مصر ، باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين ، والتى ثارت فى وجه الكنيسة ورجالها ، بنفس العنف الذى واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع . بل لم تتورع جيوش الثورة عن مهاجمة البابا - رأس الكنيسة الكاثوليكية فى عقرداره ، واغتصاب أجزاء من ممتلكاته ، لإقامة أول جمهورية حديثة فى الأراضى الإيطالية على مبادئ الثورة . وظن نابليون أن رصيده العدائى للكنيسة ورجالها سيكون مدخلا إلى قلوب المصريين ، وكسب ولائهم . وشراء سكوتهم على احتلال أراضيتهم . وحرص نابليون - وهو يخاطب المصريين ، ويلعب بعواطفهم الدينية على أن يبدو أمامهم فى صورة المنتقم الجبار ، الذى قام بتخريب كرسى البابوية وإهانة صاحبه « الذى كان يحض النصارى على محاربة المسلمين . . » ، ظنا منه بأن ذلك يرضى المصريين ، ثم يمضى نابليون فى استخفافه بعقولهم فيقول لهم إن

الفرنسيين مسلمون مخلصون وإنه شخصيا يعبد الله سبحانه وتعالى ويحترم نبيه والقرآن العظيم . . !!

ونحن نعلم الظروف الداخلية ، التي دفعت بحكومة الإدارة في فرنسا ، إلى إيفاد نابليون إلى مصر على رأس حملته المشهورة ، كوسيلة عملية لإبعاده عن مسرح الأحداث بعد أن بدأ نجمه في الصعود ، وأصبح فارس الحلبة المرشح لاعتلاء عرش الدماء ، بعد أن أكلت الصراعات الدموية وحملات التصفية الإرهابية قادة الثورة الأوائل . وكان نابليون - المغامر الطموح - يعلم أن الثمرة لم تنضج تماما لتسقط في حجره سهلة سائغة ، ومن ثم قبل التكليف استجابة لأمر حكومة الإدارة في الظاهر وتلبية لنداء غامض كان يهتف في باطنه لإقامة إمبراطورية شرقية المظهر أوربية الجوهر ، على غرار الإمبراطورية الهلينية العظمى التي أقامها الإسكندر الأكبر على أساس التعاليم الفلسفية التي خلفها آباء الفكر الإغريقي .

جاء المغامر الكورسيكى إلى مصر ، وهو يحمل في صدره طموحات هائلة وآمالا عريضة ، في بناء دولة كبرى تتنفس سحر الشرق وعبقه ، وتنبض بتعاليم الثورة الفرنسية . ولم يكن هناك - غير مصر - بموقعها الفريد بين القارات الثلاث ، تصلح لتحقيق الدولة الحلم ، والانطلاق منها إلى الهند ليحطم كبرياء الإمبراطورية البريطانية ، التي استعصت عليه في مكمنها المنعزل في الجزر . . فلا بأس من أن يصيبها في درتها الغالية . . الهند .

وكانت غاية آمال نابليون ، أن يتم له الاستيلاء على مصر في صمت وهدوء ودون اللجوء إلى ارتكاب فظائع دموية تفسد العلاقات الودية المرجوة بينه وبين الشعب المصرى . فكان حريصا على كسب عواطف المصريين ، والادعاء بأنه مسلم غيور ، فيحضر احتفالاتهم الدينية ، ويرتدى الجبة والقفطان والعمامة ، ويتزلف إلى علمائهم ، وقد تعجب إذا قرأت المنشور الأول الذى وزعه على أهل مصر واستفتحه (باسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ولا شريك فى ملكه) . . «ويأياها المصريون قد قيل لكم إننى ما نزلت أرضكم إلا بقصد إزالة دينكم . . فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإننى أكثر من المهالك ، أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم

نبيه والقرآن العظيم . . ويأبى العلماء والفضلاء والمشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم إن فرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردها منها الفرسان الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » . . وفي ختام منشوره يعلن بونابرت إلى المشايخ والعلماء « أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل واحد من أهالى البلد أن يبقى في مسكنه ، مطمئناً ، وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغي عليهم أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال السلطان العثمانى . . أدام الله إجلال العسكر فرنساوى . . لعن الله المماليك . . وأصلح حال الأمة المصرية » .

فهل أتى هذا المنشور البليغ ثمرته ؟ وهل أفلح في إقناع المصريين بوداعة نابليون وحبه للإسلام ؟ إن مجرى الأحداث يكشف لنا في صراحة ووضوح ، عن عدم قبول الشعب المصرى لكل الادعاءات الكاذبة ، التى حاول نابليون عن طريقها ، أن يضحك على عقول المصريين . وجاءت الثورتان ، اللتان قام بهما المصريون ، أصدق دليل على رفضهم للوجود الفرنسى ، وعدم تصديقهم لمزاعم نابليون بأن الفرنسيين (يحبون المسلمين) . ويعبر مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أصدق تعبير عن تشكك المصريين في الأفكار والوعود التى أذاعها بونابرت بالرغم من تملقه للإسلام وطعنه في الكنيسة الكاثوليكية والتطاول على رئيسها . ويعزو المؤرخ الكبير صلاح العقاد الرفض المصرى ، إلى أن القضية في نظر المصريين لم تكن مجرد موقف دينى أو لا دينى . . بل إن الاختلاف في التراث الحضارى والعادات والتقاليد جعل من المستحيل على المصريين أن يصدقوا دجل نابليون . . والحجة التى احتج بها ، بأنه حارب البابا وأطاح بهيبة الكنيسة . . ما كان من شأنها أن تؤثر في مجتمع متدين كالمجتمع المصرى ، يفضل لنابليون أن يكون متميلاً إلى دين . . وليس خارجاً على الدين .

ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط ، الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدى كذبه . . وكانوا يسخرون

منه ، وهو عاكف على ظهر الأسطول ، يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلى المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية . وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري (جوبير) إلى وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الإسلامى الذى وضعه قائدنا الأعلى . . ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور . .

بل إن نابليون نفسه ، اعترف فى أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل . . (ولكنه دجل من أعلى طراز) . . وعندما كان يجتر ذكرياته ، وهو سجين فى سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بها فعل ، وبرر سلوكه بأن « على الإنسان أن يصطنع الدجل فى هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح » .

وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب . . ولا يدركون الحقيقة ، إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا .

عمدة الإسكندرية

قبل ٢٤ ساعة ، من وصول نابليون بونابرت إلى مياه الإسكندرية ، كان الأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال نيلسون ، قد وقف قبالة الساحل السكندري ، يتحسس أخبار الأسطول الفرنسي الذي غادر بلاده تحت جناح الظلام إلى جهة غير معلومة وكانت البوارج الإنجليزية قد خرجت تتعقب غريمها اللدود ، لتغرقه في مياه البحر الأبيض المتوسط . وكان مشهد المطاردة يبلغ في بعض الأوقات درجة الإثارة ، عندما كانت المسافة بين الأسطولين لا تتجاوز مدى البصر ، وشاء القدر للأسطول الفرنسي ، أن يفلت من المطاردة في عرض البحر لتكون نهايته المأساوية في خليج أبى قير .

وكانت أنباء الحملة الفرنسية ، قد وصلت إلى الإسكندرية عن طريق بعض القباطنة ، الذين شاهدوا مراكب نابليون في مالطة ، وعلموا من بحارتها أن محطتهم الأخيرة في الإسكندرية . . عندئذ ثارت خواطر أهل الثغر ، وبدءوا يستعدون لملاقاة الفرنجة وينفضون عن أنفسهم غبار الكسل الذى تراكم عليهم سنوات طويلة صدئت خلالها بنادقهم ، وشاخت مدافعهم ، وتهدمت الطوابى والأسوار من طول الرقاد .

وبهذه الروح المتوترة ، استقبل السيد محمد كريم عمدة الإسكندرية ، وفد الأسطول الإنجليزي الذى هبط إلى الساحل ليحذر أهلها من مداهمة نابليون لهم وعرض على العمدة أن يسمح لهم بالبقاء في البحر للدفاع عن المدينة ، على أن يبيع لهم الماء والزاد بثمنه ، ولكن العمدة الغيور رفض العرض ، وقال للإنجليز : هذه بلاد السلطان . . ولن نسمح للفرنسيين ولا لغيرهم باحتلالها .

ولم يشأ الإنجليز أن يطول الجدل بينهم وبين حاكم الإسكندرية ، فقد كان همهم

الأكبر تعقب أسطول نابليون ، فغادروا المياه المصرية في اتجاه السواحل الفلسطينية يوم ٢٩ يونية ١٧٩٨ ، وفي اليوم التالي مباشرة ، كانت السفن الفرنسية تحط رجاها في مياه الإسكندرية ، واقتربت إحدى السفن من الشاطئ ، لتحمل قنصل فرنسا الذى أبلغ نابليون بما كان من أمر الأسطول الإنجليزى مع عمدة الإسكندرية ، وقدم إليه تقريرًا عن حالة الهياج التى عمت الأهالى منذ علموا باقتراب الحملة الفرنسية وكيف إن أهل المدينة والعربان يحملون السلاح دفاعًا عنها . . وسارع السيد محمد كريم إلى إبلاغ حاكمى القاهرة - مراد بك وإبراهيم بك - بنبا القوات الفرنسية التى نزلت على الساحل في اتجاه العجمى ، طالبًا أقصى ما يمكن من النجدة لمواجهة الأعداء ، ولكن الأمراء المماليك ، الذين بعد العهد بينهم وبين المعارك ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، ولم يردوا على استغاثات حاكم الإسكندرية وتركوه مع أهلها يواجهون البوارج والمدافع الحديثة بأسلحة هزيلة ، وضرب أهل الشجر أروع أمثلة البطولة ، وهم يحاربون الغزاة من بيت بيت ، حتى أذلوا كبرياء العسكرية الأوربية الصاعدة ، وبلغت المقاومة الوطنية عنفوانها ، عندما حاول نابليون أن يقتحم شوارع المدينة ، فأصابته رصاصة قاتلة أفلت منها بأعجوبة ، فلجأ إلى حارة ضيقة لا تكاد تتسع لشخصين يمران جنبًا لجنب ، وكان يرافقه سكرتيه (بورين) الذى يصف هذا المشهد العصيب قائلاً : وانهالت علينا طلقات الرصاص من إحدى نوافذ البيوت ، فتقدم الحرس ، واقتحموا البيت ، فوجدوا رجلاً وامرأة قابعين خلف النافذة وهما مستمران فى إطلاق النار ، فقتلها الحرس .

أما عمدة المدينة السيد محمد كريم ، فقد ظل معتصماً بقلعة قايتباى على رأس فريق من المقاتلين الشجعان حتى كلت قواهم ، ونفدت ذخيرتهم ، ورأى العمدة أن المقاومة أصبحت غير مجدية ، فكف عن القتال وسلم القلعة ، فكانت بسالته مثار إعجاب نابليون ، فتلقيه لقاء كريماً ، وأبقاه فى منصبه حاكماً على الإسكندرية ، على أمل أن يتعاون مع قوات الاحتلال ، ولكن آماله فيه خابت ، بعد أن رفض إرغام أهل الشجر على دفع قرض إجبارى لسلطات الاحتلال ، فأسرها الجنرال كليبر - حاكم الشجر العسكرى - فى نفسه ، وانتهاز فرصة قيام أهالى البحيرة بصد كتيبة فرنسية واتهم السيد محمد كريم بتحريضهم ، ثم ألقى القبض عليه وأودعه سفينة القيادة (لوريان) ، وبعث إلى نابليون فى القاهرة يخبره بما فعل ، فبارك نابليون تصرف كليبر

خصوصا وقد عثر في قصر مراد بك - المملوك الهارب - على الرسائل التي كان حاكم الإسكندرية قد كتبها ليستنهض همم الحكام على صد الفرنسيين ، وطلب منه أن يرسل إليه الرجل مقيداً في أغلاله ، وغادر محمد كريم سفينة الأسطول في مركب صغير أقله إلى رشيد ومنها إلى القاهرة ، وفي اليوم التالي مباشرة ، غرق الأسطول الفرنسي في مياه أبى قير بفعل الحمم التي صبها عليه أسطول نيلسون ، وكأنها شاء القدر لحاكم الإسكندرية ، أن يفلت من مذبحه الأسطول ، ليلقى مصيره في مذبحه أخرى أعدها له نابليون ، عقابا له على شجاعته وصلابته ورفضه التعاون مع الاحتلال .

وأعدت للبطل محمد كريم محاكمة صورية ، انتهت بصدور الحكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص ، وصدق نابليون على الحكم ، ولكنه كتب له تذييلا قال فيه : يمكن للرجل أن يفتدى نفسه ، إذا دفع مبلغ ثلاثين ألف ريال خلال أربع وعشرين ساعة . . (١) مما يكشف عن حالة الإفلاس التي اعترت الحملة الفرنسية بعد غرق الأسطول ، ودفعت نابليون إلى البحث عن المال بأى ثمن وبأى وسيلة . وكان المشاع عن السيد محمد كريم ، أنه يخزن ثروة طائلة من الذهب في صفائح مدفونة تحت الأرض ، وظن نابليون أن الرجل سيهرع إلى شراء حياته بالذهب . . ولكن خاب فآله . . وأظهر السيد محمد كريم تعففا عن المساومة على حياته ، وأظهر جلدا وشجاعة عندما سمع الحكم عليه بالإعدام . ويروى المسيو (بورين) الذى شهد المحاكمة أن المستشرق الفرنسى (فانتور) الذى تولى الترجمة . . نصح محمد كريم بأن يفتدى حياته بدفع الغرامة ، فما كان من الرجل إلا أن قال قولا يكشف عن عمق إيمانه : « إذا كان مقدورا على أن أموت ، فلن يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ . . وإذا كان مقدورا على الحياة فعلام أدفعه ؟ ! » وظل الرجل على إصراره إلى أن نفذ فيه الإعدام رميا بالرصاص في ميدان الرميعة يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨ .

وقد روى الجبرتي رواية غريبة ، عن السيد محمد كريم ، فقال إنه بعد سماعه الحكم ، أرسل إلى المشايخ والتجار ، فحضر إليه بعضهم فترجاهم واستغاث بهم لكى يجمعوا له الفدية ، وصار يقول : « اشترونى يامسلمين ، ولكنهم لم يغيثوه فقد كان كل إنسان مشغولا بنفسه » .

ورواية الجبرتي عن مسلك السيد محمد كريم ، تختلف عن رواية المؤرخين الفرنسيين التي يرجحها الرافعي على رواية الجبرتي ، لأن رواية الجبرتي لو كانت صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها ، ولما ذكروا رواية تشرف نحصا لهم حكموا بإعدامه . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فإن رواية (بورين) رواية شاهد عيان ، ولم يكن الجبرتي شاهدا لهذه المحاكمة ، بل يغلب على الظن أنه كان منزويا في بيته بالصنادقية في ذلك اليوم العصيب .

الشيخ صادومة

عاش المجتمع المصرى ، أواخر العصر العثمانى المملوكى ، أسوأ فترات حياته الثقافية والعقلية ، فقد انحطت الأخلاق ، واندثرت العلوم ، وفشا الجهل ، وسادت الخرافات والخزعبلات ، وخيم الركود على العقول والأفهام ، وفقد العلماء روح الابتكار والتجديد ؛ وتجمدوا فى إطار التقليد والنقل عن الأسلاف ، وانطفأت الجذوة الخلاقة التى دفعت المسلمين الأوائل إلى ارتياد آفاق العلوم واكتشاف أسرار الكون . واقتصر الإنتاج العقلى على القشور ، والإغراق فى التنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر والشعوذة . حدث هذا فى الوقت الذى قطعت فيه الشعوب الأوربية شوطا بعيدا فى مجال الصحة العقلية والثقافية والعلمية ، منذ عصر النهضة الإيطالية ، فى القرن الخامس عشر إلى عصر الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر . وشهدت هذه القرون الأربعة حركة إحياء الحضارة الإنسانية العالمية بقدر ما كانت ديجورا حالكا للشعوب الشرقية ، فعاشت بمعزل عن تيار النهضة ، حتى فاجأتهم حملة نابليون وهم رقود ، فأيقظتهم من سباتهم ، ونقلتهم من ظلام العصور الوسطى إلى عتبات العصر الحديث .

وكان حظ المصريين من ركाम الجهل والتخلف . . فادحا . فقد سيطرت عليهم عصابة من الأفاكين والمشعوذين ، راحوا ينفثون سمومهم ويتحكمون فى مصيرهم عن طريق الخرافات . والشعب يبتلع هذه السموم ويصدقها ، ويظنها من الدين بعد أن فقد القدرة على التمييز بين الحق والضلال . وحدث أن أشاع هؤلاء المبطلون أنهم توصلوا ، عن طريق التنجيم ، إلى معرفة موعد قيام القيامة . وبلغ من فجورهم أن حددوا موعدها « بعد يومين » وصدق الناس القرية ، وأخذوا يتهيئون لاستقبال

القيامة حسب مواقفهم الخلقية ، فالصالحون منهم انكبوا على العبادة والتوبة والابتغال ، والفاسقون انغمسوا في العبت والمجون ، ليستمتعوا بالساعات القليلة المتبقية لهم في هذه الدنيا الفانية . . فلما مر الموعد المحدد دون أن يتحقق زيفهم راحوا يزعمون أن كبار الأولياء تشفعوا عند الله ليؤجل القيامة . . وقبل الله شفاعتهم . . !

ويحكى الجبرتي هذه الواقعة تحت عنوان (من الحوادث الغريبة) : ففي يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة عام ١١٤٧) ، أشيع في الناس بمصر ، أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشر ذى الحجة ، وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضا . ويقول الإنسان لرفيقه : بقى من عمرنا يومان ، وخرج الكثير من الناس والمخاليع إلى الغيطان والمتنزهات . ويقول بعضهم لبعض : دعونا نعمل حظا ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة ، وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا . . وصاروا يغتسلون في البحر (النيل) . ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم . ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلى واعتقدوا ذلك ، ووقع صدقه في نفوسهم ، ومن قال خلاف ذلك أو قال : هذا كذب ! لا يلتفتون لقوله ، ويقولون : هذا صحيح . . وقاله فلان اليهودى وفلان القبطى ، وهما يعرفان في الجفور والزائرات (التنجيم) ولا يكذبان في شيء يقولانه ، وقد أخبر فلان منهما على خروج الريح الذى خرج في يوم كذا ، وفلان ذهب إلى الأمير الفلانى وأخبره بذلك ، وقال له احسننى إلى يوم الجمعة ، وإن لم تقم القيامة فاقتلنى ، ونحو ذلك من وساوسهم ، وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المعين المذكور ، فلم يقع شيء ، وأصبح يوم السبت ، فانتقلوا يقولون : فلان العالم قال : إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا في ذلك وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر : اللهم انفعنا بهم ، فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا . . وشارعون نعمل حظا . . ونحو ذلك من الهذيان . .

* * *

ولم يرد اسما البدوى والدسوقى في هذه الخرافة عفوا . . وإنما جاء بقصد التلاعب بعقول الناس وعواطفهم ، وإيهامهم بسطوة الأولياء وقدرتهم على التحكم

فى مصير الكون والتدخل لتأجيل القيامة !! فما بالك بمصائر الغلابة من بنى البشر الذين يتطلعون فى كل لحظة إلى قوة قاهرة تخلصهم من الضنك والفاقة وجور النظام الحاكم . وكانت خيوط هذه القوة المزعومة فى أيدى الأفاقين من أدعياء التصوف الذين لبسوا المسوح والخرق ، وتظاهروا بالتقشف والزهد وساروا فى الأسواق يهذون بعبارات غامضة ، يعجز العقل السليم عن فهمها ، ويزعمون أنها من الأسرار الخاصة بأهل الوجد والوصول . وفى هذا المناخ المسموم راجت البدع والأباطيل تحت اسم الكرامات ، فلا يمر يوم دون أن يسمع أهل القاهرة عن ولى طار بلا جناحين أو شيخ طاف حول العالم فى غمضة عين . وبلغ من سفه هؤلاء المشعوذين أنهم نسبوا إلى بعض الأولياء أنهم يطلعون على اللوح المحفوظ ، ويحكى الجبرتى عن أحدهم وهو الشيخ محمود الكردى الخلوتى أنه « كان كثير المراءى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قل ما تمر به ليلة إلا ويراه فيها ، وكثيراً ما يرى رب العزة فى المنام ، ورآه مرة يقول له : يا محمود إنى أحبك وأحب من يحبك ، فكان رضى الله عنه يقول : « من أحبنى دخل الجنة » .

وإذا كان الجبرتى ، العالم المتدين الذى ولد فى أحضان التصوف ، يبدو مباركا ومصدقا لكرامات الأولياء ، إلا أنه اتخذ موقف الاستنكار للمنحرفين الذين تاجروا بالتصوف ، وخرجوا به من دائرة السلوك القويم إلى مجال الدروشة والعبث والمجون وقدم لنا صورا وصفية ساخرة لهؤلاء البهلوانات الذين كانوا يسيرون فى شوارع القاهرة، وهم عرايا وخلفهم جموع من الصبية والحرافيش والزعر ، وهم يحاولون الاقتداء بحركاتهم من حيث انتزاع الملابس و « التحنجل » فى المشى ، والهذيان بفاحش القول . والمؤسف أن هؤلاء الأدعياء نجحوا فى السيطرة على عقول العوام بل إن تأثيرهم امتد إلى بعض العلماء .

ويقدم لنا الجبرتى نموذجا لهؤلاء المفسدين ، ممثلا فى الشيخ أحمد صادومة «وكان رجلا مسنا ذا شبية وهيبة ، وأصله من سمنود ، وله شهرة عظيمة ، وباع طويل فى الروحانيات وتحريك الجهادات وكشف الحجب ومخاطبة الجن مشافهة ويظهر لهم بالعيان » . وكان من أكبر أتباعه الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى إفتاء الشافعية ، فأخذ يزعم أن الشيخ صادومة من الأولياء وأرباب الأحوال

والمكاشفات . . . وراح يروج له عند الأمراء والحكام . . . ومع ذلك جاءت نهاية الشيخ
صادومة على يد أحد هؤلاء الأمراء . . . وهو الأمير يوسف بك الكبير . فقد كان من
أشد الناقمين على أصحاب البدع والأباطيل ، وحدث أن اختلى هذا الأمير بإحدى
جواريه ، فاكشف وجود كتابة على مكمن العفة من جسمها ، فأصابه الدهول
فلما سألها عن ذلك وهددها بالقتل . . . اعترفت له بأن إحدى السيدات ذهبت بها
إلى الشيخ صادومة ، فكتب لها هذه الكلمات ليحببها إلى سيدها !! فما كان من
الأمير إلا أن ارتدى ملابسه ، وهو يشتعل غيظاً ، ومضى من فوره إلى بيت الشيخ
صادومة ، وما زال يضربه حتى مات . . ثم أخذ في تفتيش منزله وأخرج منه أدوات
السحر والدجل ، ومن بينها تماثيل مخزية ، وهو يصيح في الناس الذين تجمعوا . .
ويقول لهم : انظروا أفاعيل المشايخ . . !!

مؤرخ الشعب

لم يكن عبد الرحمن الجبرتي مؤرخا حكوميا ، يكتب ما يرضى الحاكم ، ولكنه كان مؤرخا شعبيا من الطراز الأول ، يسجل ما يراه في أمانة ودقة ، دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفا من سخطها ، ومثل هذا المسلك الأخلاقي ، لم يكن مما يعجب الحكام ، لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له ، أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ، ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجدا ، ومن سوءاته عزا . . فإن لم يفعلوا ، سخط عليهم وعصف بهم . . وهذا ما فعله محمد علي الكبير ، عندما نمي إلى علمه ما كتبه الجبرتي عنه ، في صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس فلم يرحم شيخوخته . . وأوعز إلى أعوانه فاغتالوا ابنه (خليل) أثناء سيره في شارع شبرا ، وارتاع الرجل وهو يتلقى جثمان ابنه الصريع . . وفهم بذلكه دوافع الجريمة فامتألت نفسه هما وكمدا ، وظل البقية الباقية من أيامه ، يبكي ابنه حتى أبيضت عيناه من الحزن ، فكف بصره ، كما كفت يده عن الكتابة ، إلى أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزينا مكلوما عام ١٨٢٥ .

لقد عاصر الجبرتي صعود نجم محمد علي خطوة بخطوة . . رآه جنديا مغمورا يغشى مجالس العلماء . . يتملق مشايخ الأزهر ويصانعهم . . ويتظاهر بالتقوى والورع . . ثم يتقرب من زعيم شعب القاهرة ، الطبيب العفيف ، عمر مكرم . . ويقسم أمامه بأغلظ الإيمان أن يكون العادل الشفوق إذا آل إليه أمر مصر ، ثم رآه وهو يتلقى الأمانة من أربابها ، ويتربع على عرش البلاد بإرادة أبنائها ومشايخها وأولى الأمر فيها ، ثم رآه مرة ثالثة ، وهو يتنكر لأبيانه وعهوده ومواريقه ، ويتحول من حمل وديع ، إلى نمر هصور يبطش بكل الذين أعانوه ، فأمر بنفى عمر مكرم إلى دمياط

وأوعز بقتل حجاج الخضرى الزعيم الشعبى ، الذى قاد شعب القاهرة ليهتف باسم محمد على فى القلعة ، حتى خلصت له مصر من دون الآخرين . ثم رآه مرة رابعة وقد أصبح الحاكم الفرد الذى لا ينازعه فى سلطانه أحد ، ولا يشاركه فى حكمه مشارك ، وباتت مصر المحروسة ضيقة خاصة يتصرف فى شئونها تصرف المالك فى ملكه !

* ماذا يفعل المؤرخ الأمين ، وهو يرى هذه التحولات الجسيمة تتلاحق أمام ناظريه فى سرعة مذهلة ؟ ماذا يفعل وهو يرى آماله فى « العدل » قد تحطمت على يد هذا الجندى الألبانى المغامر ؟ هل كان عليه أن ينافق ويداهن ويساير الحكم الجديد ، كما فعل المنافقون والأفاقون وخدام السلطة ؟

لم يكن الجبرتى يستطيع أن يسلك هذا المسلك المشين ، فى مسامرة الطغاة ، لأنه يتعارض مع خلقه أولا . . ويتعارض ثانيا مع منهجه فى كتابة التاريخ . وقد أعلن منذ السطور الأولى فى كتابه (عجائب الآثار) ، أنه لم يقصد بكتاباتة خدمة ذى جاء كبير أو طاعة وزير أو أمير . . « ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسانى أو غرض جسمانى » . . ولذلك تصدى الجبرتى لكل تصرفات محمد على غير هيب . . ينقده ويدمغه ، ويصدر عليه أحكامه من منطلق إيمانه بفكرة « العدل » ، كما جاء بها الإسلام ، وبمعناها العريض الذى يتسع ليشمل « حدود الله » التى تحرم الجور والظلم والاعتداء على حرمان الأنفس والأموال والأعراض .

* * *

لقد ساء الجبرتى أن يرى محمد على ، وقد تملكته نزعة الشره إلى الأموال فيصادرها دون سند من الشريعة ، ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل ، حتى لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة ، وفرضها على الناس بأسعار باهظة ، وساء الجبرتى أن يرى الحاكم الجديد ، ينهج نهج كل جبار طاغية فى كره النقد ، وإبعاد النصحاء الصادقين ، وتقريب المتزلفين المنافقين ، وإسناد الوظائف الرئيسة إلى شذاذ الآفاق من الغرباء الذين تكالبوا على فتات مائدته . . انظر إليه ، وهو يصف محمد على فى جراءة محمودة فيقول : إن ولى الأمر اعتدى على

مساطر الناس ، وأغلق البيوت المفتوحة ، لأن في طبعه داء الحقد والشره والطمع والتطلع إلى ما في أيدي الناس وأرزاقهم ، ولم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته ، في تحصيل المال والمكاسب ، وقطع أرزاق المسترزقين ، والحجر والاحتكار لجميع الأسباب .

ويتحدث الجبرتي عن أسلوب محمد علي في تقريب المنافقين وإبعاد كل من يتجاسر على نصحه : « ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده ، ومن كان خلاف ذلك ، فلا حظ له معه مطلقا ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب - ولو على سبيل التشفع - حقد عليه ، وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبدا » .

ثم يعطينا الجبرتي صورة عن أخلاق وطباع محمد علي السياسية ، فيقول : «وعرفت طباعه وأخلاقه في دائرته ويطانته ، فلم يمكنهم إلا الموافقة في المساعدة في مشروعاته : إما رهبة وخوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، وإما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة ، وهو الأكثر - وخصوصا أعداء الملة من نصارى الأرمن وأمثالهم الذين هم الآن أخصاء لحضرته ومجالسه ، وهم شركاؤه في أنواع المتاجرة وهم أصحاب الرأي والمشورة ، وليس لهم شغل ودرس إلا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم » .

وساء الجبرتي أن يستخدم محمد علي المكر والغدر والخديعة للإيقاع بالمماليك وذبحهم في القلعة ، رغم مقت الجبرتي لهم بسب المظالم التي أنزلوها بالرعية ، ورغم أنه لم يخف شتماته فيهم حين دحرتهم جيوش نابليون . إلا أنه لم يستطع مسايرة محمد علي في الفتك بهم ، كما لم يستطع تأييد محمد علي ، وهو يوفد جيشا من أراذل الترك ليهدم الدرعية على رءوس أصحابها من أتباع محمد بن عبد الوهاب . . . وكم حز في نفسه أن تقوم هذه الحرب الطاحنة بين المسلمين ، وحز في نفسه أكثر من ذلك ، أن يشهد موكب الأمراء السعوديين يطاف بهم في شوارع القاهرة مصفدين في الأغلال . فيغضب قائلا : كيف تقتلون أناسا يقولون لا إله إلا الله . . . ١١

*** هل كان الجبرتي متحاملا في أحكامه على محمد علي ؟

إن معظم الباحثين الذين كتبوا عن الجبرتي ، لا يبرثونه من شبهة الضغينة ضد محمد علي ، بسبب الإجراءات الصارمة التي اتخذها والى الجديد ضد الفئات الثرية في المجتمع المصري ، ولما كان الجبرتي ينتمى إلى هذه الفئات ، فقد أصابه بعض ما أصابها من جور وظلم . . فامتلأت نفسه مرارة وحقدا . . ولكن الأمانة تقتضى مناقشة هذا الرأى فى إطار من الموضوعية والحياد .

العدل أساس الملك ..

كانت الأحكام القاسية ، التي أصدرها الجبرتي ضد الوالى محمد على ، انعكاسا أميناً لمفهومه لوظيفة الولاية وواجباتها كنظام للحكم . . وكان الجبرتي ، بحكم تكوينه الدينى وثقافته الإسلامية ، يفهم الولاية على أنها عدل ورحمة ورفق بالرعية قبل أى شىء آخر ، فإذا انتفى العدل من الدولة ، فقدت موجبات قيامها ، ولا يقبل فى ذلك عذراً بأن يقال إن الحاكم اضطر إلى تأجيل العدل بعض الوقت لكى يتمكن من إقامة المشروعات العمرانية الكبرى ، التى يتطلب قيامها مصادرة الحريات والأموال وحمل الرعية على الجادة ، حتى يزداد الإنتاج ، ويعم الرخاء .

كان الجبرتي لا يفهم هذه الأعداء ، التى يطلقها بعض الباحثين عند حديثهم عن قسوة الجبرتي فى معاملة محمد على . فيقولون إن الجبرتي ، عاصر بواكير عصر محمد على ، وهى فترة الانتقال من عهد إلى عهد ، فكان طبيعياً أن يقع فيها من الظلم والقهر والعنف ما وقع ، حيث كان الوالى مضطراً إلى هدم أركان النظام القديم ، وإقامة الدولة العصرية على أسس جديدة ، تستلزم تصفية الامتيازات الطبقية ، والسيطرة على اقتصاد البلاد ، واحتكار زراعتها وتجارتها ، وتسخير أهلها وإرهابهم فى إقامة مشروعات جبارة تعود عليهم بالنفع فيما بعد . . ثم يقولون إن الجبرتي مات عام (١٨٢٥) قبل أن تؤتى هذه المشروعات ثمارها . وربما لو امتد به الأجل - وشهد آثار هذه المشروعات ، لكان أكثر رفقا بمؤسس مصر الحديثة . ولجاءت أحكامه عليه أقل تحاملاً وأكثر رشداً .

ولقد كان من الممكن قبول هذا الافتراض ، لو كانت أحكام الجبرتي على محمد على تتسم بالعمومية والشمول ، فيدمغ عهده كله ولا يرى فيه إلا النقائص والعيوب

ولكن الواقع كان خلاف ذلك ، فالجبرتي لم يتجاهل الإشادة ببعض الأعمال الجليلة التي عاصرها في دولة محمد علي ، ولم يغض النظر عن بعض الصفات الحميدة التي كان الرجل يتحلى بها ، فكان يصفه بالحركة والنشاط ، (بحيث لا يقر له قرار) ويقول إنه كان في أيامه الأولى دائم الخروج إلى نواحي القاهرة وزيارة شيوخ الأزهر (وكان كثير الانفراد بالسيد عمر مكرم) . . ولا يخفى الجبرتي إعجابه بالمشروعات العمرانية التي أقامها محمد علي ، مثل بناء سد الفرعونية الذي حال دون طغيان ماء البحر المالح على الأراضي الزراعية ، وإصلاح بوغاز رشيد ، وحفر ترعة المحمودية . وتعمير مدينة الإسكندرية . . ووصف هذه الأعمال بأنها (من همم الملوك) ، وقال عن صاحبها إنه (كانت له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ، ولو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والثقافة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه ، وفريد أوانه) .

لم يكن الجبرتي إذن ناقما على الوالى على طول الخط ، ولا كان راضيا عن كل تصرفاته أو مبررا لكل فعل منفعاله ، كما يسلك المؤرخون الحكوميون ، وإنما عبر عن رضائه عنه أو سخطه عليه في المواقع التي تستحق هذا أو ذاك ، وكان مقياس الرضا والسخط عنده توفر شرط العدالة ، فإذا تحقق هلك وكبر ، وإذا انتفى سخط وضجر ، ولقد طبق مؤرخنا هذا المقياس الموضوعى على مؤسس مصر الحديثة ، كما طبقه على كل الحكام الذين عاصروهم وما أكثرهم .

لقد عايش الجبرتي الحكم العثماني طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وشهد حركة على بك الكبير - ثم إخفاقها . . وشهد الصراعات الدامية التي وقعت بعدها بين الأمراء المماليك ، وجعلت من مصر دويلات متناحرة ، وشهد مقدم الحملة الفرنسية ثم رحيلها ، وشهد عودة الشراذم العثمانية التي أشاعت الفوضى والإرهاب في أنحاء البلاد ، والتي انتهت بانفراد محمد علي بالسلطة ، وهو في كل هذه التقلبات يرى الحال تسير من سيئ إلى أسوأ ، فيتمثل قول الشاعر :

رب يوم بكيت منه ، فلما صرت في غيره ، بكيت عليه

وعلى هذا ، يجب أن نفهم سر تباكيه على أيام المماليك ، وهو يرى الفساد والفجور والانحلال في ظل الفرنسيين ، ثم نراه يتباكى على أيام الفرنسيين ، وهو يرى جحافل الإنكشارية والوجاقلية والدلاة والأرثووط يستحلون حرمت البلاد ، وقد دخلوها بعد رحيل الفرنسيين ، فاعتبروا مصر أرضا مفتوحة ، من حقهم أن يستعبدوا رجالها ، ويسبوا نساءها ، ويهتكوا أعراض بناتها وغلماها . . فإذا اشتكى المصريون إلى الباشا أو وكيله قال لهم : (أناس قاتلوا وجاهدوا أشهرا وأياما ، وقاسوا ما قاسوه في الحر والبرد والطل ، حتى طردوا عنكم الكفار وأجلوهم عن بلادكم أفلا تسعونهم في السكن ١٢) وحين سئل القاضي التركي في شأن هذه الأعمال الإجرامية ، أفتى بأن مصر جميعها أصبحت (دار حرب) ، وقد آلت ملكيتها جميعها إلى السلطان (بحق الفتح) ، بعد طرد الفرنسيين منها . . ولكن الجبرتي - المسلم المثقف ، الذي يفهم الشريعة فهما صحيحا خاليا من الخزعبلات والأباطيل - يرفض هذه الحجج الهابطة ، التي تحاول أن تقنن الفساد ، وتبحث له عن ذريعة في إطار الدين . ولم ينخدع الجبرتي بالشعارات التي كانت تتحرك تحتها هذه الفيالق المتوحشة ، وإنما جاء حكمه عليها موضوعيا نابعا من إيمانه بأن الإسلام يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وأن الخروج على هذه القيم هو خروج على الدين . وكان يرى أن هؤلاء الوحوش لا يؤمنون بالإسلام . . (ولا يتدينون بدين ، ولا ينتحلون مذهباً ، وكانت تصحبهم صناديق المسكرات ولا يسمع في معسكرهم أذان ، ولا تقام فيه فريضة ، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين) .

ويصف الأرثووط بأنهم شر من مشى على الأرض . . وأن الواعظ منهم ، لو رجع إلى بلاده لرجع إلى حالته التي كان عليها في السابق ، (في الخدم الممتهنة والاحتطاب في الجبل ، والتكسب بالصنائع الدنيئة ببيع الأسقاط والكروش والمؤاجرة في حمل الأمتعة) .

فإذا استتب الأمر لمحمد علي ، واستطاع أن يستأصل هذه الوحوش الكاسرة بالقتل حيناً ، وبالنفى حيناً . . ألم يكن ذلك شفيعا له عند الجبرتي ، فيخفف من غلوائه في الحكم عليه ١٢ خصوصا وقد عاش مؤرخنا خمسة عشر عاما فقط ، من

بداية دولة محمد على ، ظهرت خلالها ملامح الدولة العصرية ، وتشكل الجيش
المصرى الحديث على أنقاض الفرق المرتزقة ؟ هل كان عسيرا على مؤرخنا عبد الرحمن
الجبرتي أن يتجاوز نطاق مفاهيمه الراسخة ، يتعاون مع النظام الجديد لتحقيق
أهدافه الكبرى ، والنهوض بمصر من أكفان القرون الوسطى إلى أعتاب العصر
الحديث ؟!

وجهالوجه .. !

كان الصراع بين مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي ، ومؤسس مصر الحديثة محمد علي باشا ، صراعاً حتمياً لا يمكن تلافيه . . إنه الصراع الأزلى بين أنصار الحق والعدالة والحرية واحترام الكرامة الإنسانية ، وأرباب القوة الغاشمة ، الذين يستبيحون الحريات ويمتهنون العدل ، ويبيطشون بالحقوق العامة من أجل بناء الدولة القوية . . ثم لا يلبث البنيان أن ينهار وتتقوض أركانه ، لأنه خلا من اللبنة الأساسية : قوة الإنسان الفرد التى تتجلى فى مناخ الحرية والإحساس بالعدل وتنكمش ثم تزول تحت نير الاستعباد والقهر والاستبداد . .

تلك هى عبرة التاريخ على مدى العصور منذ وجد حكام مستبدون ومحكومون ضعاف ، وذلك هو جوهر الصراع بين مؤرخنا المستنير ، وحاكمنا الطاغية . .

لقد عايش الجبرتي عهود الظلم ، ممثلة فى المماليك والعثمانيين والفرنسيين ، ولقد داعبه الأمل فى زوال هذه الصفحة الكئيبة بعد أن يختار المصريون حاكمهم بإرادتهم وراودت خواطره أحلام وردية فى عهد جديد ، يسلك فى الرعية مسلك العدل والرفق . . وربما خدعته الوعود التى سكبها الثعلب الألبانى فى أذن زعيم الشعب الطيب عمر مكرم ، وليس من المؤكد أن الجبرتي كان واحداً من أهل الحل والعقد الذين صعدوا إلى القلعة فى مايو ١٨٠٥ ، ليثبتوا محمد على على عرش مصر ، ولكن المؤكد أنه كان واحداً من جبهة العلماء الذين أحسنوا الظن بالعهد الجديد ، وانتعشت آمالهم فى حكم جديد يغير النظم السابقة التى أسرفت فى الظلم والطغيان . .

*** ولكن . . كم كانت خيبة الأمل عنيفة مدمرة . . وهم يرون أحلامهم فى العدل تتبدد ! ! فالحاكم الجديد لم يكن سوى نسخة معدلة من الطغاة السابقين . .

يسلك نفس مسلكهم في البطش . بل يفوقهم في سعة الحيلة والدهاء والخبث . .
شيئاً فشيئاً أصبح هو المالك الوحيد لكل مقدرات مصر . . بدءاً من رقاب البشر . .
وانتهاء بالدرهم الشحيحة التي تدخل جيوبهم بعد شقاء النهار الطويل . .
واكتشف الفلاحون أنهم لم يتحرروا من ذل العبودية القديم ، وأن نتاج كدهم وتعبهم
هو حق مسلوب لحساب الحاكم ، فيماذا يفعلون ؟ هربوا . . تركوا الأرض قاحلة
وهاجروا إلى المدن ليعملوا في المهن الحقيرة . . فلما تعقبهم كرباج الحكومة ، زحفوا
إلى الشام في هجرة جماعية ، كانت سبباً في حملة عسكرية شنها محمد علي ، لتعود
بالفلاحين الهاربين ومعهم وإلى عكا - أحمد الجزار - عقاباً له على إيوائه لهذه الجحافل
الجائعة . .

كان محمد علي يريد إنشاء دولة حديثة قوية . . ووضع خطة طموحة لإقامة
العديد من المشروعات الكبرى ، مثل شق الترع والمصارف وبناء السدود والقناطر . .
ولكنه لم يبذل أدنى اهتمام بالإنسان المصري الذي يقوم بتنفيذ هذه المشروعات . .
كان الولى يستخدم السخرة والكرباج في إجبار المصريين على العمل في ظروف بالغة
القسوة . . كان الآلاف يهلكون جوعاً وضيقاً وإعياءاً . . فما قيمة المشروعات
إذا أهدرت آدمية المواطن ؟ وكان محمد علي يسعى إلى إنشاء جيش قوى من
الفلاحين المصريين . . وهذا هدف قومى جليل . . ولكن كيف يمكن الفصل بين
الهدف والوسيلة ؟ وكيف يمكن الاطمئنان إلى الروح المعنوية لهذا الجندى ، ونحن
نعلم الوسائل الوحشية التي كان محمد علي يسلكها في تجنيد الفلاحين ؟ وكيف
كانت قواته الكاسرة تهبط على القرية كالإعصار المدمر فتأسر كل من يقع في يديها من
رجال وشيوخ ونساء وأطفال ، ثم تسوق الجميع في حبال غليظة إلى مراكز التجنيد
قسراً . . ١١٩ وكان محمد علي في حاجة إلى المال ، فلم يترك سبيلاً من سبل التحايل
إلا سلكه ، حتى جعل من نفسه شريكاً لكل صاحب حرفة مهما بلغت دناءتها
وتلفت المصريون فوجدوا أنفسهم في غاية الضيق والفاقة ، فلما ذهب العلماء - أهل
الحل والعقد - ليذكروا الحاكم بوعوده السابقة ، لم يجدوا منه سوى الازدراء الذي تحول
بعد قليل إلى حركة رجعية لإخماد كل صوت معارض ، وتقريب كل منافق جهول من
أجلاف الأرمن والترك واليهود .

عندئذ صاح الجبرتي ، على لسان الأمير الشهير محمد بك الألفي وهو يلقي سلاحه الأخير ، ويودع الحياة مقهوراً ، فخرج إلى ربوة عالية على مشارف شبراخيت ، وتلفت إلى الأفق الدامي قائلاً : « يا مصر . انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتون ، متباعدون ، مشردون ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرثود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ويقاثلون أبطالك ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » !! ولم يزل الألفي يردد هذه المراثية حتى تحرك به خلط دموى . . ثم تقيأ دماً . . فكانت آخر كلماته : « قضى الأمر . . وخلصت مصر لمحمد على . . وما ثم من ينازعه ويغلبه . . » .

*** ماذا كان موقف الجبرتي ، وهو يرى آماله في النظام الجديد قد خابت ؟ هل كان عسيراً عليه أن يساوم . . أو يداهن . . أو يجارى الحاكم المستبد الذي يرتكب الظلم بحجة بناء الدولة القوية ؟ !

أجل . . كان عسيرا على الجبرتي ، الحالم دائماً بأطياف العدل ، والكاره أبداً لكابوس الظلم ، أن يساوم على مبادئه . فكانت القطيعة النهائية بين قطبين متنافرين - على حد وصف المؤرخ الكبير أحمد خاكي - أحدهما يمثل أسمى ما وصلت إليه فكرة العدل في الإسلام . . بل في تاريخ الأمم ، لدرجة أنه كان يرى أن ما نزل بعشيرته وأهله المصريين من بلاء « إنما سببه أنهم لم يراعوا حدود الله ، ولم يقفوا في وجه الجبارين . فلقوا جزاء ما قدمت أيديهم . . وما ربك بظلام للعبيد » . أما القطب الآخر فيمثل « القوة » بمعناها الغشوم : قوة السلاح والدهاء والخبث ، وهي القوة التي آلت إلى العناصر التركية التي سيطرت على دار الإسلام ، منذ عصر الخلافة العباسية ، ولم يكن لها مصلحة سوى استنزاف موارد البلاد ؛ فهي قوة لا تعرف الرحمة أو الشفقة بالرعية . وكان محمد على آخر العنقود في هذه السلسلة الحديدية .

وفي ضوء هذا التنافر ، ينصحنا الأستاذ خاكي بأن ننظر إلى الرجلين كممثلين للحضارة الإسلامية ، الأول يمثل خير ما خلص له من الشريعة في سياسة الناس والثاني يمثل أكثر الوسائل فعالية - في نظره - لحكم شعب لا حول له ولا قوة .

وسوف نلاحظ أن هذه القطيعة بين الحاكم المستبد ، والمحكومين الضعاف الجهلة ستسرى في تاريخ مصر طوال القرن التاسع عشر وما بعده ، حيث كان المصريون - على حد وصف سعد زغلول - ينظرون إلى الحكومة نظرة الطائر إلى صائده . . لا نظرة الجندي إلى قائده . .

الأفندية في باريس

كان محمد على الكبير ، رائد الاستنارة العقلية والثقافية لمصر الحديثة ، رغم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . . فهو الذى وضع بيده البذرة الأولى ، التى أينعت وأثمرت تلك الشجرة الفيحاء ، التى أفاءت على مصر ظلال العلم والعرفان . وهو الذى شيد صرح التعليم الحديث ، ممثلا فى مئات المدارس الابتدائية والتجهيزية (الثانوية) والعالية ، وتكونت من خريجائها طليعة الطبقة المثقفة التى صنعت مجد مصر . ولا ننكر أن محمد على هو الذى حرر أولاد الفلاحين المصريين ، من ظلام الجهل الذى ضرب عليهم قرونا طويلة ، وهو الذى بعث بهم إلى جامعات أوروبا لينهلوا من منابع العلوم الحديثة ، وهو الذى ساقهم - بالترغيب حيناً وبالترهيب حيناً آخر - إلى المدارس العالية ، ليتعلموا فنون الهندسة والطب والزراعة والميكانيكا والطباعة والحفر والطبيعة والكيمياء . . بعد أن كان قصارى حظهم من التعليم أن يترددوا على الكتاتيب ليحفظوا القرآن الكريم ، ويتلقنوا مبادئ الكتابة والحساب . . ثم لا يلبثوا أن يرددوا إلى ظلام الأمية بعد حين . أما من أسعده الحظ منهم بالمجاورة فى الأزهر ، فكان جل حصيلته قشورا من العلوم الشرعية ، لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ولا تفلح فى صناعة عالم .

أدرك محمد على - هذا الجندي المغامر - أنه لا سبيل أمامه لبناء مصر الحديثة ، إلا بالاعتماد على سواعد أبنائها ، بعد أن خذله الترك وتآمر عليه المماليك ، وأدرك أن السبيل الوحيد لنهضة المصريين ، هو خلق طبقة من أبنائهم تتعلم أسرار التقدم . فانتقى النوابغ من خريجي المدارس ، وبعث بهم إلى أوروبا ليكتشفوا هذا العالم الذى تحرك من حولهم وهم قعود ، ثم عادوا ليكونوا نواة الطبقة المثقفة التى قادت حركة التنوير .

وبلغ من اهتمام محمد على ، بأعضاء البعثات ، أنه كان يتقصى أخبارهم ويتتبع سلوكهم وتصرفاتهم وهم في بلاد الغرب ، ويواليهم بالنصائح والإرشادات ، مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده . ويكتب إليهم بين الحين والحين رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد والتفرغ للتحصيل ، حتى يعودوا إلى وطنهم وهم على أحسن حال . وهذه رسالة أوردتها رفاعة رافع الطهطاوى - الرائد الدينى للبعثة الأولى - فى كتابه المشهور « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » وتلمس فيها قلق الأب الذى ينتظر عودة ابنه وعلى رأسه تاج العلوم :

« قدوة الأمثال الكرام ، الأفندية المقيمين فى باريس ، لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ، نهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم « ثلاثة أشهر » مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم . وهذا الأمر غمنا كثيراً ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار مهارته . فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم إلى مصر بعد قراءة الكتب ، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ، فإن ظنكم باطل فعندنا والله الحمد والمنة ، رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعب ، فبناء على ذلك ، إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا ، وتوجهنا إليكم لتمييزوا بين أمثالكم . فإذا أردتم أن تكتسبوا رضائنا ، فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم ، وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ويكتب فى كل شهر ما يتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وإن قصرتم

فى الاجتهاد والغيرة ، فاكٲبوا لنا سببه . وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم . وأى تشويش لكم : هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عنءكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقراءوا هذا الأمر مجتمعين ، وافهموا مقصوء هذه الإرادة ، وقد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى الإسكندرية بمنة الله تعالى .

نابغة الطب المصرى

كان الدكتور محمد على البقلى باشا ، أنبغ جراح وأشهر طبيب عيون ، أنجبته مدرسة الطب المصرية التى أنشأها كلوت بك لحساب سيده محمد على باشا الكبير لتخريج أطباء يخدمون فى الجيش المصرى . وبعد رحيل كلوت بك ، تولى البقلى باشا الإشراف على مدرسة الطب ، وأصبح كبير أطباء وجراحي مستشفى قصر العينى . وقد كبر على الأطباء الأجانب أن يصل طبيب مصرى إلى هذا المركز الرفيع فتقموا عليه ، ونجحوا فى تنحيته عن منصبه فى عهد عباس الأول ، فعين طبيباً فى أحد مستشفيات القاهرة ، فانتقلت معه شهرته ، وأصبح مستشفى قبة الجماهير من كل أنحاء مصر ، وكان مستواه الخلقى ، لا يقل عن مستواه العلمى ، إذ كان دائب العطف على الفقراء ، ويعفيهم من أجر العلاج ، إذا استشعر فيهم عجزاً وفاقاً أما عن نبوغه العلمى ، فتشهد عليه مؤلفاته التى كانت أولى المرجع بالعربية لطلبة الطب ، ومن أشهرها كتابه عن الجراحة الصغيرة وسماه « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » ، وطبع عام ١٨٤٣ ، وكتاب « غرر النجاح فى أعمال الجراح » عام ١٨٤٦ ، وكتاب « نشر الكلام فى جراحة الأقسام » ، وكتاب فى العمليات الجراحية الكبرى فى مجلدين ، وسماه « غاية الفلاح فى أعمال الجراح » . كما شارك فى عام ١٨٦٥ ، فى إصدار أول مجلة طبية عربية فى مصر ، وهى مجلة « يعسوب الطب » . وقد وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ، بالعالم النحرير والعلم الشهير .

* * *

ولد محمد على البقلى سنة ١٨١٥ ، فى قرية من قرى المنوفية اسمها زاوية البقلى

اشتهرت بتخريج العديد من النوابغ ، فقال عنها على باشا مبارك « إن هذه القرية وإن كانت صغيرة ، لكنها اختصت دون غيرها بمزية كثرة من ترقى منها في الوظائف السنية والخدمات الميرية ، من علماء الشريعة والرياضة والحكمة والطبيعة . . » .

وتلقى محمد على البقلى علومه الأولى ، في كتاب القرية . فلما بلغ التاسعة انتقل إلى كتاب أبى زعبل ، حيث أتم تجويد القرآن الكريم ، وانتقل بعدها إلى مدرسة أبى زعبل التجهيزية التى كانت في مستوى المدارس الثانوية ، وهناك ظهرت عليه علامات النجابة ، فكان أول فرقته فدخل مدرسة الطب ، وتعلم على كلوت بك الذى اكتشف فيه استعدادا طيبا لدراسة الطب فاق مستوى أقرانه ، فلما أتم دراسة الطب اختاره كلوت بك ضمن البعثة التى أرسلت إلى فرنسا للتخصص في العلوم الطبية ، فالتحق بمدرسة الطب بباريس ، وانصرف إلى تحصيل العلم وأبدى من مخايل النبوغ ما جعله يتفوق على دفعته رغم كونه أصغرهم سنا ، وشهد له جميع أساتذته بالعبقرية وتوقعوا له مستقبلا باهرا .

وعاش الشاب محمد على البقلى في باريس ، دون أن ينسى أهله في زاوية البقلى . فكان يترك لأمه خمسين قرشا من جملة الراتب الشهري المخصص لطالب البعثة وقدره مائة وخمسون قرشا ، ويكتفى بجنيه واحد يعيش به في باريس . ولما فرغ من دراسة الطب ، قدم رسالته الجامعية عن الرمد الصديدي في مصر ، وبعد حصوله على الدبلوم في عام ١٨٣٨ ، عاد إلى وطنه فعين مدرسا للجراحة والتشريح بمدرسة الطب ، وكبيرا لجراحى المستشفى . ونال رتبة (صاغ) في الجيش ، وفي عهد عباس الأول تعرض للاضطهاد من جانب الأطباء الأوربيين ، فنجحوا في زحزحته عن مركزه المرموق في مستشفى قصر العيني . وفي عهد سعيد رقى إلى رتبة القائم مقام ، وعين كبيرا لأطباء الجيش ، ثم عاد إلى منصبه كبير جراحى قصر العيني ، ووكيلا لمدرسة الطب ، وأنعم عليه سعيد برتبة أميرالاي وجعله طبيبه الخاص بالإضافة إلى مناصبه العلمية . فلما تولى الخديو إسماعيل عينه ناظرا لمدرسة الطب ، ورئيسا لمستشفى قصر العيني ، وشجعه على إصدار مؤلفاته العلمية لتكون مرجعا لدارسى الطب .

* * *

ولقد كان من المفترض أن تمضى حياة هذا الرائد المصرى الكبير - وقد بلغ سن

الشيخوخة - إلى نهايتها في هدوء وسكينة ، كما تمضى حياة أى عالم معطاء ، لولا السياسة الخرقاء التى سلكها إسماعيل فى التوسع الخارجى ، وتحميل خزانة مصر المرهقة أعباء مالية هائلة للإنفاق على حروب ارتجالية ، ليس لها من هدف سوى إظهار الخديو - فى نظر الأوربيين - بمظهر فرعون صاحب الذراع الطويلة التى تصل إلى أقاصى الدنيا .

وكانت حملة الحبشة ، هى ذروة الخبال الذى أصاب إسماعيل ، ورغم الهزائم المتوالية التى منيت بها الجيوش المصرية على الحدود الحبشية ، فقد زين له مستشارو السوء والمنتفعون من خيالاته ، أهمية غزو الحبشة لإعادة الهيبة المصرية إلى نفوس الأوربيين ، وإذلال النجاشى الذى تصدى للطلائع المصرية ولم يسمح لها بالتوغل فى أراضيه . وانساق إسماعيل وراء هذه الأوهام والخزعبلات ، وجهاز حملة أوكل قيادتها إلى ضابط شركسى هو راتب باشا ، وعهد بقيادة الأركان إلى ضابط أمريكى اسمه « لورنج » ، وضمت الحملة خليطا من شتى الأجناس والملل من الضباط المرتزقة ، وكلهم طامع فى المرتبات الخيالية ، التى كان إسماعيل يدفعها ، ويكفى أن تعلم أن السفينة (الدقهلية) التى أقلت الحملة من السويس إلى مصوع ، كانت أشبه بهيئة أمم بحرية . وتدور على ظهرها اللغات : العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والنرويجية ، على ما يذكر المؤرخ إلياس الأيوبى ، ولم يكن بينهم أى إحساس مشترك بجدية الهدف الذى يمضون إليه سوى الاعتراف من خزانة مصر .

* * *

وطلب الخديو من الدكتور محمد على البقل باشا ، أن يرافق الحملة ، فلم يسعه سوى القبول والطاعة ، وشاء قدره أن يشهد المذبحة الدموية الرهيبة عندما أحاط الأحباش بالقوات المصرية ، وانساحوا عليها من التلال كالجراد المنتشر ، وأعملو السيوف والحراش فى الجنود المصريين حتى أبادوهم ، وقادوا من بقى منهم على قيد الحياة إلى معسكرات للاعتقال لاقوا فيها من صنوف الهوان والذل ما يندى له الجبين . ويكفى أن تعرف من جرائم الأحباش أنهم كانوا (يخلصون) الأسرى قبل تسليمهم . ووقع الدكتور البقل ، ومعه جندى سودانى ، فى أسر جندى حبشى قادهما سيرا على

الأقدام إلى معسكر الأسرى ، وكان يقع على مسافة بعيدة ، وكان طبيعيا أن يعجز الدكتور البقلى باشا - وهو الشيخ الفانى - عن الهرولة ، فما كان من الجندى الحبشى إلا أن أمر الجندى السودانى بقتل رفيقه لكى يتخلص من بطئه ومن اضطراره إلى إطعامه ، وأذعن الجندى السودانى لتعليمات أسره . . فأزهق روحه . . ثم تركا جثته فى العراء وواصلوا المسير . .

نجم الزعامة المصرية

كان السيد عمر مكرم ، أقوى شخصية مصرية ، ظهرت على المسرح السياسى فى مطلع القرن التاسع عشر . ومع ذلك لم يفكر فى تنصيب نفسه حاكما على مصر . والعلماء الذين صعدوا معه إلى القلعة فى مايو ١٨٠٥ لخلع الوالى العثمانى خورشيد باشا ، لم يخطر ببالهم أن يضعوا الصولجان فى يد ذلك الزعيم الصعيدى الأسيوطى الأزهرى ، ووضعوه فى يد الضابط المقدونى المولد ، العثمانى النشأة : محمد على فضيعوا على مصر فرصة العمر . وحكموا عليها بأن ترزخ قرنا ونصف قرن ، تحت نير أسرة أجنبية تضاف إلى سلسلة الأسر التى حكمت مصر من قلاوونية وأيوبية وفاطمية وإخشيدية وطولونية . . . وقبل كل هؤلاء ، كان حكم الرومان ، وقبل الرومان كانت الأسر البطلمية الإغريقية التى استوطنت مصر بعد فتح الإسكندر لمصر عام ٣٣٣ قبل الميلاد ، وبين المقدونى الأول والمقدونى الحديث ، واحد وعشرون قرنا عاشتها مصر تحت حكم الأجانب . ولم يستطع زعيم مصرى أن يخترق الستار الحديدى ويجلس على عرش بلاده .

إياك أن تقع فى شرك الدين يعلقون هذه الظاهرة على مشجب الإسلام ، بحجة أنه يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية فى شخص الحاكم ، وأن الرعية عليها أن تسمع وتطيع بصرف النظر عن جنسية الحاكم ولونه . . . وأقول لك إن الإسلام برىء من هذه الأكاذيب التى روجها المرجفون لإخضاع الشعوب وتطويعها لحكم الجبابة والطغاة . . . والإسلام لم يقل إن حكم مصر حلال لكافور الإخشيدى وابن طولون المنغولى وخوش قدم الألمانى الأصل . . . وحرام على أبنائها . . .

لو تتبعنا تاريخ هذه الأسرات والدول . فسوف تكتشف بينها فجوات ضعف وانحلال ، كان من الممكن أن يسدها مصرى أصيل ، مثلما حدث في أعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر ، وعودة الأتراك إلى حكمها ، وما حدث من صراع دموى بينهم وبين المماليك . . في هذه الفترة المضطربة ، ظهر نجم الزعامة المصرية ممثلا في شخص السيد عمر مكرم . . ومع ذلك لم يفكر المصريون في تنصيبه حاكما عليهم . . الأمر الذي يشكل علامة استفهام كبيرة . . ؟؟

ولقد حاولت أن أتلمس الجواب في كتابات الباحثين والمؤرخين ، فلم أجد عند الأستاذ الرافعى ما يشفى الغليل . وهو برغم إعجابه الشديد بالسيد عمر مكرم وبرغم مبالغته في تقدير حجم الشعور القومى الذى بزغ أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر ، فإنه لم يشرح لنا سر انصراف الحركة الوطنية الوليدة عن ابنها البار التقى النقى . . وإقبالها على الضابط المقدونى المجهول الأصل . . !

الدكتورة نعمات أحمد فؤاد . في كتابها القيم « شخصية مصر » حاولت أن تقدم تفسيراً ، خلاصته أن الموقف السياسى في تلك الفترة الدقيقة ، كان يتطلب معرفة القوى الموجودة في الساحة ووزنها بميزان دقيق ، كما يتطلب مهارة في اللعب بها ومعها وقد عرف التاجر المقدونى من أين تؤكل الكتف ، ولم يكن علم هذا عند ابن البلد الطيب عمر مكرم . . وتضيف إلى ذلك انبهارنا التقليدى بالغريب . .

أما الدكتور عبد العزيز الشناوى أستاذ التاريخ الإسلامى . . فيقدم لنا في كتابه عن عمر مكرم تفسيراً من خلال الظروف الثقافية والفكرية التى كانت تسود المجتمع المصرى يومئذ ، فالمجتمع كان مجتمعاً دينياً ، ولم يكن ينظر إلى السلطان العثمانى على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر . بل نظر إليه على أنه سلطان الإسلام . وكان سلطان تركيا سعيداً جداً بهذه النظرة المقدسة . فجعل من الدين ستاراً يخفى وراءه أغراضاً استعمارية ، والدين منها براء . وكان الشعب المصرى متشبعاً بفكرة الوطن الإسلامى أكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومى ، وبعبارة أخرى كانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية ، بحيث يصعب الفصل بينهما ، وكانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ غزو مصر في عام ١٥١٧ تقضى بأن يكون وإلى مصر عثمانياً صرفاً ، بمعنى أن يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية ، فإذا تم

اختيار عمر مكرم أو غيره من زعماء البلاد واليا لمصر ، لكان معنى ذلك - في ضوء مفاهيم المجتمع الدينى - ثورة على النظام الذى أخذت به الدولة . ونقضاً لمبدأ أساسى وضعه سلطان الإسلام وخروجاً على طاعته . .

* * *

وكان من الممكن أن يكون هذا التفسير مقبولا ، لو أن الشعوب التى حكمتها الإمبراطورية قد استسلمت نهائيا . واستنامت لتلك المفاهيم التى أشار إليها الأستاذ الفاضل . ولكن الذى حدث أن الشعوب العربية لم تكف عن الشغب والتمرد والعصيان فى مصر وسوريا ولبنان . . وثورة الدروز فى القرن السابع عشر معروفة . . وفى مصر وجدنا فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر من يقود جيشا ليضم سوريا ، ويعلن الانفصال عن الإمبراطورية . وأعنى بذلك حركة على بك الكبير فالخروج على سلطان الدولة العثمانية كان أمرا شائعا . . بل إن محمد على نفسه لم يكد يستقر على عرش مصر ، حتى شق عصا الطاعة على سادته . وقاد جيشا مصرية وأسطولا مصرية ليذكر بهما عرش الآستانة . . فما المانع من عصيان الدولة العلية ونقص مبادئها بتعيين مصرى على عرش مصر . . ؟؟

مهرجان الدم

تحدد يوم أول مارس ١٨١١ موعدًا لسفر الحملة المصرية بقيادة الأمير طوسون لإخماد الحركة الوهابية في الحجاز ، وخرج شعب القاهرة كعادته في هذه المناسبات إلى الشوارع المحيطة بالقلعة لتوديع الجيش وسط أهازيج الفرح ودقات الطبول ولكن صيحات الفرح تحولت إلى صرخات استغاثة ، وطفى صوت الرصاص على دقات الطبول ، وتحول الموكب السعيد إلى مهرجان للدم .

في صباح ذلك اليوم تصدّر محمد على قاعة الاستقبال الكبرى في قصره بالقلعة وتوافد عليه العظماء مهئينين مباركين ، وانتهزها المماليك فرصة لإظهار ولائهم للعهد الجديد ، فقد خمدت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في صعيد مصر بين فلولهم وقوات محمد على . ويثس المماليك من إحراز نصر حاسم ، فهبطت عزيمتهم وأعربوا عن رغبتهم في إلقاء السلاح ، وتظاهر محمد على بقبول الصلح فأعطاهم الأمان . وسمح لهم بالعودة إلى القاهرة ليعيشوا في قصورهم بين حريمهم وغلماهم حياة الرغد واللهو والفجور . ولم يقنع المستبد الدخيل بهذا الاستسلام ورأى أن الحل الوحيد هو استئصالهم من الجذور ، حتى لا تبقى أمامه قوة مناوئة تصرفه عن الهدف الأكبر ، وهو الانفراد بحكم مصر .

* * *

ذهب البكوات المماليك إلى القلعة يرفلون في ثيابهم المزركشة الفضفاضة ، وقد تمنطقوا بالسيوف الذهبية البراقة دون البنادق . واستقبلهم محمد على بالبشر والترحاب ، وأبدى لهم من طرف لسانه حلاوة أسكرتهم ونزعت من نفوسهم كل

ربية ، وهم الذين تربوا منذ نعومة أظافرهم على الشك والمكر والخداع ، ولكنهم في هذا المضمار كانوا مجرد تلاميذ في حضرة الداهية الأعظم الذى قرءوا عليه يوما صفحات من كتاب ميكافيللى فسخر منه وقال : أنا أعرف أكثر منه . . !

ودوى النفير إيذانا بتحريك الجيش ، فانتصب محمد على واقفاً ، ونهض الأمراء المماليك يستأذنونهم فى الانصراف ، فأوحى إليهم أنه سيكون أكثر حيوياً ، لو أنهم شاركوا فى المهرجان كى يراهم شعب القاهرة وهم فى صحبة الجيش ، وتلقف المماليك الطعام شاكرين . واعتبروا مطلبه زيادة فى الكرم وحسن النيات . وبدأ الموكب سيره حسب الخطة المرسومة : فى المقدمة جوق الطبول والموسيقى ، ثم طليعة الفرسان . وبعدها كتيبة الجنود الألبان بقيادة صالح قوش ، أحد أربعة رجال اشتركوا مع محمد على فى تدبير المؤامرة . وبعدهم جموع البكوات المماليك على صهوات جيادهم المطهمة ، وتهادى الموكب من باب القصر ، ثم انحرف يساراً ليجتاز طريقاً ضيقاً وعراً منحوتاً فى الصخور ويتدرج فى الانحدار حتى باب العزب الذى يفضى إلى ميدان الرميلى (صلاح الدين حالياً) . وعبرت الفرق الأولى باب العزب ، ثم انغلق الباب غلقاً محكماً . وفى سرعة خاطفة تسلق الألبان بأسلحتهم النارية قمم الصخور المتاخمة للطريق . بينما كانت جموع المماليك تتقدم نحو الباب ، ولا يدرون شيئاً مما يجرى حولهم ، وفى نفس الوقت كانت صفوفهم الخلفية تواصل سيرها ، حتى إذا اكتمل عددهم ، انغلق الباب الذى دخلوا منه فباتوا محصورين فى هذا الخندق الصخرى الضيق . .

* * *

وفجأة . . دوت طلقة نارية فكانت إشارة بدء المذبحة ، وبعدها انفتحت أفواه البنادق كالسيل المنهمر ، يحصدتهم حصداً ، فلا يستطيعون فكاًكا . وصدمتهم المفاجأة ، وانسدت فى وجوهم أبواب النجاة من هذا الجحيم المستعر ، وتلاطمت خيولهم وساعد دوى الرصاص على إثارتها فازدادت هياجاً كأنها حُرّ مستنفرة فرت من قسورة . . وأخذت الخيل تلفظ سادتها عن ظهورها وتذكهم بأقدامها دكا وكأنها تنفذ دوراً مرسوماً لها فى المؤامرة . ومن حاول منهم تسلق الصخور ، عاجلته رصاصة

يهوى بعدها إلى الحفرة صريعا أو جريحا فتدهسه الخيل النافرة ، أما الوحيد الذي نجا بحياته فهو أمين بك الذي كان في مؤخرة الـركب ، فما إن سمع دوى الراص ، حتى ركض بجواده نحو أسوار القلعة ثم لكز الحصان بقوة فهوى به إلى الوادى السحيق وتهشم الجواد ونهض الأمير فأطلق ساقيه للريح فى صحراء المقطم ، ولم يكف عن الجرى حتى وصل لبنان لائذا بأمرها بشير الشهابى .

على موائد اللثام

لم تكن مذبحه القلعة ، هى فصل الختام فى المأساة المروعة التى خطط لها محمد على بإتقان . فالبكوات المماليك ، الذين ذهبوا إلى احتفال القلعة وحصدتهم رصاص الألبان ، كانوا ٤٠٥ فقط ، أما بقية المماليك فكانوا - وقت المذبحة - آمنين فى قصورهم المنبثة فى الجمالية والأزبكية والناصرية ، ولا يدرون شيئاً مما جرى لزعمائهم . فما إن سكن غبار المذبحة ، حتى انقض الجند الألبان على قلب القاهرة ، يذبحون المماليك فى عقر دورهم ، ويستبيحون نساءهم ، وينهبون أموالهم . كانت تعليقات الإبادة صريحة حتى لا يبقى على ظهر الأرض من المماليك ديار ، ولقد نفذ الألبان المهمة الموكولة إليهم ، وقد تملكتهم شهوة السلب والانتقام من أعدائهم الألداء حتى باتت القاهرة فى ذلك اليوم المشثوم أشبه بمدينة مفتوحة أمام غزوة تترية . وعاث الجند فساداً فى المدينة الآمنة ، ولم يسلم المصريون من هذه المحنة القاسية فأصابهم بعض ما أصاب المماليك من عمليات النهب والسلب وهتك الأعراض ورغم أن أهل القاهرة سارعوا إلى إغلاق حوانيتهم ولجئوا إلى بيوتهم بمجرد سماعهم نبأ المذبحة ، إلا أن الوحوش الكاسرة لم تفرق بين قصور المماليك وبيوت المصريين فاستباحوا كل ما تصل إليه أيديهم ، واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ، ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد على بنفسه إلى شوارع المدينة ، وتمكن من كبح جماح جنوده وأعاد الانضباط إلى المدينة التعيسة .

وفى نفس الوقت الذى دارت فيه عمليات الإبادة فى القاهرة ، كانت هناك عمليات مماثلة فى الإسكندرية وبقية المدن التى يوجد فيها المماليك ، ولم يفلت منهم إلا من أسعده القدر بالهروب إلى الصحراء بحثاً عن كهف مظلم أو قبر مهجور يأوى إليه .

وانطوت ، إلى الأبد من تاريخ مصر ، صفحة الممالك بعد خمسة قرون أو تزيد عاشوها في أحضان مصر المحروسة ، يتقلبون في أعطاف نعيمها وينهلون من رضاب نيلها ، أولئك هم الصعاليك الذين جاءوا إلى مصر غلمانا يباعون في أسواق النخاسة ، فما هي إلا عشية وضحاها حتى أصبحوا ملوكا يدين الناس بالطاعة لهم ويدعون لهم بالنصر والعز والتأييد . وفن الدعاء للحاكم - إن لم تكن تعلم - فن مصرى قديم اتقنه المصريون منذ دالت دولتهم ، وخبا عزهم ، وأصبحوا غرباء في ديارهم ، ثم باتوا كالأيتام على موائد اللثام . . ولكن هؤلاء اللثام لم تكن صفحة حياتهم خالية من ومضات المجد والعظمة ، فهم الذين دافعوا عن مصر والشرق الإسلامى ، يوم أطبقت عليهما جحافل المغول من الشرق ، وجيوش الصليبيين من الغرب ، وهم الذين فتنوا بجمال العمارة ، وتلك آثارهم تدل عليهم في المساجد والمدارس والأضرحة والأسبلة . ولو سرت يوما في القاهرة المعز ، فاعلم أن كل ما تقع عليه عينك من أثر عظيم - بما فيها الأزهر نفسه - إنما من وحي عشقهم لل عمران والتشييد .



فوارحمته على أولئك الصناديد الذين تربوا على صهوات الجياد ، وانصهروا في غبار المعارك ، ولم يعرفوا إلا لغة الحرب ، فأذلوا كبرياء هولاء في عين جالوت وأسروا لويس التاسع في المنصورة ، وحرروا القدس من دنس الصليبيين . وأزالوا آخر قلاعهم في عكا . ومسحوا وجودهم عن خريطة الشرق الأوسط .

ووأسفاه عليهم حين خلدوا إلى النعيم واللهو ، والمجون ، وانحبسوا في مخادع الحريم والغلمان . فلانت قناتهم ، وذابت صلابتهم ، وانطفأ وهجهم وصدئت سيوفهم من طول ما نامت في أغمارها ، ففقدوا مبرر وجودهم ، ولم يبق منهم سوى ثياب مزركشة مضحكة ، وخيول مطهمة ، وسيوف مطعمة بالماس والزمرد ، وكلها أشياء تصلح للعرض في المتاحف ولا تصلح لمواجهة تطورات العصر الحديث .

وقبل أن يفنى الممالك على يد محمد على . كانت عوامل الفناء الذاتى قد حكمت عليهم بالموت البطيء . لقد ظنوا أن العالم سوف يتوقف عند اللحظة التى شهدت

أعجدهم ، وتقوقعوا داخل شرنقة الغرور والاستعلاء والجهل ، وما دروا أنهم صنعوا أكفانهم بأيديهم ، ودخلوا مرحلة الفناء البطيء ، حين تجاهلوا حركة التاريخ . . فلما أجهز عليهم محمد علي ، لم يجدوا أحدا يبكي عليهم أو يأسف على مأساتهم .

إنها عبرة التاريخ لمن يريد أن يعتبر .

عبد مأمور

كان محمد بك الدفتردار ، أحد السواعد القوية التى اعتمد عليها محمد على فى تثبيت حكمه ، وتشديد قبضته على الشعب المصرى ، وقام فى هذا السبيل بدور لا يقل كفاءة عن الأدوار التى قام بها إبراهيم باشا أكبر أبناء الوالى ، والكتبخدار محمد لاطوغلى نائب الوالى ، وصالح قوش بطل مذبحة القلعة ، وغيرهم من أركان النظام الجديد ، وكلهم جاءوا برفقة محمد على ، جنودا فى جيش الاحتلال العثمانى الذى وصل مصر فى فترة الفوضى التى أعقبت خروج الحملة الفرنسية ، ولكنهم لم يخرجوا من مصر أبداً . . وأصبحوا سادة البلاد والمتحكمين فى مصيرها على مدى قرن ونصف قرن من الزمان .

وكان محمد الدفتردار وحشا كاسرا ، يحمل بين جنبيه قلبا صخوريا ، لا تعرف الرحمة أو الشفقة سبيلا إليه ، كان عاشقا للدماء . يطرب لمشهد الرءوس وهى تطير فى الهواء . ولا يتورع عن ارتكاب أبشع المذابح لأوهى الأسباب ، فكان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع والرعب فى نفوس سامعيه . وكان محمد على يستخدم هذا النوع من البشر ، لفرض سيطرته وإحكام قبضته على ربوع مصر ، ومنع المصريين من التمرد على نزعتة الاستبدادية ، فجعله من خاصته المقربين ، ولكى يضمن ولاءه إلى الأبد زوجه ابنته زهرة هانم ، فأصبح واحدا من أعضاء الأسرة المالكة .

وحدث أن كان الدفتردار يطوف على بعض القرى ، عندما تقدم منه فلاح بائس عارضا شكواه ، فقال : لقد تأخرت عن سداد الضريبة المستحقة على وقدرها ستون قرشا ، ولكن ناظر الأرض أبى إلا الدفع ، فاستولى على بقرتى الوحيدة ، وأمر جزار القرية بذبحها ثم قسمها ستين جزءا وأمر بتوزيعها على الفلاحين بواقع قرش واحد للجزء ، وأعطى الجزار رأس البقرة لقاء عمله ، وبعد أن جمع المبلغ ، مضى وتركنى

دون أن أتذوق حتى ولو قطعة واحدة من لحم البقرة التى كنت أعتد عليها فى زراعتى . . وكانت تساوى ضعف المبلغ الذى جمعه .

فلما فرغ الفلاح من قصته ، مضى الدفتردار إلى القرية ، وأطلق المنادى يطلب من أهلها التجمع فى الجرن . والتف الفلاحون فى شبه حلقة . بينما بعث الدفتردار فى استدعاء الناظر والجزار الذى ذبح البقرة ، ثم أمر الجند بتكبير الناظر بالحبال وإلقائه فى وسط الحلقة ، وتوجه بالحديث إلى الجزار قائلاً : كيف سمح لك ضميرك بذبح بقرة هذا الفلاح المسكين وهى كل ما يملك من حطام الدنيا ؟ ! فارتعد الجزار ولكنه تمالك نفسه وقال للدفتردار : إنى يامولاي ، عبد مأمور . . ولم أفعل سوى ما أمرنى به الناظر . . فسكت الدفتردار برهة كأنها دهر ، وألقى بسهام نظراته النارية على الناظر المطروح أرضاً . وقال للجزار : لو أمرتك بأن تذبح الناظر مثلما ذبحت البقرة . . فهل تفعل . . ؟ فقال الجزار على الفور : لقد قلت يامولاي إنى عبد مأمور . أطيع الأوامر التى تصدر إلى من سادتى . . عندئذ انتصب الدفتردار واقفاً وصرخ فى وجه الجزار : إذن فلانى آمرُك أن تذبح هذا الوغد . . فخف الجزار مسرعاً وأخرج السكين من جيبه ، وانقض على رقبة الناظر ، فحزها حتى فصل رأسه عن جسده . . وساد الوجوم أهل القرية . . وجدت الدماء فى عروقهم ، وظلوا واقفين مذهولين أمام هذا المشهد الرهيب . . وبعد أن فرغ الجزار من مهمته ، نهض منتظراً باقى الأوامر . فقال له الدفتردار : والآن آمرُك أن تقطع جثته ستين إرباً . . ما عدا الرأس . . ومضى الجزار فى تنفيذ الأمر بهمة ونشاط حتى فرغ من تقطيع الجثة ستين إرباً . . وهنا التفت الدفتردار نحو أهالى القرية صارخاً : على كل منكم أن يشتري قطعة ويدفع قرشين . . وصدع الأهالى بالأمر . . أخذ كل منهم قطعة من لحم الناظر ، ووضع قرشين . فلما تجمع مبلغ مائة وعشرين قرشاً ، تناولها الدفتردار ودفع بها إلى الفلاح المنكوب ليشتري لنفسه بقرة جديدة . . ثم التفت إلى الجزار وقال : « كما أنك أخذت رأس البقرة جزاء لك على تعبك ، خذ بالمثل رأس الناظر جزاء لك على تعبك فى ذبحه وتقطيعه . . وانطلقت منه ضحكات قضيعة كأنها زلزال مدمر . . ثم نهض وغادر القرية ، ومن خلفه جنوده . . بينما أهل القرية ذاهلون . . وكأنهم يشهدون كابوساً كريهاً . .

لقد ظن هذا الوحش البشرى ، أنه أقام عدلاً ، ومحا ظلماً . . وما درى أن العدل الذى يتحقق عن طريق الإرهاب والعنف هو عين الظلم .

سياسة بلا أخلاق

كان أمير البحر ، أحمد فوزى باشا ، قائدًا للأسطول التركى ، فى الوقت الذى بلغ الصدام فيه ذروته بين مصر وتركيا . كان محمد على قد أذاق الجيوش التركية مرارة الهزائم المتوالية فى الشام والأناضول . وباتت القوات المصرية على مرمى حجر من عاصمة الإمبراطورية العثمانية ، فزلزلت دعائمها وهددت بزاولها . وفى هذا الوقت الحرج مات السلطان محمود - سلطان الأتراك - وخلفه غلام فى السابعة عشرة ، اسمه عبد المجيد ، أسلم زمام الدولة إلى خسرو وعينه صدرا أعظم . والمصريون يذكرون هذا الرجل ، الذى جاء إلى مصر واليا من قبل الدولة العلية ، مع بداية ظهور محمد على ، ولكنه فشل فى اقتلاعه من مصر ، فعاد إلى بلاده خائبًا وهو يقطر حقدًا على محمد على .

وكما جرت عليه العادة فى دول الشرق منذ القدم ، فإن فترات الانتقال من حاكم إلى حاكم تكون نعمة على البعض ، مثلما هى نكبة على البعض الآخر ممن لا يكون هواهم مع النظام الجديد . فتعمل الدسائس والمؤامرات عملها فى الإيقاع بهم وتصفيتهم جسديا وسياسيا . وكان القبودان أحمد فوزى باشا من هؤلاء الذين يتوقعون الشر من جانب خسرو باشا بسبب (خصومة) قديمة بينهما . لذلك لم يكذب فوزى باشا يتلقى أمر استدعائه إلى الأستانة حتى أوجس فى نفسه خيفة ، وأدرك أنه إما مقتول وإما معزول . فأشار عليه بعض أعوانه بفكرة اللجوء إلى مصر وتسليم الأسطول التركى إلى محمد على غنيمة خالصة ، فينال حظوته ويضمن لنفسه موقعا أثيرا فى دولة النجم الصاعد . واستحسن الرجل الفكرة فأقلع بالأسطول الضخم سرا من مياه الدردنيل إلى الإسكندرية ، وعلى ظهره أكثر من ٢١ ألف بحار وجندى .

واستقبل محمد على الأسطول التركى بالحفاوة والترحاب ، فبانضمامه إلى البحرية المصرية أصبحت مصر أقوى دولة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط . ولقى فوزى باشا عند سيده الجديد الخطوة التى كان يتوقعها .

ولكن الرياح لم تجر بما كان يشتهى أمير البحر التركى ، ولا بما كان يتمنى محمد على ، فقد لعبت الدول الأوربية - بزعامة إنجلترا - لعبتها المعروفة لإجهاض نهضة محمد على وقصة أجنحته التى امتدت إلى الحجاز وفلسطين وسوريا والمورة والأناضول ، وأسفرت المؤامرة الأوربية عن إبرام معاهدة لندن التى أعادت الجيوش المصرية إلى معاقلها الأصلية . وبعدها أصدر السلطان العثمانى فرمانا ينظم شكل العلاقة الجديدة بين مصر ودولة الخلافة . وكان من بين بنوده إعادة الأسطول التركى والعفو عن جميع رجاله باستثناء القبودان أحمد فوزى باشا . فكان لابد من تسليمه حتى يلقى جزاء خيانتة .

وأسقط فى يد محمد على ، فلا هو يستطيع مقاومة أمر السلطان ومن خلفه الدول الأوربية المتحفزة ، ولا هو يستطيع تسليم الرجل الذى التجأ إليه فتضيع هيئته أمام أتباعه ، ومعظمهم من الترك . وشعر السلطان بحرج موقف محمد على ، وأراد أن يسهل عليه الأمر ويخرجه من المأزق ، فبعث إليه بأنه ليس من الضرورى تسليم القبودان الخائن حيا . . فالمهم أن يدفع ثمن خيانتة سواء فى مصر أو فى الآستانة . . فكلها بلاد السلطان . وفهم وإلى مصر مغزى الإشارة ، فنهض من فوره إلى خزانته الخاصة ، وأخرج منها قنينة سموم صغيرة ، واستدعى أحد خاصته وأعطاه القنينة وكلفه بمهمة التفاهم مع فوزى باشا لإخراج وإلى مصر من ورطته .

وذهب الرسول إلى قصر فوزى باشا ، وأخذ يلاطفه ويحدثه حديثا عن متاعب الحياة الدنيا وكيف أن متاعها زائل . . وأن النعيم الحقيقى فى الحياة الآخرة ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، وأنه يحسن بالمرء أن يكون مستعدا لمقابلة وجه ربه الكريم فى أية لحظة يشاء الله فيها أن يستدعيه إليه . وما أسهل الموت إذا جاء للإنسان فى جرعة ماء أو فنجان قهوة . . ١١ وفهم القبودان معنى الكلام ، فقام فتوضأ وصلى العصر وختم الصلاة بالدعاء والاستغفار . . ثم التفت إلى فنجان القهوة المسمومة فتجرعها فى صبر واستسلام وهو يهذى بالتركية : قسمت . . قسمت ١١ . .

شارع سليمان باشا

لا يُذكر تاريخ « الجهادية » المصرية ، إلا مقتربا باسم محمد على الكبير مؤسس مصر الحديثة ، ومعهُ سليمان باشا الفرنساوى ساعده الأيمن فى بناء أول جيش مصرى صميم ، منذ انحلت الفيالق المصرية فى أواخر عصر الفراعين ، وسقوط مصر تحت سنايك الغزاة .

ألفان من السنين عاشها المصريون محرومين من شرف الجنديّة ، لا يحملون سلاحا يدافعون به عن وطنهم ، فقد أراد لهم حكامهم أن يحملوا - فقط - الفتوس . حتى باتت كلمة ، فلاح ، مرادفة لكلمة « مصرى » فى قاموس الشراذم الأجنبية التى تكالبت على مصر كما تتكالب الأكلة على قصعتها . . .

بقى هذا الحال المهين إلى أن ظهر محمد على ، على مسرح الحياة المصرية ليحرك ركودها ، ويدفع الدماء الفتية فى عروقها التى تجمدت بفعل القهر والطغيان والجهل والانفلات . . . ورأى هذا الثعلب العبقري أن أول خطوة فى بناء دولة مصر العالمية إنما تبدأ من بناء جيش نظامى حديث على نمط الجيوش الأوربية التى تعالى صليلها خلال الحروب النابليونية . وجرب محمد على أن يجعل من (الباشبوزق) وهم أخلاط من الأرئاء وط والشركس والدلاة - نواة الجيش النظامى . ولكن هل يستطيع من نشأ على الفوضى والشغب والتمرد والخيانة والغدر أن يخضع لأصول الطاعة والنظام والضبط والربط واحترام القيادة . . . ؟

مستحيل . . .

وفشلت التجربة فشلا كاد يطيح بمركز محمد على نفسه . . . فاتجهت أنظاره إلى الفلاحين . .

هل استقرأ محمد على نبض التاريخ ، فتذكر أمجاد الجيش المصرى أيام كان يصول ويجول فى تخوم الشرق تحت رايات أحمرس وتحومس ورمسيس . . ؟ !

لا أظن . . فلم يكن عزيز مصر من أولئك الحكام الذين يحبون الثقافة واستقراء التاريخ . ولكن من المؤكد أنه كان خبيراً فى كشف معادن الرجال . . فأدرك بفراسته أن هذا الفلاح الخامل سوف يأتى بالأعاجيب إذا تهيأت له الظروف الصالحة . .

وبدا محمد على من نقطة الصفر . .

وساقت إليه الأقدار ضابطاً فرنسياً من بقايا حروب نابليون ، اسمه الكولونيل (سيف) ، فعهد إليه العزيز بمهمة تكوين النواة الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدريب الجنود المصريين . واختار له ٥٠٠ من خاصة مماليكه ليبدأ بهم ، واختار له أسوان لتكون (وكرا) لهذه المهمة العويصة ، بعيداً عن مؤامرات الباشبوزق ومقاومتهم لكل جديد . واستغرقت عملية التدريب ثلاث سنوات ذاق خلالها (سيف) الأمرين لتطويع هذه العناصر الفوضوية وتهذيبها . . واعتنق (سيف) الإسلام وأصبح اسمه (سليمان) فزال الحاجز النفسى بينه وبين تلاميذه الضباط ، وأظهر لهم من ضروب الشجاعة والصبر وسعة الصدر ما جعل حقدهم عليه ينقلب إلى حب واحترام وإجلال .

* * *

حدث مرة أن دبر تلاميذه مؤامرة لاغتياله ، أثناء التدريب على ضرب النار فأطلق أحدهم عليه رصاصة مست أذنه وأطاحت بقبعته ، وبدلاً من أن ينتقم سليمان من القاتل ، أمسك بالبندقية واتخذ مكان القاتل فى الصف وأخذ يصوب الرصاص نحو الهدف وهو يردد : هكذا يكون التصويب يا غبى . . ! وكان من الطبيعى أن تترك هذه التصرفات النبيلة أثرها فى تلك النفوس الصخرية . فأذابت من جمودها وغرورها .

وبعد تكوين الدفعة الأولى من الضباط بدأت عملية البحث عن الجنود ، وكان من الطبيعى أن تلقى دعوة التجنيد نفوراً وكراهية من المصريين ، لبعدها المسافة الزمنية بينهم وبين هذا الواجب الوطنى ، فضلاً عن الطريقة البشعة التى سلكها زبانية

محمد على لجمع الفلاحين ؛ إذ كانوا ينقضون على القرى الآمنة كالوحوش الكاسرة
ويأسرون كل من يقع في أيديهم من الرجال والنساء والأطفال ، ويسوقونهم في الحبال
إلى معسكرات التجنيد في المدن .

ولكن المشروع مضى في طريقه المرسوم ، وبقي سليمان باشا الفرنساوى على رأس
الجيش يعلم ويدرب وينظم وينشئ المدارس الحربية ويستدعى الخبراء من الخارج
ويرسل البعث إلى أوروبا ، لتتخصص في الفنون العسكرية ، ولم يكن سليمان باشا
أقل من سيده إعجابا بالفلاح المصرى . ويؤثر عنه قوله « إن العرب (يريد المصريين)
هم خير من رأيته من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على
المتاعب ، مع انشراح النفس وتوطئتها على احتمال صنوف الحرمان . وهم بقليل من
الخبز يسرون طوال النهار يحدوهم الشدو والغناء . ولقد رأيته في معركة (قونية)
يقفون ساعات متوالية في خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جاش تدعوان إلى
الاعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير في
واجباتهم وحركاتهم الحربية .

وظل سليمان باشا الفرنساوى يواصل مهمته الجلييلة حتى عصر سعيد باشا .
ودخل في نسيج المجتمع المصرى . فتزوجت إحدى بناته بمحمد شريف باشا (أبو
الدستور) ، فأنجب منها فتاة تزوجت عبد الرحيم صبرى باشا ، وأثمر هذا الزواج
فتاة هى ملكة مصر السابقة (نازلى) أم الملك الراحل فاروق .

وتقديرا من المصريين لهذا الرجل الذى يرجع إليه الفضل في بناء أول جيش
مصرى صميم ، أقاموا له تمثالا في الميدان المسمى باسمه ، وأطلقوا اسمه على أحد
شوارع القاهرة ، فلما قامت ثورة الجيش في يوليو ١٩٥٢ أطاحت بالتمثال وألقت به
في ساحة المتحف الحربى . ونزعت اسمه من الميدان والشارع ، وأطلقت عليهما اسم
طلعت حرب ، ومع ذلك لا يزال المصريون يفضلون استعمال اسم (شارع سليمان)
ربما لأنه أسهل . . وربما وفاء منهم لذكرى هذا الرجل العظيم .

قتيل بنها العسل

كان عباس الأول أسوأ حكام أسرة محمد على ، بل أسوأ الحكام الذين توالوا على ملك مصر . . كان يجمع بين الجهل والغباء . . وتنطوى نفسه على شر دفين ، نحو كل الناس ، بمن فيهم أهله والمحيطون به ، حتى انفض من حوله معظم أفراد الأسرة العلوية هرباً برقابهم من أن تنالها سيوف الولى .

حكم عباس الأول مصر ست سنوات ، كانت ديجورا داكنا ، ليس فيه خيط نور . . وقد تولى الحكم فى حياة جده محمد على ، بعد وفاة عمه البطل المغوار إبراهيم باشا . . ورغم أن عمه سعيداً كان من أولاد محمد على - إلا أن نظام الوراثة الذى فرضه الإنجليز والعثمانيون على محمد على بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، كان يقضى بأن يكون الحكم لأكبر أفراد الأسرة سناً . . وشاء الحظ العاثر أن يكون كبير القوم أجهلهم وأغباهم . . وهذا أكبر دليل على فساد نظام توريث الحكم . . فمن يضمن ألا يكون الوريث فاسداً متلافاً ، بيدد ثروة لم يتعب فى جمعها . ويهدم ما بناه أسلافه ؟ وهذا ما فعله عباس ، إذ أغلق المدارس والمصانع والمؤسسات التى بناها جده . واستدعى البعثات التى كانت تتلقى العلم فى أوروبا . . واستدار نحو العلماء الذين رباهم محمد على - ومنهم رفاعة الطهطاوى - فشتت شملهم ، ونفاهم إلى أقاصى السودان ليأمن « علمهم » . . ا

* * *

وكان عباس الأول مثل الخفافيش . . يكره النور . . ويستوحش من الناس . ولا يتحرك إلا فى الظلام . . فهجر القاهرة وأقام لنفسه عدة قصور فى بطون الصحراء . كان أضخمها قصراً فى العباسية - وكانت فى ذلك الوقت صحراء موحشة - كما بنى قصراً فى صحراء السويس . وقصراً فى العطف . وقصراً على النيل فى بنها

العسل . . وهو القصر الذى لقى فيه مصرعه . . وكان يأوى إلى تلك القصور
ليبتعد عن الناس ، ولا يحيط به إلا شرذمة من العبيد والغلمان . .

وقد اختلفت الروايات فى مؤامرة مقتل عباس . فمن قائل إن عمته الأميرة زهرة -
أرملة محمد بك الدفتردار - هى التى دبرت المؤامرة من منفاهما فى تركيا وكانت تعرف
شغف ابن أخيها بالغلمان ، فدست له غلامين جميلين كلفتها بالسفر إلى مصر
والتحايل على الالتحاق بخدمته وقتله . فلما جاء الغلامان إلى القاهرة ، عرضا
نفسيهما فى سوق الرفيق . وكان لعباس وكيل متخصص فى شراء الغلمان المرد . فما إن
وقع بصره عليهما حتى اشتراهما وألحقهما بخاصة الأمير . . وكان من عادة عباس أن
ينام فى حراسة غلامين . فلما جاء الدور على هذين الغلامين ، انتظرا حتى غط فى
النوم ، ثم دخلا عليه وأخذوا أنفاسه ، ثم أسرعوا إلى الهرب إلى الإسكندرية ، ومنها إلى
إستانبول ، قبل اكتشاف الجريمة . وهناك قبضوا ثمن المهمة من عمه الأمير .

وهناك رواية أخرى ، تقول إن مقتل عباس ، كان جزءا من مؤامرة من مؤامرات
القصور التى كانت شائعة فى ذلك العصر . وخلاصة القصة ، أن عباسا كان
يصطفى بعض عبيده المقربين ، ويفرق عليهم الرتب العسكرية والأراضى الشاسعة
على غير كفاءة يستحقونها . وكان على رأس هذه الشرذمة مملوك اسمه خليل بك
درويش ، ولكنه ، بدافع الغطرسة والغرور ، أساء معاملة مرءوسيه ، فاستطالوا
عليه بالغمز واللمز ، وخاصة أنه كان جميلا صغير السن . فشكاهم إلى مولاه ، فأمر
بجلدهم وتجريدهم من الوظائف العسكرية ، وألحقهم بخدمة الإسطبلات . ولجأ
هؤلاء المنبوذون إلى مصطفى باشا ، أمين خزانة الأمير ، ليتوسط لهم عنده . فانتهاز
فرصة قدوم الوالى إلى قصر بنها ، ومعه أحمد يكن باشا وإبراهيم باشا الألفى محافظ
القاهرة ، ورجاهما التوسط لدى الوالى ليعفو عن أتباعه ، فاستجاب عباس لهما
وعفا عنهم وأعادهم إلى مناصبهم ، فجاءوا إلى بنها ليرفعوا له تشكراتهم وهم
يضمرون قتله . فاتفقوا مع غلامين من خاصة عباس ، كانا يحرسانه وهو نائم
ففتحوا لهم الباب ودخلوا غرفة الأمير فشعروا بهم وحاولوا المقاومة . . ولكنهم تكالبوا
عليه حتى تمكنوا من خنقه ثم لاذوا بالفرار . . فلما كان الصباح ولم يستيقظ الوالى فى
مواعده ، دخل عليه يكن باشا والألفى باشا فوجداه مخنوقا فى فراشه . فكتما الخبر
ثم نقلوا جثمانه إلى القاهرة ، وهناك أعلن خبر قتله . فتنفس الناس الصعداء وأحسوا
بارتياع شديد ، كأن كابوسا ثقيلا أنزاح من فوق صدورهم . . .

النبأ السعيد

لما اشتدت وطأة المرض على والى مصر محمد سعيد باشا ، نصحه أطباء أوروبا بالعودة إلى بلاده ليلفظ فيها أنفاسه ، بدلا من البهدلة في بلاد الفرنجة واستجاب سعيد لنصيحة أطبائه ، وعاد إلى قصره بالإسكندرية ينتظر ملك الموت بين لحظة وأخرى . ولم يكن إسماعيل - وريثه على العرش - أقل استعجالا لنهاية عمه ، حتى يستريح من الآلام المبرحة ، ويقفز هو إلى عرش المحروسة . وذاعت أخبار احتضار الوالى فى أنحاء البلاد . . وبدأت الأنظار تنصرف عن الشمس الغاربة فى مياه الإسكندرية ، وتتجه نحو قلعة القاهرة حيث يقيم الوالى المنتظر . وأخذت زرافات المتفعين والوصوليين ومحترفى السلطة تتحرك نحو القلعة ، ترقب النجم الصاعد . . وتحجز لنفسها مكانا فى دولة إسماعيل المقبلة .



وكان من عادة ذلك الزمان ، أن يتعطف الحاكم الجديد بالإنعام برتبة البكوية على أول شخص يحمل إليه نبأ الولاية ، أو برتبة الباشوية إن كان يحمل رتبة البكوية . . فضلا عن صرة من العملات الذهبية . وكان رئيس مكتب التلغراف بالقاهرة - ويدعى بسى بك - يعرف هذا التقليد فكان أشد الناس تحرقا إلى تلقى نبأ موت الوالى سعيد ، فيكون أول من يزف (النبأ السعيد) إلى إسماعيل . . وظل الرجل مرابطا فى مكتبه لا يغادره ليلا ولا نهارا ، وبين الحين والآخر يتصل بزميله رئيس مكتب تلغراف الإسكندرية يستعجله الخبر . ومرت الأيام والليالى . والمسكين لا يذوق طعم النوم حتى أوشك على الانهيار . ثم خطر له أن يتمدد لبضع دقائق يختطف فيها قسطا من الراحة ، حتى يتمكن من مواصلة العمل . فاستدعى معاونه

- وكان رجلا خبيثا - وقال له : أنت تعرف طبعا يا عزيزى أهمية خبر وفاة الوالى وتعرف أنه سيعود علينا بالخير العميم .

قال المعاون فى بلاهة أجل أعرف ياسيدى . .

قال بسى بك : وتعلم أننى لم أذق طعام النوم منذ أيام .

قال المعاون : أجل أعلم . .

قال بسى بك : إذن سوف أدخل إلى مكتبى لأغفو قليلاً . . إذا جاء النبأ السعيد فما عليك إلا أن توقظنى فوراً . . وسكون لك عندى مكافأة ٥٠٠ فرنك .

* * *

وقبل المعاون العرض . ودخل بسى بك إلى مكتبه ، وهو بملابس الشغل فاستلقى على أريكة جلدية قديمة . وراح فى سبات عميق . . وما هى إلا دقائق حتى تلقى المعاون نبأ موت الوالى سعيد . فأمسك بالبرقية وفتح باب غرفة رئيسه فوجده يغط فى النوم ، وأصوات شخيرته تزلزل أركان الغرفة . . فأوصد عليه الباب وانطلق من فوره إلى القلعة . وكشف للحراس عن مهمته ، فذهبوا به إلى القصر وأدخله رجال البلاط إلى القاعة الرئيسة حيث كان إسماعيل يترقب وصول النبأ السعيد . . وتقدم الموظف جاثيا على ركبتيه ، وهو يرفع البرقية إلى الوالى الجديد . . فما إن قرأها إسماعيل حتى طفرت من عينيه دموع الفرح . . وسقطت البرقية من يده فالتقطها المعاون وهو لا يزال جاثيا فى انتظار المكافأة . . وأقبل رجال البلاط والحاشية يزفون التهانى إلى ولى النعم . . وتلفت إسماعيل ، فوجد الموظف لا يزال راکعاً شاهراً البرقية فى يده . . فتبسم ضاحكاً من إصراره وقال له : انهض يابك . . ونهض المعاون . . وقدم له أحد رجال القصر الصرة الذهبية فأخذها . . ثم غادر القصر عائداً إلى مكتب التلغراف ، وتذكر المكافأة الموعودة من رئيسه . وبلغ به الجشع أن رفض التغاضى عنها ، بالرغم من أنه أصبح من حملة العملات الذهبية . فدخل على بسى بك وأيقظه من نومه ، وقدم إليه البرقية وكأنه تلقاها على التو . . ونهض الرجل وهو يهتز طرباً . . وانهاه على معاونه تقبيلاً . . وهم بالخروج فى طريقه إلى القلعة ولكن المعاون ذكره بالمكافأة . . فأخرج المسكين كل ما فى جيبه من نقود مصرية وتركية وفرنسية ، ودسها فى جيب المعاون . . وانطلق من فوره إلى القلعة

والبرقية في يده وهو يمني نفسه برتبة الباشوية ، وبالصرة التي سترفعه من زمرة الموظفين التعساء إلى صف الموسرين السعداء . ولكن ما إن بلغ مشارف القلعة حتى سمع دوى المدافع ابتهاجا بتولية إسماعيل . وبهت المسكين ، واقترب من أحد رجال البلاد يستفسره النبأ ، فأبلغه بما حدث من معاونه . . وصعق الرجل من هول الخيانة التي ارتكبها مساعدته ، وقفل عائداً إلى مكتبه حزينا كسيفا ، ناقما على الرجل الذي خدعه مرتين : مرة عندما انفرد بصرة الذهب . . ومرة عندما سلب منه المكافأة التي لا يستحقها . فلما بلغ المكتب ، وحاول تعنيف معاونه الخبيث . حذره الأخير من التناول عليه باعتباره (زميل) ويحمل نفس الرتبة التي يحملها هو . . فقد تساوت الرؤوس (ومفيش حد أحسن من حد) . . واستفاق الرجل من هول الصدمة . . وأخذ يلعن نفسه لأنه وضع ثقته بإنسان ليس أهلا للثقة .

حادث على النيل

كانت زيارة السلطان عبد العزيز ، خليفة المسلمين وإمبراطور الدولة العثمانية لمصر عام ١٨٦٣ حدثا جليلا ، لا تزال ذكراه ماثلة في الشارع الذى يحمل اسم «عبد العزيز» والممتد بين ميدان العتبة وميدان عابدين ، وظل أحد أهم شرايين الحركة التجارية فى القاهرة ، حتى منتصف القرن الحالى . وكانت هذه أول زيارة يقوم بها سلطان عثمانى لمصر ، منذ افتتاحها سليم الأول بقائم سيفه عام ١٥١٧ ، وتحولت مصر من يومها إلى إيالة تركية يحكمها وال قادم من الآستانة ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذات نفوذ وسلطان يمتدان شمالا إلى حلب ، وجنوبا إلى منابع النيل ، وشرقا إلى اليمن والخليج .

وقد أراد الخديو إسماعيل أن يجعل من زيارة سيده الخليفة فرصة يشاهد خلالها معالم الحضارة المصرية الحديثة ، وفى طليعتها قطار السكة الحديدية ، الذى استقله السلطان هو وحاشيته من الإسكندرية إلى القاهرة ، فانبهر به انبهارا عظيما ، إذ كانت المرة الأولى التى يرى فيها السلطان مثل هذه الأعجوبة التى تتحرك على قضبان من الحديد ، وتختصر المسافات ، وتطوى الزمن ، فى عصر كانت السيادة فيه للبغال والخيول . وأخذ السلطان هو وأمراء البيت العثمانى ، يتفقدون أجزاء القاطرة ويسألون عن كل صغيرة وكبيرة ، ويستمعون إلى شرح مفصل من مهندس القاطرة وسائقها ، عن كيفية حركتها ، وإيقافها ، ثم يستمعون فى شغف إلى صفارتها الحادة التى تنطلق لتنبيه الناس إلى حركتها ، فيفسحوا لها الطريق .

فلما جاء موعد تحرك القطار ، استقل السلطان صالونه الخاص ، بينما جلس الخديو فى مقعد مجاور ، ليكون تحت إذنه فى أية لحظة . وركب باقى الأمراء العثمانيين

والمصريون في عربات القطار الذى أخذ يقطع سهول الدلتا الممتدة عبر الأفق . وأخذ السلطان يرسل الطرف بعيدًا بعيدًا إلى الحقول الخضراء تتخللها الفنوات والترع . . والفلاحون المصريون أنصاف عرايا . وقد انحنت أصلابهم على الطين . . إنهم نفس الفلاحين الذين اجتاحتهم جيوش الإسكندر وقمبيز وقيصر ولويس التاسع وسليم الأول . فما نالت من صلابتهم ووداعتهم وارتباطهم الوثيق بالأرض التى خرجوا منها . . لقد اندثر الطغاة والمتجبرون ، أو ذابوا في طين مصر بمن فيهم الاتراك . . وبقي المصريون يفلحون الأرض ويستخرجون السنابل وينشرون الأمن والسلام على العالم .



فلما بلغ القطار كوبرى كفر الزيات ، أبدى السلطان عبد العزيز هو وحاشيته إعجابهم ببنائه ، وأخذوا يعظمون من شأنه . ويبالغون في تقدير نفقاته . ولكن إسماعيل قال للسلطان : إن تكاليف بنائه لم تتجاوز سبعة ملايين فرنك . . وأخذ البرنس حلیم ، أصغر أنجال محمد على ، يروى للضيوف قصة نجاته من الغرق قبل خمس سنوات ، حين سقطت به العربة من الكوبرى حتى غاصت في النيل . وكان يشاركه فيها الأمير أحمد رفعت ، ابن أخيه البطل الشهير إبراهيم باشا ، والوريث الشرعى للعرش بعد الوالى سعيد . ولكن رفعت لم يتمكن من الإفلات من العربة بسبب بدائته المفرطة ، فمات غريقا . وبذلك انتقلت وراثة العرش تلقائيًا إلى أكبر الأمراء سنا : إسماعيل . .

ومن المؤكد ، أن إسماعيل لم يكن مبتهجًا ، وهو يستمع إلى تفاصيل هذه المأساة التى كانت تثير الأقاويل حول دور إسماعيل في تدبيرها ، كى يفسح أمامه الطريق إلى العرش . وقد اختلفت الروايات بشأن تفسير هذا الحدث . فمن قائل إن الكوبرى ترك مفتوحا سهوا فلما بلغ القطار بداية الكوبرى لم يتمكن السائق من إيقافه ، فانزلق بركابه حتى غاص في قاع النيل . ولكن إلياس الأيوبى ، المؤرخ المتخصص في تاريخ عصر إسماعيل ، يرفض هذه القصة ، لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد تم إنجازه نهائيا وقت وقوع الحادث ويفضل الأخذ برواية بعض الكتاب الغربيين الذين أرخوا لهذا الحادث ، ومنهم « ماك كون » و « إدون دى ليون » .

وخلصه القصة ، أن القطارات كانت فى ذلك الوقت تتجاز النيل عند كفر الزيات فوق معدية تنقل عرباتها ثلاثا ثلاثا . . وكانت مصلحة السكة الحديدية تترك للركاب حرية الاختيار بين النزول من العربات ، أثناء نقلها ، اتقاء للخطر ، أو العبور فيها . ولكن الأميرين حليم ورفعت - وكانا فى عربة واحدة - أبيا النزول من العربة وفضلا البقاء فيها أثناء العبور فوق المعدية . وبالف العمال المكلفون بدفع العربة فى دفعها بقوة ، إظهارا لنشاطهم وشهامتهم وغيرتهم . . فتدحرجت العربة وانزلقت ، وغرقت بمن فيها . وكان الأمير رفعت بدينا فلم يستطع الوثوب من نافذة العربة إلى الماء ، فأخرج منها ميتا مخنوقا . وأما حليم ، فكان خفيف الجسم ، فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة .



أما الشبهات التى تثور حول تأمر إسماعيل ، فمنشؤها أن إسماعيل كان من المفترض أن يشارك الأميرين مركبة الموت . . فقد كان الأمراء الثلاثة يقضون الليلة السابقة فى ضيافة الوالى سعيد باشا بالإسكندرية . وكان برنامج الرحلة يقضى بأن يعودوا معا للقاهرة بالقطار . ولكن إسماعيل تخلف فجأة عن مصاحبتهم ، وأعرب عن رغبته فى البقاء بالإسكندرية لبضعة أيام . . وكان تخلفه هذا مثيرا للشكوك والظنون . . ولم يستطع إسماعيل أن يمحو هذه التهمة التى علقته به ، وكانت سببا فى حدوث القطيعة بينه وبين عمه حليم ، الذى خسر المعركة ، وأفلح إسماعيل فى نفيه من مصر . ولاشك أن هذه الشكوك شجعت إسماعيل على تغيير نظام وراثة العرش . فاستغل وجود السلطان فى ضيافته . وقدم إليه الرشا والهدايا الفاخرة حتى انتزع منه فرمانا يجعل ولاية العهد فى أكبر انجال الخديو . . فكان أغباهم وأضعفهم وأتعسهم . . محمد توفيق .

ثائر من الأزهر

وضع الخديو إسماعيل بعض مشايخ الأزهر ضمن عليّة المصريين ، الذين يتشرفون بالمثل أمام السلطان عبد العزيز ، خلال زيارته التاريخية لمصر المحروسة .
ووقع الاختيار على أربعة من أكابر العلماء ، لكي يستقبلهم السلطان في قصر القلعة . ولا يتبادر إلى الذهن أن هذا اللقاء ، يعنى أن يجلس السلطان مع العلماء ويتبادل معهم الحوار في شئون الإسلام والمسلمين ! لم يكن اللقاء يتضمن شيئاً من ذلك ، لأن خليفة المسلمين لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة ، وإن المقابلة لم تكن تتعدى دخول العلماء القاعة السلطانية ، لإلقاء التحية على السلطان ، ثم يعودون من حيث أتوا وهم ركوع . . .

وكانت المشكلة التي أقلقّت إسماعيل ، هي كيفية تعليم المشايخ الأربعة أصول وقواعد المثل بين يدي خاقان البرين وملك البحرين وخادم الحرمين الشريفين وكان البروتوكول التركي من التشدد بحيث يلزم الداخلين على السلطان - بمن فيهم شيوخ الإسلام - بالانحناء وتطويح الأيدي حتى تلامس الأرض ثم رفعها إلى مستوى الرأس . . ثم التقهقر نحو الباب ، وهم على هذه الحال المهينة . وطلب الخديو من قاضي القضاة التركي ، أن يتكفل بتدريب الشيوخ الأربعة على هذه الحركات البهلوانية . فأفهمهم فضيلته أن المقابلة ستكون في قاعة يقف السلطان في صدرها على منصة مرتفعة عن الأرض قليلاً . بينها وبين باقى القاعة حاجز مفتوح من وسطه ، وأنه ينبغي لهم إذا ما بلغوا الباب ووقعت أعينهم على جلالته أن ينحنوا انحناء عظيمًا ، ويسلموا بكتليتيديين حتى تمس الأرض . ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز بخطوات موزونة حتى إذا صار أمامها كرر الانحناء والتسليم ووقف .

ويرد السلطان عليه تحيته . فيعيد حيثئذ الانحناء والتسليم مرة أخرى ، ثم يرجع متقهقراً ووجهه إلى السلطان ، إلى أن يبلغ باب الخروج ، فيكرر الانحناء والتسليم ثم ينصرف مثلما دخل حتى يتوارى عن نظر السلطان .

فلما استغرب العلماء أن تقتصر المقابلة على تلك الحركات من الانحناء والتسليم قال لهم القاضى التركى إن الأمر لكذلك . فقالوا « قد فهمنا » . فلما جاء دورهم فى المقابلات ، دخل ثلاثة منهم وفعل كل منهم ما علمه القاضى أن يفعل . وكان الخديو واقفا خلف السلطان وعينه تراقب تحركاتهم ، ويحمد الله أنهم أدوا أدوارهم بإتقان .



فلما جاء الدور على الشيخ العدوى ، دخل وانحنى عند الباب مثل السابقين ولكنه سرعان ما رفع قامته وأخذ يمشى نحو السلطان بخطى وثيدة ، وحذاؤه الثقيل يدك البلاط المرمى ، ولم يعاود الانحناء أو التسليم . . . وفزع إسماعيل من تصرف الشيخ الذى خرق البروتوكول ، وأخذ يبحث عمن ينقذ الموقف قيل أن يحدث ما يغضب السلطان ، ولكن الشيخ العدوى مضى فى طريقه نحو الخليفة ، حتى وصل إلى الحاجز فجأوزه . . . وصعد إلى المنصة التى يقف عليها السلطان - وإسماعيل يتوارى ذعراً - ونظر الشيخ العدوى إلى عبد العزيز بعين ثابتة وقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله » . فوثب قلب الخديو من جرأة الشيخ ، ولولا مهابة السلطان لركل الشيخ وطرده . . . ولكن الخليفة ابتسم بلطف ، ورد على الشيخ السلام ، ثم انحنى أمامه انحناء خفيفة . . . حيثئذ انطلق لسان الشيخ من عقاله وأخذ يخاطب السلطان فيما يجب عليه نحو رعاياه ، بصفته كبير الحكام وبصفته مسئولاً عن شئون الرعية ، وأكد له أن ثوابه عند الله تعالى سيكون بمقدار ثقل المسؤولية وحسن أدائه لها ، كما أن عقابه عند الله على قدر إهماله الأمانة .

عندئذ ، امتقع لون الخديو إسماعيل ، وأخذ يلعن الساعة التى اختار فيها هذا الشيخ (المجذوب) . . . ويسب من أشار عليه باختياره . . . وأخذ يتوقع أن يحاسبه السلطان على تصرف الشيخ العدوى حساباً عسيراً . . . ولكن المفاجأة ، أن ملامح الارتياح بدت على وجه عبد العزيز . . . فلما فرغ الشيخ من خطبته ، ختمها بالسلام

الذى بدأها به . . ثم انحنى أمام السلطان ، وأقبل عائداً بوجهه لا بظهره ، كما فعل الآخرون . . وسبحته في يمينه . . فلما خرج إلى البهو ، وجد زملاءه في انتظاره وهم يتميزون غيظاً ، ويلومونه على فعلته ، وينذرونه بأوخم العواقب . فقال لهم «ولماذا أنتم منزعجون ؟ ! أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين . وأما أنتم فكأنكم قابلتم صنماً وكأنكم عبدتم وثناً . . » .

ثم التفت السلطان إلى إسماعيل يسأله : من الشيخ ؟ فبادر إسماعيل يعتذر ويقول : « إنه من أفاضل العلماء ، ولكنه أبله ومجذوب » . فقال السلطان : « لا . . إنه ليس مجذوباً . . وإنى لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحى إلى مقابلته . . » وأمر للشيخ العدوى بخلعة سنية وألف جنيه جائزة . . !

* * *

ولقد كذب إسماعيل . وصدق عبد العزيز . فلم يكن الشيخ العدوى مجذوباً ولا مجنوناً ، كما أراد إسماعيل أن يصفه . ولكنه كان عالماً يعرف قدر نفسه ، وقدر العلم الذى يحمله بين جنبيه . وقدر الأمانة التى تفرض عليه أن يكون شجاعاً فى حضرة أمير المؤمنين . . وهذه القصة التى نقلها المؤرخ إلياس الأيوبى عن السيد محمد عاشور الصدفى ، سبط الشيخ العدوى ، تؤكد صدق ما نزعى . . ولعل الموقف البطولى الذى اتخذته الشيخ العدوى أثناء الثورة العرابية ، كان أصدق دليل على شجاعته . لقد جرفته أحداث الثورة وشارك فى كل مراحلها مناوئاً للظلم والاستبداد وبعد ضرب الإسكندرية وانحياز الخديو توفيق إلى الإنجليز ، كان العدوى أحد الشيوخ الذين أصدروا فتوى أعلنوا فيها مروق الخديو عن الدين لخروجه على الإجماع الوطنى ، ووقوفه فى صف الأعداء . . وبعد فشل الثورة ، عانى الشيخ العدوى ، مثلما عانى كل المخلصين الشجعان ، السجن والضرب والإهانات . . وعرفته غرف السجون والمعتقلات ، ثم قدم إلى المحاكمة ، فحكمت إحدى المحاكم بتجريدته من جميع الرتب وعلامات الشرف والامتياز . . فخلعها الشيخ راضياً . . وبقيت له أعلى المراتب فى نفوس الناس . . وسيظل اسم الشيخ العدوى رمزاً لكرامة العلم وشجاعة العلماء فى كل عصر ومصر . .

أفراح الأنجال

كان الخديو إسماعيل مصاباً بداء الفخفخة ، وحب الظهور ، وهو داء وبيل له مفعول القمار ، إذا تمكن من إنسان ، قضى عليه ودفعه إلى بيع ثيابه . وبرغم الأعمال المجيدة التى قام بها هذا العاهل المستنير ، فإن تصرفاته الخرقاء أكلت حسناته كما أكلت عرشه وألقت به طريداً منبوذاً فى العواصم الأوربية ، مثل أى مدمن بدد ثروته من أجل المتعة القاتلة .

كان إسماعيل يستدين من الصعاليك والمرابين الأوربيين ، ليقم حفلات فاخرة يبهى بها أنظار ضيوفه . ويخدعهم بثراته الكاذب . وكان الأجانب أعلم الناس بحقيقة الوضع المالى للخديو المفلس . فكانوا يأكلون من خيره ويصبون عليه اللعنات لسفاهته وحمقه . وكان إسماعيل منغوفا بإقامة الحفلات الأسطورية التى جعلت من ليالى ألف ليلة وليلة حقيقة لا خيالاً . . وإذا كانت حفلات افتتاح قناة السويس أشهر مظاهر السفه الإسماعيلى . . إلا أن الحفلات التى أقامها بمناسبة «أفراح الأنجال» كانت أكثر بذخاً وإسرافاً وأشد خطراً على المسار الاقتصادى . فقد أقيمت فى وقت انكشفت فيه الخزنة العامة ، وأوشكت على الإفلاس . . ولكن إسماعيل تجاهل هذه الحقيقة المؤلمة . وتمكن منه داء حب الظهور . فاستجاب لرغباته المجنونة ، وأخذ ينثر الأموال ذات اليمين وذات الشمال ، وكأنه قارون فى زمانه .

* * *

ففى منتصف يناير ١٨٧٣ ، قرر إسماعيل تزويج أربعة من أنجاله هم : توفيق «ولى العهد» وحسين وحسن وفاطمة ، وأراد أن يجعل من هذه المناسبة حدثاً يتناقله

الرواة وتتحدث به الركبان ، ويفوق في أبعته ونفقاته حادث زواج الأميرة قطر الندى بنت حاكم مصر خمارويه بن أحمد بن طولون ، بالخليفة العباسي في بغداد . فقد دامت أفراح الأنجال أربعين ليلة كاملة ، بمعدل عشرة أيام لكل فرح . وطوال هذه الأيام تحولت القاهرة إلى مهرجان كبير تسطع فيه الأنوار ، حتى اختلط الليل بالنهار ولم يعد الناس يفرقون بين الصباح والمساء . . . وتحولت القصور الخديوية في القبة وعابدين وقصر النيل والجزيرة وغيرها إلى مراقص صاخبة وحانات عامرة ، تقدم أطيب الطعام والشراب لعشرات الألوف من المدعوين ، الذين جاءوا يغترفون من نهر الملذات الذي أقامه إسماعيل . . !

ولقد أفاض مؤرخو عصر إسماعيل في وصف البذخ والفخفة والإسراف الذي حدث في أفراح الأنجال . ويكفي أن تقرأ وصف زفة « شوار » الأميرة أمينة منذ خروجها من القصر العالي إلى قصر القبة حيث كان يقيم العريس « التعتيس » محمد توفيق . . فقد سارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة تحفها الفرسان بزى عربى بديع ، وآلاى مشاة بأسره بملابس بيضاء ناصعة كالثلج ، تتقدمه جوقة موسيقية من أمهر العازفين . وكانت الهدايا موضوعة في أسبنة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس . يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة عساكر في كل عربة . ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية والسيوف مشهرة في أيديهم . وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية . وقلائد ماس ساطعة من النوع المعروف باسم « البرلتى » ، ومناطق من الذهب الخالص . وأقمشة مطرزة باللؤلؤ عديم المثل . وزمرد في حجم البيض . وملابس بيضاء مطرز عليها رقم الأميرة باللائى والحجارة الكريمة . وآنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكميات عظيمة . وكان بين الهدايا المقدمة من « إسماعيل » لأكبر أبنائه ، سرير من الفضة الصب الخالصة ، شبيه بالذى أهده إلى الإمبراطورة أوجينى أثناء إقامتها بمصر . محلى بياض الذهب الإبريز . وعواميده الفخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز . . ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هانم ، والهدايا المهداة إليهن ، عن شوار أمينة هانم . . « إلخ .

ولم يكن أحد من أهالى القاهرة الذين شاهدوا أفراح الأنجال يعرف من أين أتى

حاكمهم الهام بهذه الأموال الطائلة ! ولم يكن أحد منهم يجرؤ على طرح هذا السؤال . . فقد كان إسماعيل حاكما شرقيا لا يُسأل عما يفعل . . ولكن لم تمض بضعة أعوام حتى كان إسماعيل يقف ذليلا خائرا أمام أصحاب الديون الأجانب الذين وقفوا ببابه . وأخذوا بخناقه . يطالبونه بأموالهم مضافا إليها فوائد تبلغ أضعاف ما أخذ . وكانت نهاية إسماعيل المفجعة . . وهى نهاية كل مسرف متلاف .

فرعون الصغير

كان للخديو إسماعيل أخ من الرضاة ، اسمه إسماعيل صديق ، لعب في - الخديو وفي حياة مصر كلها دورًا خطيرًا ، أثناء الأزمة المالية الطاحنة ، التي أخذ بخراب البلاد . وانتهت بضياح استقلال مصر . وضياح مستقبل الأخوين ؛ فالأخ فقد عرشه . والثاني فقد حياته في مأساة مرعبة بعد أن تربع على خزائن الأرض عشرين سنين . أصبح خلالها الرجل الأول في الدولة - بعد الخديو ، والمتصرف الأوحده شئونها المالية والإدارية . حتى خلعوا عليه لقب « الخديو الصغير » أو الصاعظم المصري . .

لم يكن إسماعيل صديق - كما يتبادر إلى الذهن - من أبناء الطبقة الراقية التي كالبوزراء والحكام وقادة الجيش يُختارون منها ، وتضم بقايا المماليك من ترك وشركه وكرد وأرناؤود ، فضلاً عن شرادم الألبان الذين استقدمهم محمد علي . وجعل هؤلاء وأولئك أركان حكمه ، وأنعم عليهم بالأراضي التي صادرها من أصحاب المصريين . وإنما كان إسماعيل صديق من أبناء الفلاحين الذين فقدوا أرضهم وأصبحوا أجراء يعملون بالسخرة في الزراعة ، وحفر الترع وشق المصارف ، فهو - وصفه مؤرخ معاصر - ابن فلاح صعلوك الأصل طالما مُدَّ أجداده ، بل أبوه ذا تحت الكرباج ، وازرقت أرجلهم حتى دفقت دما من تعاقب السياط عليها .

* * *

والروايات التاريخية ، لا تقدم لنا تفسيراً معقولاً للظروف التي مكنت لهذا الفلاح المصري المعدم ، من اختراق حاجز الفقر والصعود إلى عالم الجاه والسلطان ، في وقت لم يكن يسمح فيه للمصريين بالخروج على النطاق المرسوم لهم . كل ما يذكر

المؤرخون أن الوالدة باشا - خوشيار هانم زوجة الوالى إبراهيم باشا - شعرت بجفاف ألبانها بعد ولادة طفلها إسماعيل . فسأقت إليها الأقدار فلاحه مصرية ، لتتولى إرضاع الوليد مع ابنها الذى أطلقت عليه اسم الأمير تبركا وتقربا . فنشأ الصبى فى دهايز القصور الخديوية . يتقلب فى أعطاف النعيم . وينهل من ينابيع العز . وكان من الطبيعى ، أن تنشأ بين الطفلين عاطفة مشتركة امتدت عبر السنين . فما إن تولى إسماعيل عرش الديار المصرية ، حتى أطلق يد أخيه يتصرف فى أمورها ، على هواه ومن حق القارئ العزيز أن يتوقع من هذا الفلاح أن يكون رفيقا بأهله وعشيرته رحيا بالطبقة التى ينتمى إليها أباه وأجداده . وفيما للبلد الذى خرج من طبيته ولكن العكس هو الذى حدث . فإذا بنا أمام فرعون صغير يبطش بالفلاحين ويتفنن فى تعذيبهم ، ويرغمهم على هجرة الأرض التى يزرعونها ، لتنتقل ملكيتها إلى أخيه الخديو حينا . . . وإلى ملكيته الخاصة حينا آخر . . . وكان الرجل يتمتع بقدر هائل من الدهاء ، حتى وصفه بعضهم بأنه لم يكن له مثيل بين رجال الذكاء والتفنن فى مصر . . . ولكنه - للأسف - لم يستخدم قدراته ، للتخفيف من ويلات الشقاء التى كان يعانىها أبناء وطنه . . . وإنما تحول إلى سوط عذاب ، حتى استطاع فى خلال السنوات العشر التى تولى فيها وزارة المالية ، أن ينافس أمراء البيت المالك فى ثرائهم وبذخهم وترفهم وسفهم . . . وعندما أوشكت شمس حياته على الغروب ، كانت ممتلكاته قد بلغت ثلاثين ألف فدان من أجود الأراضى العشورية . . . وثلاثة قصور فخمة تحيط بها الحدائق الغناء فى ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليا) ، عدا قصر بديع على ترعة المحمودية بالإسكندرية . تحتوى على أفخر الرياش والتحف . أما مجوهراته فقدرت بحوالى ٣٠٠ ألف جنيه إنجليزى بأسعار ذلك الزمن . وكان يمتلك حوالى ٣٠٠ جارية من مختلف الأصناف والأجناس . . . ولكن فى لحظة من لحظات الغضب الملكى . . . ضاع كل شىء . . .

شيخ المنسر

لم يكن اختيار الخديو إسماعيل ، لأخيه إسماعيل صديق باشا ، لمنصب وزير المالية مجرد إرضاء لعاطفة الأنخوة التى جمعت بينهما فى مرحلة الرضاع . وإنما كان الاختيار محسوباً بميزان المنفعة بين رجلين معدومى الضمير . كان إسماعيل الخديو فى حاجة إلى رجل متفنن فى السطو على الأموال وابتزازها بشتى الحيل . ولا تثريب عليه أن يقتطع لنفسه نصيب الثعلب ، ما دام أن نصيب الأسد مصون ومحفوظ . . . وكان إسماعيل صديق ، هو ذاك الرجل الذى يتمتع بمواهب جهنمية فى تدبير المال اللازم ، بأخس الوسائل لإرواء عطش الخديو ، حتى يواصل سياسته البلهاء فى البذخ والسفه والظهور أمام الأجانب بمظهر الفخفخة والعظمة . . . ولو كانت خزانة البلاد أطهر من قلب المؤمن . . !

فى ذلك الوقت كانت البنوك الأوربية قد أمسكت يدها عن إمداد الخديو بالقروض ، بعد أن لاحت عليه تباشير الإفلاس . فلم يعد أمامه إلا أن يستدير إلى الداخل . . ليفتك بالمصريين ويسطو على ما فى أيديهم من مدخرات قليلة جمعوها من شقاء العمر . . ولكن هذه العملية كانت فى حاجة إلى جيش كبير من زبانية السلطة ورجال الإدارة ، ليتعصبوا الفلاحين فى عقر دارهم ، ويستخرجوا ما لديهم من أموال عن طريق القمع والإرهاب . وكان إسماعيل صديق يملك هذا الجيش بحكم منصبه القديم كمفتش عام على عموم القطر . . من واجبه تعيين المحافظين والمديرين والمآمر وأتباعهم من العمدة والمشايخ . . فلما أصبح وزيراً للمالية وقعت الطامة الكبرى ، إذ جمع فى يده كل الخيوط التى تمكنه من تنفيذ سياسته الجهنمية . وبدأ (المفتش) ، ومن ورائه جهازه الإدارى ، مثل (شيخ منسر) ، يحيط على قرى مصر فيسلبها المال والزاد . . ولا يتركها إلا قاعاً صفصفاً تضيح بالأنين . .

وفى سبيل ابتزاز أموال الفلاحين ، تفتق ذهن المفتش عن أساليب لا تقل انحطاطا عن أساليب الخوافة ولاعبى الورقات الثلاث . . من ذلك ، أنه كان يبيع المحاصيل الزراعية للمرايين الأجانب وهى لا تزال شجيرات خضراء فى الحقول ويتعهد بتسليمها لهم بعد جنى المحصول . فإذا حل الموعد قامت الحكومة ببيع المحصول لتجار آخرين وقبضت الثمن . . فإذا احتج الأجانب إلى قناصلهم ، تولى (المفتش) تعويضهم بأن يشتري منهم المحصول الذى باعه لهم (على الورق) بسعر أعلى من السعر الأول ، مضافا إليه فائدة ٢٠٪ . . كل ذلك من أجل إرضاء نزعة الخديو المدمرة وحاجته المستمرة إلى المال . . فلما ضاقت السبل أمام الخديو للحصول على مصدر جديد للمال ، ابتكر له المفتش وسيلة غريبة ، تتلخص فى إجبار الفلاحين على دفع ضريبة الأقطيان لمدة ست سنوات مقدما ، مقابل الإعفاء من نصف الضريبة إلى الأبد . . وهو ما يعرف بقانون (المقابلة) . وكان الفلاحون يعرفون أن عهود الحكومة حبر على ورق ، وأنها مجرد حيلة لإرغامهم على تقديم الأموال إلى الخديو الجشع . . ومن يمتنع يتكفل الزبانية بتأديبه ، حتى يتعلم أن العين لا تعلق على الحاجب . . وأن الماء لا يجرى فى العالى . . وأن مشيئة الملوك لا ترد . .

* * *

والجرائم التى ارتكبتها (المفتش) أكثر من أن تحصى . ولكن أعظمها من وجهة نظر الوطنيين المصريين ، هى إيعازه إلى أخيه الخديو ببيع نصيب مصر فى أسهم شركة قناة السويس . . وكان هذا النصيب يفارب النصف . . مقابل مبلغ يقل عن أربعة ملايين جنيه . . وهو الذى فاوض القنصل البريطانى فى الصفقة . . وهو الذى وضع خاتمه على الأسهم قبل أن يتسلمها القنصل ، ويودعها قاع سفينة كانت فى طريقها إلى إنجلترا . وكانت تلك بداية الطريق المشتوم الذى انتهى بضياع استقلال مصر المالى ، وخضوعها للإشراف المباشر من جانب الحكومة البريطانية . . وكانت صفقة الأسهم آخر سهم فى جعبة الوزير المحتال ، ولكنها كانت آخر مسار فى نعشه . فما إن وصل الخبراء الإنجليز إلى القاهرة لإصلاح مالية مصر ، حتى كان أول مطالبهم إقصاء المفتش عن منصبه الخطير ، وتحير الخديو إسماعيل ، ووجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مر . . ولكن كان عليه أن يضحى بأخيه كى ينجو بنفسه .

سقوط فرعون

كانت مصر بكل طبقاتها - فقراء وأثرياء وأمرء - تغلى بالنقمة على إسماعيل صديق باشا (المفتش) ، ويتحينون الفرصة للفتك بهذا الجبار الذى يتحكم فى مصائر البلاد والعباد . ويختلس من الأموال ما ينوء بالعصبة أولى القوة .

كان مثل هامان فى طغيانه وسطوته واستهتاره . . وكان أشبه بقارون فى جشعه وطمعه وزهوه . . وكما سقط هامان وقارون وفرعون . . كان لابد أن يسقط المفتش ويلقى نفس المصير الذى لاقاه الطغاه والجبابرة . . فلا نفعتهم أموالهم . . ولا هم أفادتهم عزتهم . . وإنما مضوا غير مأسوف عليهم . . لم يخلفوا وراءهم إلا أسوأ الذكريات .

ومع أن النصيب الأكبر من أذى المفتش وقع على عاتق الفلاحين المصريين : إلا أنهم بحكم ضعفهم التاريخى كانوا أقل قدرة على زحزحة الرجل عن موقعه العتيد . وتكفلت جبهة الأمراء العلويين بالقيام بهذه المهمة العويصة ، لأسباب لا تمت بصلة إلى المظالم التى عاناها المصريون . . وإنما لاستثثاره دونهم بالأسلاب والمغانم . . وجراته على منافسته لهم - وهو الفلاح الجلف - فى حياة البذخ والنعيم . . وتفوقه عليهم فى بناء القصور واقتناء الجوارى والمحظيات . . وكان أكثر الأمراء حقدًا عليه أبناء الخديو الثلاثة : توفيق وحسين وحسن . . الذين ساء لهم قرب الرجل من أبيهم وحظوته عنده . . ودلاله عليه . . غافلين عن رسالته العظمى فى النصب والاحتيال والسطو والابتزاز لتوفير المال لأبيهم . . كانوا ينظرون إلى قضية المفتش من زاوية ضيقة جدا . هدفها إقصاء الغرباء عن ولى النعم . . أما الخديو فكان يهمل هذه الدسائس الصغيرة ولا يقيم لها اعتبارًا .

أما الخطر الأكبر على مصير المفتش ، فقد جاءه من جانب الإنجليز الذين بات من حقهم الهيمنة على مالية مصر ، بمقتضى مرسوم أصدره الخديو إسماعيل لحماية مصالح الدائنين الأجانب ، وأعلنت الرقابة الثنائية من إنجلترا وفرنسا . . فتولى الرقيب الإنجليزى الإشراف على إيرادات الدولة . . وتولى الرقيب الفرنسى الإشراف على مصروفاتها . . وكان الرقيب الإنجليزى « جوشن » يضمّر عدااء شخصيا للمفتش لأسباب قديمة . . فما إن بدأ يقلب فى الدفاتر ، حتى اكتشف أنه ليست هناك ميزانية حقيقية !! وإنما المسألة لا تعدو أن تكون « ضيعة » خاصة يتحكم فيها الخديو وأخوه . . وأن الأخوين « إسماعيل » ليسا أكثر من لصين يقتسمان الأسلاب . . ولذلك رأى أن يبدأ بإزاحة أصغر اللصين . . ولم يكن من اليسير على الخديو أن يستجيب لهذا المطلب . . لأنه يعرف جيدا أنه شريك أصيل فى كل ما ارتكبه المفتش من جرائم وكوارث . . وإذا كان الإنجليز يتغدون بالمفتش عند الظهر فسوف يتعشون بالخديو فى المساء . . فامتنع عن طرده ، عندئذ هدد الإنجليز بتقديم المفتش إلى المحاكمة بتهمة اختلاس ٤٠ مليون جنيه وجدوها فى الدفاتر . . وهنا فقط اقتنع بجدوى اختفاء المفتش ، من الحياة كلها ، وليس من الوزارة فحسب . . كان يعلم أن أخاه لن يتورع عن كشف كل الأوراق ، وفضح المستور . . وإظهار حقيقة الخديو الذى تسبب فى تخريب بلده ووضعه فى هاوية الإفلاس .

ونسى الخديو كل ما فعله أخوه من أجله . . ولم يفكر إلا فى النجاة بنفسه . ولعلت فى ذهنه على الفور فكرة التخلص من الرجل الذى أفنى حياته فى جمع المال الحرام ، وبنى مجده على أشلاء البؤساء والمعذبين ، ولم يغادر الحياة إلا وقد هوى مجده . . كأنه قبض الريح .

ذو الأصابع الفولاذية

كان الخديو إسماعيل قد اتخذ قراره النهائي بالتخلص من أخيه في الرضاع إسماعيل صديق باشا (المفتش) ، قبل أن يفلت لسانه ويفضح المخازى التى ارتكبها الاثنان ، وتسبب فى خراب خزانة مصر . . وتم ترتيب وسيلة الإعدام على النحو الذى كان متبعاً فى ذلك العصر . . ففى صباح اليوم الموعود ، استدعى الخديو أخاه المفتش إلى قصر عابدين ، ليصحبه فى نزهة خلوية على ضفاف النيل . . وركب الاثنان العربة الخديوية المكشوفة على مرأى من الجميع ، وهما يتصاحكان . . وقد اعتبر المفتش هذا الرضاء السامى أكبر دليل على كذب الشائعات التى ترددت عن قرب نهايته وعبرت المركبة كوبرى قصر النيل فى اتجاه قصر الجزيرة (فندق ماريوت حالياً) . فلما توقفت أمام بوابة القصر ، تقدم الحرس فألقوا القبض على المفتش ، وساقوه إلى الداخل وهو يصيح مستغيثاً بأخيه الذى عاد وحده إلى قصر عابدين .

واستدعى الخديو المجلس المخصوص (أشبه بمجلس الوزراء) ، واستصدر منه قراراً بإبعاد المفتش إلى دنقله بالسودان .

وحمل مصطفى باشا فهمى محافظ القاهرة (والد السيدة صفية زغلول) ، القرار ومضى إلى قصر الجزيرة ، لإبلاغه إلى المفتش وإقناعه بالتزام الهدوء والصمت . . ولكن المفتش الذى تربى فى أحضان الدسائس والمؤامرات كان يعلم جيداً أن قرار إعدامه على وشك التنفيذ . . وعبثاً حاول إقناع المحافظ بخطر التخلص منه باعتباره حاملاً لرتبة « المشير » العثمانية ، التى تحول دون محاكمة حاملها إلا فى الأستانة . . ولكن متى كان الباب العالى يأبه لمثل هذه المؤامرات التى تجرى كل يوم فى القصور

الملكية ؟! وبعد قليل صعد المفتش بصحبة المحافظ إلى سفينة نيلية كانت في انتظارهما ، وألقى الحرس بالمفتش في إحدى غرف السفينة التي أقلمت باتجاه الجنوب . . بينما بقي المحافظ على ظهر السفينة في انتظار تنفيذ عملية الإعدام بواسطة إسحق بك . . وكان رجلا تركيا متخصصا في الإجهاز على ضحاياه بطريقة فطيرة . . فقد كان يملك قبضتين فولاذيتين ، فيهجم باليسرى على فم الضحية ليكتم أنفاسه بينما يقبض باليمنى على الخصيتين فيعتصرهما اعتصارًا حتى يلفظ أنفاسه .

* * *

وما إن عبرت السفينة مقياس الروضة ، حتى تقدم إسحق بك لتنفيذ مهمته . . فدخل على المفتش ، وهو قابع في ركن الغرفة كالفأر المدعور . . فقام بمهمته خير قيام . . ولم يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق ، ظن بعدها إسحق بك أن المفتش قد أسلم الروح . فمد يده لانتزاع الخاتم الذهبى الذى يضعه المفتش في سلسلة ذهبية تحيط بعنقه .

ولم يعلم أن في جسد الرجل بقية من حياة ، انتهزها للانتقام من قاتله . . ففتح فمه كسمك القرش ، وقضم أصبح إبهام إسحق بك حتى قطعه تماما . . وكانت تلك آخر انتقضة في جسد المفتش . . سكن بعدها إلى الأبد . . وعندها تقدم بعض الحرس ووضعوا جثته في جوال غليظ ومعه أحجار ثقيلة ، ثم ألقوا به في النيل حتى استقر في القاع . . عندئذ توقفت السفينة أمام ساحل المعادى ونزل المحافظ مصطفى باشا فهمى ، حيث كانت في انتظاره عربة خديوية حملته إلى قصر عابدين ليحمل إلى مولاه خبر نهاية المفتش . . بينما واصلت السفينة طريقها إلى السودان . . وهى ترسل إلى القاهرة كل حين برقيات مكذوبة تنشرها الصحف عن حالة المفتش الذى لا يكف عن البكاء وطلب الصفح . . وشرب الخمر .

وبعد أسبوع من وصولها إلى دنقلة ، تطوع طبيب إنجليزى أفاق بكتابة تقرير يزعم فيه أن المفتش قد مات متأثرا من انفجار الزائدة الدودية . . وأنه سمح بدفنه بعد أن وقع الكشف الطبى عليه . . ولم تحجل الصحف من نشر هذا الخبر المكذوب . . وكان الناس يقرءون الصحف ويتسمون . . وكان الناس فى ذلك العهد نادرا ما يتسمون .

نوبار باشا

ربما لا يعلم كثيرون من المصريين أن أول رئيس للوزراء في تاريخ مصر المعاصر كان رجلا أرمنيا مسيحيا هو نوبار باشا ، الذى لا يزال اسمه قائما على أحد الشوارع الرئيسية بوسط القاهرة ، وعلى إحدى الترع الكبيرة بمحافظة البحيرة . . وكان نوبار أحد ثلاثة « رجال دولة » برزوا في عصر الخديو إسماعيل . وكان لهم دور مؤثر في مجرى الأحداث طوال النصف الثانى من القرن الماضى . . والآخران هما : شريف باشا « أبو الدستور » ، ورياض باشا « نصير الاستبداد » . . وسوف أتحدث عن الثلاثة بدءا بنوبار لأنه كان أسبقهم ظهورا على مسرح السياسة والحكم . . وأكثرهم إثارة للدهشة والتساؤل : إذ كيف تسنى لمثله أن يكون أول رئيس للوزراء ، رغم الفروق الدينية والجنسية ؟! وفي وقت كان الاعتبار الدينى يوضع فى المقام الأول . . ولكن الدهشة تزول ، إذا عرفنا أنه من مواليد « أزمير » بتركيا . . أى أنه كان عثماني الجنسية ، الأمر الذى فتح أمامه الباب للدخول فى نسيج الحياة المصرية ، والصعود إلى القمة من خلال نظام لا يعترف للعناصر الوطنية المصرية بحق المشاركة فى شئون الحكم أو تولى المناصب القيادية فى الدولة .

* * *

كان محمد على - برغم الخدمات الجليلة التى أداها لمصر - تركى النزعة . . وينطوى على ازدراء لكل ما يمت إلى المصرية الصميمة بصلة . . وورث عن قومه كره اللغة العربية - لغة الفلاحين - فحكم مصر - ولم يكلف خاطره تعلم العربية أو جعلها لغة الدواوين أو تعليمها أحدا من أبنائه . . وعاش ومات وهو يتكلم بالتركية . وحاكم هذا وصفه ، كان من الطبيعى أن يغض النظر عن العناصر

المصرية ، ويحتضن العناصر التركية حتى لو كانت غير تركية أصلا . . . ويكفى أن تتكلم التركية وتنتمى ، ولو شكلا ، إلى الدولة العلية . . . وكان (بوغوص بك) أحد هذه العناصر التى استفادت من التقاليد التى وضعها محمد على ، لشغل مناصب الدولة المصرية . . . فهو من الأرمن الذين يكرهون العثمانيين كراهة التحريم . . . ولكن إتقانه للغة التركية فتح أمامه السبيل للترقى فى مناصب الدولة ، حتى أصبح الوزير المقرب من ولى النعم . . .

وكان نوبار - ابن أخت بوغوص بك - قد تخطى مرحلة الصبا فى أزمير ، وذهب إلى فرنسا ليستكمل تعليمه . . . واعتزم الانخراط فى الجيش الفرنسى . . . ولكن خاله نصحه بالمجئ إلى مصر ليحرب حظه فيها ، بشرط أن يتعلم التركية . . . فاستجاب لنصيحة خاله ، ثم جاء إلى مصر ، فألحقه بقلم الترجمة . . . وما هى إلا عشية وضحاها حتى كان ضمن حاشية محمد على الذى عينه سكرتيراً خاصاً لابنه إبراهيم فلازمه فى كل جولاته . . . واكتسب ثقته وثقة بقية الحكام من أسرة محمد على . . . الذين عمل فى خدمتهم ، إلى أن مات عام ١٨٩٩ فى عهد عباس حلمى الثانى .

* * *

والمؤرخون الذين تحدثوا عن نوبار ، يقولون إنه كان يتمتع بصفات مميزة . . . أهمها الجدية والجلد والكبرياء والأنفة والعزوف عن اللهو والمجون . . . والامتناع عن نفاق الحكام وإرضاء نزعاتهم بالغش والخداع . . .

هذه صفات ، يصعب على صاحبها أن يحافظ على موقعه فى ظل حكام شرقيين يتصفون بالمزاجية والتقلب والبطش بأقرب معاونيهم . . . فكيف استطاع نوبار أن يحافظ على وجوده فى موقع الصدارة دون أن يفقد رأسه ؟

البعض يفسر ذلك بأن نوبار كان يعرف اتجاهات الرياح . . . فلما أدرك أن شمس إسماعيل توشك على الغروب . . . وأن خيوط الحكم سوف تنتقل حتماً إلى أيدي الإنجليز . . . تخلص عن سيده ولجأ إلى لندن يخرض الحكومة البريطانية على تأديب إسماعيل ، وتقييد سلطاته المطلقة عن طريق وزارة مسئولة متحررة من سيطرة الخديو وكانت وجهة نظر نوبار أنه لا أمل فى إصلاح الخراب الذى تسبب فيه إسماعيل إلا

بالحجر عليه وتقييد حكمه المطلق . . وتلاقت أفكار نوبار مع رغبات إنجلترا التي كانت تعمل على توطيد وجودها في مصر عن طريق المشاركة في الحكم وبسط نفوذها على الشؤون المالية .

* * *

ولم يكن نوبار يمانع في مشاركة الإنجليز في الوزارة المصرية المقترحة . . بل كان يؤيدها ويرر ذلك بأن المشاركة هي السبيل الوحيد لضمان استقلال مصر . . ومن الطبيعي أن يستفز هذا التبرير المشاعر الوطنية . ولكن نوبار كان يعيش العصر الذي لا يعترف بحق المصريين ، ويرى أنهم غير أكفاء في تحمل المسئولية أو - على أبسط الفروض - غير قادرين على مواجهة الحكم المطلق الذي يمثله إسماعيل . . فكان عليه أن يؤدب إسماعيل بالعصا الإنجليزية . . وخضع الخديو لأوامر الإنجليز وأصدر أول « دكريتو » بتشكيل الوزارة المصرية ، برئاسة نوبار باشا ، وتضم خمسة وزراء . . منهم وزير إنجليزى للمالية ، ويراقب الإيرادات ووزير فرنسى للأشغال ويراقب المصروفات . . وبعد عشرة شهور فقط كان الخديو يغادر مصر طريداً منفياً . . وبقي نوبار ليواصل المشوار الذي اختطه لنفسه ، منذ كان صبياً يلعب في حوارى أزمير .

نيللى .. وتوابعها

لا يكتمل الحديث عن نوبار باشا دون الحديث عن الأرمن . . وخاصة الجالية الأرمنية التى استوطنت مصر . . وأصبح لها وجود بارز فى بعض نواحي الحياة المصرية الحديثة . .

والأرمن شعب عريق . . كان لهم فى التاريخ القديم دولة كبرى تسمى مملكة أسيا الصغرى . تنسب الأساطير تأسيسها إلى (حايك) من سلالة نوح . . ولكن دولة الأرمن لم تستمر طويلا ، بسبب الحروب والهجمات التى طوقتها من كل جانب . . وإذا كانت بعض الدول قد تفسخت وذهبت ضحية موقعها . . ووقوعها فى بؤرة الصراع بين القوى العظمى - فإن دولة الأرمن كانت من هذه الدول التى أدركتها لعنة الموقع . فتناوبت عليها جيوش الآشوريين والميديين والفرس واليونان والرومان . . وجعلوا منها ساحة للصدام . . حتى إذا بلغ الأتراك العثمانيون أوج قوتهم ، أجهزوا عليها وضموها إلى إمبراطوريتهم . . وبعد الثورة البلشفية ، وضع الروس أيديهم على ما تبقى من بلاد الأرمن ، وجعلوا منها إحدى الجمهوريات السوفيتية التى لا تزال تحمل اسم « أرمينيا » .

وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الكوارث إلى هجرة الأرمن من ديارهم ليبدءوا عصر الشتات والانتشار فى العالم . . ولكنهم ظلوا دائما محافظين على قوميتهم ولغتهم وديانتهم ومذهبهم . . يحملون معهم أينما ذهبوا ذكريات العز القديم . والتطلع إلى اليوم الذى يستعيدون فيه مجدهم الغابر . . فهم يعيشون فى المجتمعات الجديدة حياة (الغربة) بكل ما تعنيه من لوعة القلق والخوف من المجهول . . يختلطون ولكن لا يمتزجون . . ويعملون بجهد ونشاط دون الدخول فى نسيج الحياة الجديدة أو التورط فى تعقيدات الاجتماعية والسياسية .

وكانت مصر إحدى الدول التي اجتذبت الأرمن ، منذ أواخر القرن الماضي . . .
ولكن أفواجهم زادت بعد المذبحة الرهيبة التي شنها الأتراك ضدهم عام ١٩١٥
وراح ضحيتها مليون ونصف المليون أرمني (وهذا يفسر لك سر العمليات الانتقامية
التي تقوم بها منظمات أرمنية ضد السفارات التركية) . . . وشق الأرمن طريقهم في
المجتمع المصري في وقت ارتفع فيه شعار « مصر للمصريين » بعد ثورة ١٩١٩ . .
ولذلك حرص الأرمن على عدم مزاحمة المصريين في الوظائف الحكومية ، أو تملك
الأرض الزراعية . . . واتجهوا إلى الأعمال الحرة التي تعتمد على القدرات الخاصة
والمواهب المتميزة ، كالموسيقى والرسم والتصوير ، فائقوا صناعة الآلات الموسيقية
وتكوين فرق الجاز وكتابة النوت . . . وكلنا يذكر « أندريه رايدر » الذي تخصص في
توزيع الموسيقى لكبار الملحنين كعبد الوهاب . . . وفي مجال الرسم كان لهم باع طويل
في تطوير فن الكاريكاتير . . . ومن يطالع صحف الثلاثينات ، سيجد رواد هذا
الفن من الأرمن ، وأبرزهم « صاروخان » الذي يحمل اسم مدينة أرمنية شهيرة .

وعلى أكتاف الأرمن ، نهضت بعض الصناعات المحلية . . . ليس أهمها البسطة
والسجق كما يحلو للبعض أن يتندر . . . ولا ننسى صناعة الزيوت والسجائر والدخان
التي أنشأها ماتوسيان وكوتاريلى وكاسيمس . . . وفي وقت ما كان أشهر التزنية
ومصممى الأزياء ومصنفى الشعر من الأرمن . . . وكذلك محلات بيع الأدوات
الكهربائية مثل نرسييس تشاكجيان الذي يقع في ميدان العتبة .

* * *

وتتركز الجالية الأرمنية في حى الظاهر بالقاهرة ، ولهم نواديهم الرياضية النشطة
ولهم كنيستهم الخاصة على المذهب الأرثوذكسى . ولهم مدارسهم التي تعنى بتعليم
أبنائهم لغتهم . . . وهى لغة عريقة من فصيلة اللغات الهندو أوروبية . . . ولا يتحدث
بها غيرهم . . . فهى عامل من عوامل الحفاظ على الشخصية القومية وحمايتها من
الدوبان ، رغم توالى العصور وتناثر الديار .

ولكن هذا الاستقلال الباطنى ، لم يمنعهم من التغلغل في المجتمع المصري . .
والتأثر بالروح المصرية والتعبير عنها بالرسم والموسيقى والأغنية والتمثيل . .
خصوصا عند الأجيال الحديثة التي ولدت في مصر وتشربت روحها واكتسبت عاداتها

وتقاليدها . . ولعل أوضح مثال لذلك مجموعة الفنانات : نيللى وتوابعها (أختها الكبرى فيروز وبتى خالتيها لبلبة وميمى جمال) وكل منهن ، برعت فى التعبير عن الروح المصرية بدرجة يصعب معها اكتشاف الحاجز الرقيق بين القومية المستكنة فى الأعماق ، والروح المصرية المكتسبة . . وهذا الكلام ينطبق بالطبع على السلالات الأرمنية الجديدة التى امتصت الواقع المصرى وتطبعت به .

وإذا كان نوبار باشا - رأس الشجرة الأرمنية فى مصر - قد عاش طيلة حياته فى مصر غريبا عن روحها ، يجهل لغتها ويأنف من الاختلاط بأهلها - فإن الأجيال الأرمنية الجديدة ، اندمجت فى الحياة المصرية عن طريق الزواج والتعليم والمعايشة اليومية . . وباتت جزءا من المجتمع المصرى الذى توافدت عليه عناصر متنوعة من شتى الأجناس على مختلف العصور . . فلم يلفظها ما دامت قد امتزجت به . . وإنما يهضمها . . ثم يعيد تشكيلها على نسق فريد . . وذلك أحد أسرار الروح المصرية الأصيلة .

ميرابو .. مصر

اشتهر « ميرابو » في تاريخ الثورة الفرنسية بصيحته الجريئة التي ألقى بها في وجه جنود الملك حين اقتحموا مجلس طبقات الأمة لطرد النواب دون أن يناقشوا القضايا المصرية التي كانت بين أيديهم . عندئذ صاح ميرابو : إننا هنا بإرادة الشعب . . ولن نخرج إلا على أسنة الرماح . . ! وأصبحت هذه العبارة من مفجرات الثورة . . فبعدها تعاقبت الأحداث الدرامية التي شهدتها فرنسا خلال ثورتها الكبرى .



وبعد ٩٠ عاما من هذه الواقعة ، كان في القاهرة نائب شجاع قال نفس العبارة في موقف مشابه تماما . . كانت البداية التي توالى بعدها فصول الثورة العربية . أما النائب - واسمه عبد السلام المويلحي - فقد كان يمثل طليعة المعارضة الوطنية التي برزت في مجلس شورى النواب ، الذي أنشأه الخديو إسماعيل عام ١٨٦٦ ضمن خطته الرامية إلى إشراك المصريين في المسئولية ، وكانت الحكومة المصرية برئاسة نوبار باشا ، وتضم وزيرين أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى . تعد العدة لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية . وعلمت العناصر الوطنية في مجلس النواب بما تدبره الحكومة في الخفاء ، فأعدوا مشروعا مضادا ، يلتزم بمقتضاه المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومى ، بشرط تنظيم الشئون المالية . وإصلاح مفاصل الإدارة بعيدا عن تدخل الوزيرين الأجنيين . . وشعرت الحكومة بما تعده المعارضة الوطنية ، فبيّنت النية على إجهاض المشروع . واستصدرت مرسوما خديويا برفض المجلس قبل مواعده .

وفي صباح الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ توجه رياض باشا ، وهو منتفخ الصدر

إلى قاعة مجلس النواب بالقلعة . . وما كاد يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة ، حتى انبرى له النائب الجريء عبد السلام المويلحي قائلاً : كيف ينفض المجلس ، وهو لم ينظر بعد في القانون الخاص بالشئون المالية . . ؟ ! إن الأهالي قد أنابوا عن أنفسهم نواباً للمحاماة عن حقوقهم . . فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالي على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه . . ومن المستحيل أن ينفض المجلس . . ويهت رياض باشا لهذه اللهجة التي لم يتعود سماعها من مصرى ينتمى أبوه إلى طائفة التجار . . فقال متسائلاً : ماذا تقول حظرتكم ؟ مستحيل فض المجلس . . ؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلاً بعد أمر خديوينا المعظم . . هل حظرتكم فاهم قيمة مسئولية ما تقوله ؟

واتجه رياض باشا إلى بقية الأعضاء لتخويفهم ، حتى لا ينضموا إلى هذا النائب الجريء ، وقال : ما أظن حضرات إخوانك يوافقون على ما تقول . .

* * *

وكانت المفاجأة الثانية ، عندما اندفع الأعضاء الوطنيون لشد أزر زميلهم وأعلنوا تضامنهم معه في كل ما يقول . . وهم رياض باشا بالقيام بإيدانا بإنهاء الجلسة . . وعندئذ صاح عبد السلام المويلحي قائلاً : إننا هنا سلطة الأمة . . ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب . . ١١

عندئذ وجم رياض باشا ، لدى سماعه هذه العبارة التاريخية التي أعادت إلى ذهنه أحداث الثورة الفرنسية ، فعاد إلى مقعده صائحاً : يعنى حظرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم . . ؟ يعنى حظراتكم الآن بعمائمكم وجيبكم مثل نواب أوربا وأمريكا . . ؟

ورد النواب الإهانة بعشرة أمثالها . . وصاح أحمد العويسى : ياباشا أنت الآن تشتم نواب أمتك التي تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية ، وقال عبد الشهيد بطرس : إن كلامك هذا وقاحة . . والمجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه . وقال أحمد الصوفانى : أوافق العضو على رد الإهانة للناظر حتى يعلم أن في البلاد أمة حية ولها نواب يدافعون عن كرامتها . . وهنا قال عبد

السلام المويلحي : أسمعت يا باشا . . ١٢ رأيت عاقبة تسرعك في الكلام ؟ اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب . . بل مسألة نواب لهم عقول تفهم جيداً رغبات الأمة التى أنابتهم عنها . . أليس من العيب ، وأنت وزير فى وزارة يزاملك فيها وزير إنجليزى وآخر فرنسى . . وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة . . . ثم تجمع أمس - أمام الوزيرين الأجنيين - أصحاب الجرائد وتقول لهم : إن الحكومة عزمت على فض مجلس شورى النواب غدا ، فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج . . تقول ذلك عن نواب بلادك . . مصر العزيزة . . ونحن جميعا درسنا فى الأزهر الشريف .

فقال الشيخ حسن عبد الرازق : إن ما قاله المويلحي يعبر عن أفكارنا جميعا . . فصاح النواب : موافقون . . موافقون . . فلم يملك رياض باشا إلا أن يغادر قاعة المجلس وهو يهذى : إذن أنا منسحب . . أنتم عصاة . . أنتم ثوار . فقال المويلحي موجهها كلامه إلى كاتب الجلسة . لا تحذف حرفا واحدا مما قيل فى جلسة اليوم ، حتى إذا نقلته الجرائد غدا ، علمت الأمة جميعا من هم الهمج : النظار . . أم النواب . . ١١

واستجاب النواب لطلب المويلحي باعتبار المجلس فى حالة انعقاد دائم . . وتناوب الأعضاء على المبيت فى القاعة . . حتى اهتزت أركان الحكومة فاستقالت . . ثم توالى الأحداث التى أفضت إلى الثورة . .

أبو الاستبداد

كان أول مطلب للعراقيين - يوم تظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر ١٨٨١ - عزل رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا ، لما يمثله من نزعة استبدادية ، وميل للحكم المطلق ونفور من الدستور وكل ما يمت إلى الحياة النيابية والحقوق الشعبية بصلة . ويتفق المؤرخون على أن وجود رياض باشا على رأس الحكومة آنذاك ، كان من المسببات المباشرة للثورة العراقية . فمن يكون الرجل الذى كان سببا في قيام ثورة ؟

تختلف الأقوال حول نشأة رياض باشا . . فالكتاب الغربيون يزعمون أنه من أصل يهودى أناضولى ، ويستدلون على ذلك بملاححه ولهجته ومظهره . . فقد كان قصير القامة محنى الكتفين له صوت يشبه الصرير ، ولكن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ينقض هذه المزاعم . ويرجع بنسب رياض باشا ، إلى أسرة مصرية مسلمة هى عائلة الوزان . ويقول إن أباه كان ناظر (الضربخانة) دار سك النقود . وجده هو حسن الوزان ، كبير الحكومة المصرية الذى مات سنة ١٧٠٩ .

ولكن المؤرخين لم يختلفوا حول النزعة الاستبدادية التى كانت من المكونات الأساسية في شخصية رياض ، الأمر الذى انعكس على مجرى الأحداث ، التى شهدتها مصر طوال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . . وهى الفترة التى تبلور فيها الصراع بين الحكم المطلق الذى يمثله الحكام . وتطلع الشعب إلى الحرية والمشاركة في تقرير مصيره . وكان رياض باشا من طراز الباشاوات الأتراك القدامى الذين كانوا ينظرون إلى الشعب بعين الزراية ولا يعترفون له بحقوق على شئون الحكومة .

فاللورد ملنر يصف « رياض » بالغلظة والصرامة والعنف . . « لا يتأثر بأى مؤثر

عاطفى أو شعور إنسانى . . ليس لأنه معدوم الشفقة بعامة الناس . . ولكن لأن الشفقة لديه ، تشبه ما كان يشعر به منها خير أصحاب الإقطاعات فى العصور الوسطى نحو تابعيهم . . يتطرف فى الغلظة إلى حد السجاجة . . ليس فقط فى معاملته لمرءوسيه ، بل فى معاملته لأقرانه فى الرتبة والمكانة . . يطالب الجميع باحترام شخصه احتراماً ، لا يرى ذاته مستعداً لمقابلة الغير بمثله . ومع أنه كان إدارياً حازماً وناجحاً ، إلا أنه كان ذا كفاءة غريبة فى إثارة عداوة الناس له . . ما إن يترجع على كرسي الوزارة ، حتى يتحول إلى « قنفذ » كله شوك ينفر منه الخاصة والعامة » .

وهذه الأوصاف ، يؤكد بها الرافعى بقوله إن من أبرز صفات رياض باشا التعاظم والكبرياء والزراية بالشعب . . يأنف من كل نصيحة ، لأنه لم يكن يرى نفسه فى حاجة إلى استشارة النصحاء . ويعزو الرافعى نزعة رياض الاستبدادية إلى ضالة حظه من التعليم . . فهو لم يتلق تعليماً عالياً ، ولم يقف على مآثر الثقافة الأوروبية ، مثل شريف باشا ، بل كان نصيبه من العلم مجرد قشور اقتبسها بذكائه الفطرى ومرانه وقوة ذاكرته ، فظل محدود الفكر .

وهذا التفسير من جانب الرافعى ، ليس دقيقاً فى تبرير الاستبداد . فالتعليم ليس فى كل الأحوال عاصماً من الطغيان ، والثقافة ليست فى جميع الظروف صنواً للحرية والديمقراطية . . وقد رأينا فى تاريخنا القريب سياسيين بلغوا أعلى مراتب التعليم والثقافة ، ومع ذلك كانوا معاول هدم فى النظام الدستورى ، مثل إسماعيل صدقى وعلى ماهر ، ومحمد محمود . . وفى المقابل نجد رجالاً حظهم من التعليم ضئيل كعبد الله النديم - وكان عشقهم للحرية وإيمانهم بحقوق الأمة فوق الشك والريبة .

وفى تصورى أن رياض باشا كان ابن عصره ونتاج البيئة التى نشأ فيها . . وهى بيئة كانت تسمى الظن بجموع المصريين ، وترى أن مصلحتهم فى بقائهم تحت وصاية الحكماء والعقلاء والعباقر . . كان الرجل ينتمى إلى مدرسة الحكم المطلق التى تعطى كل السلطات لولى الأمر ، ليتصرف فى شئون الرعية وفق إرادته ، وتضع الشعب فى مرتبة التلاميذ المفروض عليهم السمع والطاعة للحاكم ، والخضوع لرئيس « النظار » ، وهى الصفة التى كانت تطلق على رئيس الوزراء وقتئذ .

وليس معنى ذلك ، أن شخصية رياض باشا ، كانت مجمع النقائص والردائل

أو خلوا من الفضائل ، ، فمثل هذا الحكم يتنافى مع الطبيعة البشرية . . فضلا عن منافاته للواقع والتاريخ . . فقد كان الرجل إداريا حازما . محبا للعمل . يمتاز بالنزاهة والاستقامة والتعفف عن الرشوة . وهى صفات تستحق التقدير فى نظام جعل من الرشوة حقا مشروعاً . . غير أن أهم مآثر الرجل ، أنه استطاع خلال وزارته التى سبقت الثورة أن ينجز أعمالا جليلة ، فقد ألغى السخرة ، وأبطل الضرب بالكرباج فى تحصيل الضرائب ، ووضع نظاما دقيقا لجمع الأموال الأميرية على أقساط محددة ، بعد أن كان الفلاحون يضطرون إلى بيع محاصيلهم بأبخس الأثمان لتسديد مستحقات الدولة ، وقرر توزيع مياه الري توزيعا عادلا ، وألغى نحو ٣٠ ضريبة صغيرة كانت ترهق صغار الفلاحين ، وفى مقابلها قرر زيادة الضريبة على كبارهم ، لكى يتحقق بعض العدل بين الطبقات . . واستصدر قرارا بأيلولة قصور الخديو المخلوع (إسماعيل) وأفراد عائلته إلى ملكية الدولة .

ومع الاعتراف بأهمية أعمال رياض باشا ، فإن المصريين لم يستريحوا إليه واستثقلوا عهده ، لأنه كان يتعامل معهم من برجه العاجى ، فبدت أعماله وكأنها صدقة من محسن كبير . . وفشل الرجل فى التعامل مع الجماهير لأنه لم يكن يؤمن بشئ اسمه الجماهير !

الأرستقراطية الحديثة

إن ظاهرة المتمصرين ، الذين أحبوا مصر وخدموها بصدق وإخلاص تستحق التسجيل . . . وهى تؤكد أن الولاء لمصر ليس مجرد كلمات جوفاء تتردد فى الأغاني والخطب والمقالات . . . ولكنه إحساس مستقر فى الضمائر والقلوب ويتجسد فى الأعمال والتصرفات . . . إن الفترة التى نؤرخ لها شهدت صراعا حادا بين جموع المصريين المتطلعين إلى العدل والحرية ، وجحافل الأجانب الذين تكالبوا على مصر يمتصون دمائها ويسرقون أقواتها . . . ومن خلال الصراع ، ظهرت نماذج رائعة لرجال أفذاذ ، ارتفعوا فوق العصبية ، وانتصروا لمبادئ الحق والعدل ، ووقفوا إلى جانب المثل الإنسانية العليا ، رغم حداثة عهدهم بالتراب المصرى . . . فى هذا الصدد نذكر محمود سامى البارودى ، وأديب إسحق ، ويعقوب صنوع ، وقاسم أمين ، والزعيم محمد فريد ، والشاعر أحمد شوقى ، أولاد تيمور . . . وكلهم أعطى مصر من الإخلاص بقدر ما أعطته من نعمة الوجود ، وعلى رأسهم جميعا يتربع شريف باشا .

إلا أن « الحب » وحده لا يكفى ، لتفسير ظاهرة الولاء الوطنى عند هؤلاء المتمصرين الأوفياء . فالولاء الذى يفتقر إلى الوعى ، لا يثمر غير نعرات عاطفية جوفاء . . . ولابد أن هناك دوافع أخرى أعمق ، جعلت هؤلاء ينشقون على الأرستقراطية التركية التى أفرزتهم ، وينحازون إلى المعسكر المصرى ، ويشكلون مع الأرستقراطية المصرية الحديثة « حلفا » غايته هز النظام الحاكم ، ليتفهم مغزى الإرهاصات التى كانت تتفاعل فى أحشاء المجتمع المصرى ، وييسر بولادة قوى سياسية مصرية جديدة .

لقد رأت هذه الأرستقراطية المستنيرة ، أن تغييرا جذريا قد حدث فى البنية

الاجتماعية ، بسبب تطور نظام الملكية الزراعية . . وكان من نتيجته ظهور طبقة من كبار الملاك المصريين . . وكان من الطبيعى أن تبحث هذه الطبقة عن دور لها على المسرح السياسى ، على حساب الأرستقراطية التركية المتعجرفة التى يساندها الخديو إسماعيل ، واشتد الصراع بين الطرفين ، وكان على الفئات المتمصرة بزعامة شريف باشا أن تختار . . فاختارت الجانب المصرى ، ليس لأنه الأقوى ، ولكن لأنه الأبقى ، ولأنه الأكثر اتساقا مع حركة التاريخ ، ولأنه الأكثر اتفاقا مع المبادئ والأفكار العصرية التى تشبعت بها .

* * *

ومن المؤكد أن العوامل الثقافية ، لعبت دورا في تحريك مشاعر هذه الفئة فكلهم اتصل بأوربا - وفرنسا بالذات - وعاصر التطورات الدرامية التى انتهت إلى انتصار الليبرالية واندحار الحكم المطلق والنظام الإقطاعى . . وكانوا على ثقة بأن سنة التطور لابد أن تسرى على مصر ، وأن رباح التغيير لابد آتية ، وأن عليهم أن يتحركوا حتى يتم التغيير سلميا ودون إراقة دماء ، أو حدوث صدع يهدد كيان الوطن . . وكانت غاية آمالهم أن يتخلى إسماعيل عن نزعتة الاستبدادية ، ويعمل على توسيع قاعدة الشورى ، لتستوعب التطورات الاجتماعية الجديدة . . كانوا يحلمون بالدستور وبالمجلس النيابى ! وبالوزارة المسئولة أمام البرلمان ، وبالحاكم الذى يملك ولا يحكم . . وكانوا يحلمون بإلغاء السخرة والرق . . وسيادة المبادئ الإنسانية ، واحترام كرامة الفرد . . ولم يكونوا فى ذلك الوقت مسرفين فى أحلامهم . . ألم يقل إسماعيل إن مصر أصبحت قطعة من أوربا ؟ ! ولكن وجه التمايز بينهم وبين إسماعيل ، أن الأخير لم يقتبس من معالم الحضارة الأوربية ، سوى مظاهرها المادية البراقة . . دار الأوبرا ، وأفراح الأنجال ، وحفلات الليل المخملية ، وتشيد القصور الفاخرة على غرار قصور فرساي التى احترقت فى أتون الثورة . . أما جوهر الحضارة المتمثل فى احترام إرادة الشعب ، والامتنال لمبدأ سيادة الأمة . . فإن إسماعيل لم يكن على استعداد لاقتباسه أو الاقتراب منه .

* * *

وهذا هو جوهر الخلاف بين راعى الأرستقراطية التركية العتيقة - إسماعيل - الذى

أدار ظهره لحركة التاريخ ، فاحترق ، وقائد الأرستقراطية المصرية المستنيرة - شريف
باشا - الذى قاد أول حركة دستورية نيابية فى مصر ، ليجنب البلاد مغبة ثورة دموية
تأكل الأخضر واليابس ، فنجح حيناً ، وفشل أحياناً ، حتى انتهى الصراع بقيام
الثورة العراقية . . ثم وقوع الاحتلال الإنجليزى . .

إسماعيل .. الأفريقى

كان الخديو إسماعيل يقول إن مصر قطعة من أوربا ، وكان يعنى بذلك أن تأخذ مصر حظها من ثمار الحضارة الأوربية فى العلوم والفنون والثقافة والتقنين ، وأن تحقق مصر نفسها بالمصل الحضارى ، حتى يشتد عودها .. وتقوى على مواجهة تيار الحضارة العالمية الذى بلغ عنفوانه فى منتصف القرن التاسع عشر .. وبدهى ، فإن إسماعيل لم يقصد بهذا التعبير أن تنسلخ مصر من روحها الإسلامية والشرقية ، أو تجتث جذورها الضاربة فى عمق التاريخ ، فتصبح امتدادًا لفرنسا أو تابعا لإنجلترا .. فقد كان إسماعيل من الحكام القلائل الذين أدركوا سر الموقع الذى تشغله مصر فى قلب العالم القديم ، واستوعبوا رسالتها الحضارية الموروثة تجاه الشعوب المجاورة لها ..



لم يكن إسماعيل أوربى النزعة .. كما يبدو من مظهره المتفرنج .. ولكنه كان يؤمن بأن مصر قطعة من أفريقيا .. وأن مصر هى النافذة الشمالية التى تطل منها القارة السوداء على العالم المتمدين .. وكان يؤمن بمصر القوية المعطاء ذات الإشعاع الحضارى الذى يحمل مشاعل العلم والمعرفة والعمران والتقدم ، إلى قلب القارة .. وقد ورث عن جده العظيم ، محمد على ، طموحه إلى تجديد شباب مصر ، كما ورث عن أبيه - البطل المغوار إبراهيم - فكرة الكيان الكبير فى عالم احتدم فيه الصراع بين القوى الأوربية الاستعمارية التى خرجت كالمارد تلتهم كنوز القارة الأفريقية ، وتبنى مجدها وقوتها من ثروات الشعوب المقهورة .. لقد نجحت القوى العظمى فى تدمير العسكرية المصرية التى دقت أبواب القسطنطينية ، وأفلحت فى قص أجنحة إبراهيم

باشا التى انتشرت على روابى الشام وصحراء الجزيرة وساحل الخليج ، وأخذت النفوذ المصرى المتوهج وحصرته داخل حدوده الضيقة . . فجاء إسماعيل بعد ربع قرن ليستأنف حركة الفتوح المصرية . . ولكنه ولى وجهه شطر أفريقيا لثقتته بأن البعد الأفريقى هو المجال الطبيعى للحضارة المصرية . . وتوالت الحملات المصرية فى عمق القارة وشرقها . . فى وادى النيل ، وعلى ساحل البحر الأحمر ، تحمل مشاعل الحضارة . . وتقيم أسس العمران والمدنية . . فارتفعت المآذن ، وبنيت المساجد والمدارس والمستشفيات ، وشقت الطرق البرية والسكك الحديدية ، وامتدت أسلاك البرق والهاتف والبريد ، واستصلحت الأراضى ، وانتعشت الزراعة والصناعة والتجارة ، واستتب الأمن والنظام ، وقامت نظم الإدارة الحديثة ، حتى قال السير صمويل بيكر : إن السائح الأوروبى يمكنه أن يجوب تلك الأصقاع البعيدة دون أن يخشى على نفسه أكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس فى حديقة هايد بارك بلندن .

* * *

لم تكن حملات مصر ، على عهد إسماعيل ، استعماراً بالمعنى الأوروبى البغيض ولكنها كانت تعميراً وتنويراً ، بالمعنى المصرى الموروث ، ويكفى هذه الحملات فخراً أنها استهدفت إزالة أخط وصمة فى تاريخ القارة الأفريقية ، وأعنى بها تجارة الرقيق . . فأخذت تتعقب هذه التجارة الممقوتة . وتتصدى لمن يقف وراءها من أمراء وشيوخ قبائل وزعماء يتمتعون بالسطوة والنفوذ ويجنون منها ثروات طائلة . . ويكفى أن تعلم أن الدور المصرى فى مقاومة تجارة الرقيق ، كان من أسباب قيام الثورة المهدية ، وانقضاخ الزعامات المحلية على الوجود المصرى فى السودان ، فقد هال كبار المزارعين التغيير الفجائى فى النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد الذى كان يعتمد اعتماداً رئيسياً على سواعد الرقيق . . وبعض المؤرخين يرى أنه كان ينبغى على إسماعيل أن يعالج مسألة الرقيق بالتدرج حتى لا تؤدى الطفرة إلى هزة فى النظام الاقتصادى .

* * *

وأيما كان رأى فى مسألة الرقيق ، فإن الدور الحضارى المصرى ، مضى فى طريقه

المرسوم طوال السنوات الأولى من حكم إسماعيل ، ومدت مصر نفوذها إلى قلب القارة ، حتى منطقة البحيرات الكبرى (فكتوريا وألبرت) ، وفتحت مديرية فاشودة في جنوب السودان ، واكتشفت بحيرة أطلقوا عليها اسم (إبراهيم) ، وفتحت إقليم خط الاستواء ومملكة (أونيوورو) ، وبسطت حمايتها على مملكة أوغندا ، وأعرب ملكها (أمتيسى) عن ولائه للعرش المصرى ، وعقد مع ممثل مصر معاهدة في سنة ١٨٧٤ اعترف فيها بوضع مملكته تحت حماية مصر ، وأرسلت المعاهدة إلى إسماعيل الذى أبلغ الدول أن مصر ضمت إليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت . . وفتحت مصر إقليم بحر الغزال ، ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاكها بين الحبشة والبحر الأحمر ، وضمت محافظتى زيلع وبربرة الواقعتين على خليج عدن فيما وراء باب المندب . . كما ضمت محافظتى سواكن ومصوع (عاصمة أرتيريا) ، ثم سلطنة (هرر) في الجنوب الشرقى من الحبشة ، ودخلت سواحل الصومال الشمالية في أملاك مصر حتى رأس (جردفون) على المحيط الهندى . . وبذلك انفسحت رقعة الأملاك المصرية سواء في وادى النيل حتى منطقة البحيرات أو على ساحل البحر الأحمر حتى المحيط الهندى . . وأصبح الساحل الغربى للبحر الأحمر من السويس حتى باب المندب ، ومن باب المندب إلى ساحل المحيط الهندى من ممتلكات مصر .

* * *

تلك كانت حدود مصر في عهد إسماعيل ، فاستحق تمجيد المؤرخين الوطنيين له ، ومنهم الرافعى ، الذى وصف فتوح إسماعيل في أفريقيا بأنها من مآثره التى تتخلد ذكره في تاريخ مصر القومى . . واستحق نقمة بريطانينا التى كانت ترقب بفزع تحركات مصر في أفريقيا ، ولم يرق لها جفن حتى أجهضت هذه الفتوح بعزل إسماعيل وبطرده من مصر عام ١٨٧٩ ، ثم باحتلالها مصر عام ١٨٨٢ . . وبدأت عملية تصفية ممتلكات مصر في أفريقيا . . وعادت مصر إلى عزلتها . . تعلق جراحها . . وتبكى حظها . . وتذكر أيام مجدها القديم . .

عاشق النهر الخالد

عندما يتحدث المصريون عن الحملات التي تمت خلال القرن الماضي لاكتشاف منابع النيل ، فإنهم يذكرون أسماء صموئيل بيكر وسبيك وجرانت ، وأشباههم من الرحالة الأوروبيين . . وينسون أن أول محاولة علمية لاكتشاف منابع النهر ، إنما قام بها ضابط مصري عظيم ، هو الفريق محمد سليم باشا القبطان الذي تجاهلته كتب التاريخ الرسمية ؛ فلم يتحدث عنه من قريب أو من بعيد ، تأثرا بالعقدة التي أصبنا بها في مراحل الضعف بسبب انعدام الثقة بالنفس ، وأعنى بها عقدة «الانبهار بالغرب» . . والتعلق بكل ما هو غريب . . وجحود كل ما هو وطني . . أو مصري . . !!

ومما يضاعف من الإحساس بالألم ، أن الأوروبيين كانوا أكثر تقديرًا لهذا الضابط المصري الشجاع ، الذي عشق النهر ، فقد ثلاث حملات فيما بين عامى ١٨٣٩ - ١٨٤٢ إلى أعلى النيل لكشف أسرارهِ وفض مغاليقه . . وكان للنتائج التي أسفرت عنها حملاته ، دوى عظيم فى المحافل العلمية فى كل أنحاء القارة الأوروبية . . وإليك مثالا مما كتبه مسيو « جومار » ، العلامة الفرنسى الذى جاء إلى مصر ضمن رهنط العلماء المرافقين لبونابرت ، ولم تنقطع صلته الثقافية بمصر بعد عودته إلى بلاده ، فاستعان به محمد على فى الإشراف على البعثات المصرية التى كان يوفدها إلى باريس . . كتب « جومار » فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية ، يصف اكتشافات سليم القبطان بأنها : « باكورة ثمار الحضارة التى انبعث ضوءها فى مصر منذ ربع قرن . . وهى صالحة ، ولا بد أن تبقى كذلك ، لتكون قاعدة للاستكشافات التالية» . . كما وصفها الدكتور « فريدريك بنولا » ، الذى مثل مصر فى مؤتمر الجغرافيا الدولى المنعقد فى باريس عام ١٨٨٩ ، بأنها : « كانت السبب فى الحصول

على المعلومات التى وصل إليها العلماء بعد ذلك ، بل هى الأساس الذى نبنى عليه حل مسألة النيل» ، وذلك بفضل ما قامت به من الدراسات الطبيعية والجغرافية لمجرى النيل الأبيض ، وما كشفت عنه من الجهات والقبائل فى هذه المناطق النائية التى كانت حتى ذلك الوقت لا تزال مجهولة ، ومهدت السبيل لارتداد هذه المناطق العليا للنيل ، والكشف عن منابعه وحل هذا اللغز الجغرافى القديم .

وعن شخصية المكتشف المصرى العظيم ، يقدم لنا الدكتور نسيم مقار ، فى كتابه الوثائقى عنه ، صورة يكتنفها الغموض حول نشأته الأولى ، فالذين عاصروه أو رافقوه فى حملاته الكشفية لم يتعرضوا كثيرا لنشأته ، وكل ما يعرف عنه أن أصله من جزيرة كريت . . وقد حضر إلى مصر فى صباه ، واندمج فى المصريين ، واختلط بهم حتى صار مصريا ، والتحق بالبحرية المصرية ، على عهد محمد على ، حيث عمل ضابطا بحريا فى ترسانة الإسكندرية ، ثم عهد إليه مؤسس مصر الحديثة بهذه المهمة التاريخية التى جعلت منه بطلا وخلدت اسمه فى سجل التاريخ . . والأمر المثير للدهشة أن كل المعلومات المتوفرة حول شخصية سليم القبطان إنما مصدرها الأوروبيون الذين رافقوه فى رحلاته الكشفية ، وسجلوا ملاحظاتهم عن أخلاقه وتصرفاته وأسلوبه أثناء قيادة الحملات .

يقول المهندس الألمانى « فرن » الذى رافقه فى الحملة الثانية : « إن سليما كان طموحا راغبا فى الشهرة . تواقا إلى أن يحقق لنفسه مجدا كبيرا وفخرا عظيما . . وكان على غير ما كنت أعتقد - شجاعا ذكيا نشطا مدركا لخطورة المنصب الذى يتولاه وعظم المسئولية الملقاة على عاتقه ، بصيرا بكل ما يحيط به ، وهو يمتاز باللباقة ويتحفظ فى كلامه مع رفقاته من المهندسين الفرنسيين ، ويحرص على استشارتهم فى المسائل الهامة ، واحترام آرائهم حتى لا يثير غيرتهم وحفيظتهم عليه » .

ومن خلال التقارير اليومية ، التى كان يكتبها سليم القبطان ، أثناء رحلته فى مجاهل النيل ، يكتشف الدكتور مقار أن الرجل كان متدينا شديد التمسك بأداء الشعائر الدينية وإقامة الصلوات فى وقتها . . وعندما حل شهر رمضان المعظم والحملة تأخذ طريقها فى مجرى النيل الأبيض ، حرص القبطان على تأدية فريضة الصوم كاملة على الرغم من أن الدين يبيح الفطر للمسافر . . ولما حل عيد الفطر

سنة ١٢٥٥ هـ أمر الجنود بإطلاق المدافع من جميع السفن ، ورفع الأعلام ابتهاجا بالعيد . وفعل نفس الشيء عندما حل عيد الأضحى ، وأدى صلاتى العيدين مع الضباط والعساكر على ظهور المراكب والذهبيات ، كما دفعته نزعته الدينية إلى الحلم ، والنفور من العدوان . . ففى أثناء سير الحملة كانت تصادفه على شاطئ النيل الأبيض بعض الجماعات التى تميل بطبيعتها إلى الشر ، وتقوم بتظاهرات عدائية نحو رجال الحملة ، فكان يمتنع عن إطلاق النار عليهم . ويبادر إلى إظهار نياته الحسنة نحوهم ، فيرسل إليهم ترجمانه ليبلغهم رغبته فى مقابلتهم ليتحف كلا منهم ببعض الهدايا ، كذلك لم يكن سليم القبطان يميل إلى الاستبداد ، وإنما كان يميل بطبيعته إلى الشورى . . وفى جميع المواقف التى تعرضت فيها الحملات الكشفية للمخاطر ، كان سليم يبادر إلى عقد المجالس مع ضباطه ومهندسيه للتشاور فى الأمر ، ثم يصدر قراره فى النهاية بناء على رأى الأغلبية ، ولكنه كان فى الوقت نفسه حازما صارما إلى درجة ملحوظة فى تطبيق اللوائح والعقوبات على كل من يتهاون من الضباط والعساكر . أو من يغتصب من أحد المواطنين شيئا مهما كان تافها .

وكان من أثر هذه الصفات الشخصية القيومية ، أن نجح سليم القبطان فى أداء المهمة الجليلة التى خلدت اسمه وجعلته مقترنا باسم النهر الخالد . . فكانت حملاته طليعة الحملات اللاحقة التى تمت فى عصر إسماعيل مسترشدة بالنتائج العلمية الباهرة التى عاد بها سليم القبطان ، وكان لها تأثير بعيد المدى فى تطور أحوال المجتمع السودانى ، ويكفى أنها فتحت طريق الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا وربطت بين شمال السودان وجنوبه ، وألقت الضوء على جنوب السودان الذى كان حتى ذلك الوقت يعيش فى عزلة تامة عن المجتمع الإنسانى .

مجزرة همجية

في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ ، أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب ، فانهاالت قذائف الأسطول البريطانى على مدينة الإسكندرية . . كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام . . فتصيب أهدافها إصابات مباشرة . . أما مدافع الحصون والطوابى المصرية ، فكانت ضعيفة خائرة متراخية . . فتسقط قنابلها فى مياه البحر ، دون أن تصل إلى البوارج الإنجليزية . واستمر إطلاق الحمم حتى قبيل غروب الشمس . . وهى فترة كانت كافية لتدمير المدينة . . وتحويل أحيائها الأهلة إلى أطلال تتراكم فيها الجثث ، وتنشق البوم ، بعد أن فر سكانها وهاموا على وجوههم ، نحو الريف ، بحثا عن مأوى يقيهم نار الجحيم . .

كانت مجزرة بشرية رهيبة ، ارتكبتها بريطانيا العظمى ، عقابا للشعب المصرى لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوربى الذى تغلغل فى أنحاء الديار المصرية . . وبات يشكل خطرا على روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطنى . . كان حكام مصر من سلالة محمد على ، قد فتحوا أبواب البلاد على مصاريعها أمام الأجانب ومنحهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أخط الجرائم . . ولم يكن هؤلاء الأجانب فى مستوى الطبيب الشهير كلوت بك . . أو القائد العسكرى الكولونيل سيف . . وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكдسين فى الموانئ الأوربية ، من الأفاقين والمرايين وتجار الأعراض . . فلما تسامعوا عن الخير الوفير فى مصر المحروسة ، شددوا إليها الرحال طمعا فى الثراء الرخيص . . وامتهنوا أحقر المهن ، وانتشروا فى خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة . . فلما كثرت النقود فى أيديهم وظفوها فى الربا . . واستطاعوا تملك الأراضى الشاسعة

والعقارات الثمينة . . واستغلوا الامتيازات الممنوحة لهم في إذلال المصريين في عقر دارهم . . وكانت المحاكم القنصلية الأجنبية هي المختصة بنظر جميع أنواع المنازعات الخاصة بالأطيان . . ومنها الرهن ونزع الملكية . . ولك أن تعجب أشد العجب إذا عرفت أن هذه المنازعات ، كان يطبق عليها ١٧ قانونًا أجنبيًا تطبقها ١٧ قنصلية ويقف وراءها وكلاء شداد غلاظ القلوب ماتت ضمايرهم بفعل الطمع والجشع . . فكان على المصرى المسكين ، إذا خسر دعواه ضد الأجنبى ، أن يستأنفها أمام محاكم البلد التابع له هذا الخصم . . وإذا صدر على الأجنبى حكم بإخلاء أرض أو عقار لأحد المواطنين - كان الأجنبى يحتال على ذلك الحكم بالتنازل عن هذه الأرض لأجنبى آخر ، ويصبح على المصرى أن يقيم دعوى جديدة على الخصم الجديد . . وإزاء هذه الدورة الجهنمية ، كان المصرى يضطر إلى ترك حقه . . وبهذه الطريقة الخسيسة انتقلت الملكيات إلى الأجانب . . وأصبح المصريون كالأيتام على موائد اللثام .

* * *

فلما أفاق المصريون على هذا الخطر الداهم . . وقامت الحركة العرابية للحد من سطوة النفوذ الأجنبى . . انتفضت بريطانيا لتجهض الثورة بقوة السلاح . . وأوفدت أسطولها لتأديب المصريين حتى لا تقوم لهم قائمة ولا تراود خيالهم فكرة التحرر . . وجاء سيمور ليصبها حمما على رعوس أهل الإسكندرية في ذاك اليوم المشؤم . ولقد وصف المسيو جون نينيه - عميد الجالية السويسرية وصديق المصريين - المجزرة بهذه الكلمات : « كانت البوارج الإنجليزية تتقدم للضرب مشى مشى ، فى بطء ، ثم تصطف فى هوادة تجاه كل طابية مصرية ، وتصب عليها قنابلها حتى تدكها دكا وعندئذ تقترب منها تدريجيا وتنسف البطاريات والمدافع التى تكون قد انقلبت عن موضعها تحت تأثير قنابل الأسطول ، ثم تنثنى على الرماة المصريين فتحصدتهم حصدا بقذائف المترايوزات المركبة على ساريات البوارج . . ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أى مسوغ . . وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء . . ولقد كان بودى أن أسائل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل المترايوزات : هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاي فى بيوتهم ، أن يتحدثوا إلى

ذويهم عن آثار القتل والتدمير ، التى خلفتها تلك المجازر البشرية ١٩ إنى أشك فى ذلك . فليت شعرى أى إهانة لحقت بالأمة البريطانية من جراء هذا الجرم الفظيع . . » .

* * *

وإذا كانت المجزرة قد حركت ضمير هذا السويسرى الشريف . . فإنها لم تحرك ضمير العالم الأوروبى ، الذى كان يتشدق بالحرية . . ويرطن بشعارات الإخاء والمساواة . . فقد وقفت كل الدول الأوروبية تتفرج على المشهد ، وكأنها تتلهى برؤية إحدى حلقات المصارعة بين الأسود والعبيد فى العصر الرومانى . . حتى فرنسا الحرة تخلت عن شعاراتها . . ولم تجرؤ على أن تقول لغريماتها المتعجرفة « عيب » . . وهرب الأسطول الفرنسى ، الذى كان يربط فى مياه الإسكندرية قبيل الضرب . . هرب إلى بورسعيد بعد أن كشر له سيمور عن أنيابه . وخابت آمال المصريين فى فرنسا نصيرة الحرية والعدالة . . بل حدث ما هو أدهى وأمر . . فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكري ، عملا من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة . . وكان جواب حكومة لندن على التهنئة : « إن انتصارنا هو انتصار أوروبى . ولو انهزم الجيش الإنجليزى لكان ذلك كارثة على كل الدول التى تحسب حسابا للتعصب الإسلامى » . .

التعصب الإسلامى . . ١١

أنعم النظر فى هذه العبارة الغريبة حتى يملكك الغيظ . . ١

بريطانيا العظمى تحرك فى نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة . . وترى فى دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهرا للتعصب الدينى . . أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم ، وإذلال كرامتهم ، فهو عين التسامح الدينى الذى تريده الدول العظمى !

منطق غريب جدا . . ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع فى كل عصر .

حرق الإسكندرية

كانت الاستحكامات العسكرية في مدينة الإسكندرية ، قبيل ضربها في يوليو ١٨٨٢ ، قد بلغت درجة سيئة من التهالك والقدم . . فالحكام الذين استدانوا وأنفقوا الملايين على بناء القصور وإقامة الحفلات وشراء الجوارى ، لم يفكروا في تجديد الحصون والطوابى ، وشراء المدافع الحديثة القادرة على مواجهة العدوان الخارجى . . وبسبب هذا الضعف والإهمال ، لم تصمد الطوابى أمام النيران الهائلة التى صببتها قذائف الأسطول الإنجليزى . . ولم يبق أمام الجنود المصريين الرابضين خلف المدافع الخائفة ، سوى الاستبسال والدفاع عن شرفهم وشرف بلادهم حتى الرمح الأخير . . وكان الثمن غاليا .

يصف شاهد العيان جون نينيه صمود الجنود المصريين ، وكأنه يرسم لوحة زيتية رائعة لمأساة دامية فيقول : « ما كان أبدع هذا المنظر . . منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم ، وهى مكشوفة فى العراء ، وكأنها هم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم . . إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس . . وكانت معظم الحصون بلا سواتر . . ومع ذلك ، فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ، ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه . . وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة . . وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار . . ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم . . بل إن عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التى استهدفوا لها كانتا تستثيران الحماسة فى صدورهم . . وهم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد فى آلامهم . .

وفي اليوم التالي ، استأنف الأسطول البريطاني قصف المدينة الباسلة ، رغم أن الطوابي قد سكنت تماما بعد تخريبها . . ورفعت الرايات البيضاء . . وظهر جليا عزم الإنجليز على احتلال المدينة بعد أن دكوا حصونها ، وحطموا كل وسائل دفاعها . . وبينما كانت طلائع قوات الغزو تطأ أرض الساحل الإسكندري . اندلعت النيران فجأة في حي المنشية . . وما هي إلا ساعة أو بعض الساعة حتى انتشرت النيران في بقية الأحياء الشعبية والأجنبية . . وما إن حل المساء حتى كانت المدينة قد تحولت إلى شعلة من الوهج . .

*** من الذي أمر بحرق الإسكندرية . . ١٢

لا يزال هذا اللغز موضع اهتمام الباحثين . . وكان من الطبيعي أن ينصب الاتهام على رأس العراقيين ، الذين أبوا أن يتركوا المدينة موطئا سهلا للغزاة . . ففعلوا ما فعله الروس في موسكو عندما تقدمت إليها جحافل جيش نابليون ، فحرموه نعمة الإيواء في مدينة آمنة . . وقال بعض الشهود ، إنهم رأوا عبد الله النديم - بعد الحادث - في محطة سيدي جابر راكبا في صهريج القطار وفي يده طبنججة ، وسمعه يقول إنه قتل بها ثلاثة أشخاص ، وإن حرق المدينة كان بواسطة غاز أحضر بمعرفتهم وصب على الدكاكين والمنازل حتى يتم الحرق بسرعة .

وتكاد معظم المراجع التاريخية ، تجمع على أن الذي أمر بإحراق المدينة هو القائمقام سليمان سامي داود قائد الآلاي السادس الذي كان متمكزا في المدينة ولم يشترك في القتال . . فقد أمر جنوده بإضرام النار في المدينة ، على أمل أن يحول الحريق دون نزول الإنجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لحفهم . . ويصف الرافعي هذا العمل بأنه كان عملا عقيما يدل على الجهل بالخطط الحربية . . لأنه لم يعطل نزول الجنود الإنجليز إلى البر صبيحة اليوم التالي . . (الخميس ١٣ يوليو) كما يصف ذاك الضابط الكبير بأنه كان مشهورا بالحمق والتهور ، وكان يعتبر نفسه « عرابي » آخر بالإسكندرية . . وقد صمم على ألا ينسحب الجيش من الإسكندرية إلا بعد أن يجعلها خرابا . . ويتخذ الرافعي من هذا التصرف دليلا على انعدام وحدة القرار بين القادة العراقيين ، وينفي عن عرابي تهمة إصدار مثل هذا القرار الخطير . .

وقد أثبتت التحقيقات أن مسئولية إحراق المدينة وما تعرضت له من أعمال

السلب والنهب ، لا تقع على عاتق القائم مقام سليمان سامى داود وحده . وإنما كانت هناك قوى أخرى اشتركت فى تخريب المدينة . . وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده إن تهمة حرق الإسكندرية ينبغى أن توجه لأكثر من طرف . . فقد عثر على جثث أروام بلباس عرب أثناء الحريق . . كما اشترك فيه عربان من أولاد على ، ممن كانوا على صلة بالخديو توفيق . . ومنهم أهالى الإسكندرية ، ومنهم أورييون بقصد المبالغة فى طلب التعويضات . . ويقول شاهد العيان جون نينيه إن الحرائق الأولى شبت فى الأحياء الشعبية من قنابل الأسطول الإنجليزى يوم الضرب ، ومن فعل بعض الأوريين الذين بقوا فى المدينة بقصد النهب ، وبعض الأشقياء الذين أطلق سراحهم من السجون . . أما حرائق الأحياء الأوربية ، فهى من فعل عربان « أولاد على » الذين كانوا مجتمعين حول البلد يعاونهم بعض عساكر الرديف وبعض الأروام ، ثم بعض أصحاب الدكاكين من الأجانب ممن قصدوا الحصول على تعويضات . .



ورغم توزيع المسئولية على كل هذه العناصر ، إلا أن المسئولية وضعت فى رقبة القائم مقام سليمان سامى ، الذى نجح فى الفرار على ظهر قارب إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للسلطان العثمانى . . وبعثت سلطات الاحتلال البريطانى إلى حكومة إستانبول تطلب القبض عليه وتسليمه إليها . . ولم يكن من حكومة أستانبول سوى الإذعان . فألقت القبض عليه ، وبعثت به مخفوراً إلى مصر . . حيث قدم إلى المحاكمة العسكرية وحكم عليه بالإعدام . .

وكان سليمان سامى داود ، أحد ضابطى اثنين حكم عليهما بالإعدام ، ونفذ فيهما الحكم بالرغم من تخفيف أحكام الإعدام عن قادة الثورة العرابية . أما الضابط الثانى فله قصة أخرى . .

الشهيد البرئ

كان من الطبيعي أن تسود الشارع المصرى روح الكراهية والعداء للأجانب ، بعد ضرب الإسكندرية واحتلال الإنجليز لها . . وكان المهاجرون من أبناء الإسكندرية قد انتشروا فى أنحاء الدلتا يحكون للناس عن الفظائع التى وقعت لهم . . فثارت خواطر العامة . وامتلات نفوسهم حقدا وغيظا ونقمة على الأوربيين الذين كان تواطؤهم مع الإنجليز أمرا واضحا منذ بداية الأزمة . . وقامت جماعات من المتحمسين فى طنطا والمحلة الكبرى ومنوف ، تطارد الأجانب فى الشوارع وتعتدى على محلاتهم . . ولم تكن هذه التصرفات الهوجاء تحظى برضاء عقلاء القوم . . لما يعرفونه عن مخاطرها فى المستقبل . . فضلا عن منافاتها لروح السباحة المعروفة عند المصريين . . ونهض كبار الأعيان يفتحون بيوتهم لإيواء الأجانب وحمايتهم من الاعتداء . وانفتح بيت أحمد المنشاوى باشا ، فى طنطا ، لاستقبال أكثر من ٣٠٠ شخص من الأوربيين ، فوجدوا فيه الحماية والأمان .

فى ذلك الوقت كانت المعارك دائرة بين الجيش البريطانى والجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى باشا فى كفر الدوار . وكان اللواء عبد العال حلمى باشا قائدا لجهة دمياط ، فأوفد ياوره الخاص اليوزباشى يوسف أبودية فى مهمة عاجلة إلى عرابى باشا فى كفر الدوار . وأثناء توقف الضابط الشاب فى طنطا وجد شوارع المدينة قد تحولت إلى ساحة للشغب والفوضى . فالأهالى يطاردون الأجانب فى غيبة من رجال الأمن . ولم يشأ الضابط الشهم أن يترك المدينة وهى على هذه الحال من الفوضى ويواصل مشواره إلى كفر الدوار . . وأبى عليه حسه الوطنى وإدراكه للمسئولية أن يقف متفرجا ويقول (وأنا مالى) ، فمضى لتوه إلى مبنى المديرية ، فلم

يجد مدير الغربية إبراهيم باشا أدهم في مكتبه في هذا الوقت العصيب . . . وقيل له إنه مريض وملازم الفراش في بيته . . . فمضى إليه في بيته فوجده سليماً وصحته زى البمب . . . فما كان من الضابط الشاب إلا إن أنهال على الباشا المدير تقريراً وتوبيخاً . . . وغادر طنطا من فوره إلى كفر الدوار . . . حيث حكى لعرابى باشا عن قصة المدير المتهاضر ، الذى لزم بيته تاركاً الفوضى تضرب أطناًها في مدن الغربية . . . وأبلغه ما سمعه عن وقوع أحداث مشابهة في المنوفية . . . فانزعج عرابى انزعاجاً شديداً . . . وأمر بالقبض على مدير الغربية ، ومدير المنوفية ، وتقديمهما إلى محاكمة فورية أمام المجلس العسكرى المنعقد في القاهرة . . . وأمر بإرسال أورطة من الجيش بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، لإعادة النظام إلى مدن الغربية والمنوفية . . . وأصدر تعليماته إلى مصلحة السكة الحديدية ، بإرسال قطار خاص إلى طنطا لنقل الأجانب الذين يرغبون في السفر إلى الإسمايلية وبورسعيد بالمجان .



فلما انقلب الميزان . . . وانهزم الجيش المصرى أمام جحافل الاحتلال البريطانى خرجت الأفاعي من جحورها ، واستأسدت الثعالب والذئاب . . . وبدأت الحملة المضادة للانتقام من العناصر الوطنية التى وقفت إلى جانب عرابى دفاعاً عن استقلال الوطن . . . وفي إطار الانهيار الأخلاقى الذى عم البلاد ، تحول الخونة إلى أبطال . . . وانزوى الأبطال في غياهب السجون . . . وانقلبت قضية المدير المهمل إبراهيم أدهم على أعقابها . . . وخرج من سجنه ليوجه الاتهام إلى الضابط الشاب يوسف أبو دية بأنه كان يحرض أهالى طنطا على قتل الأجانب !! ولم يعدم المدير الهمام العثور على بعض الساقطين من ذوى الذمم الخربة ، ليشهدوا زوراً أمام المحكمة العسكرية بالإسكندرية ، بأن اليوزباشى أبو دية كان يحرضهم على الفوضى والشغب . . . ولم يكن لدى المحكمة العسكرية وقت لتفنيذ هذه الدعاوى والتأكد من بطلانها . . . فلم يكن الوقت يسمح بمثل هذه الإجراءات القضائية . . . كان المطلوب سرعة البت في محاكمة العرابيين حتى يتفرغ الإنجليز لتنظيم شئون الاحتلال . . . وذهبت عبثاً محاولات الضابط الشهم لإثبات كذب الادعاءات التى اقترأها عليه المدير . . . فحكمت عليه المحكمة بالإعدام شنقاً ، وسبق إلى السجن انتظاراً لتنفيذ الحكم . . .

ومضت الأيام ثقيلة كثيبة ، حتى نشرت الصحف نبأ الحكم بالإعدام على الضابط البرئ يوسف أبو دية . . وثارت ضماير بعض أهالى طنطا . . فقد أزعجهم أن يساق إلى حبل المشنقة ضابط بتهمة التحريض على قتل الأجانب . . بينما شاهدوه بأعينهم وهو يبذل قصارى جهده لوقف عمليات الاعتداء . . فتطوعوا بالذهاب إلى مكاتب التحقيق بالإسكندرية . . وشهدوا بالحقيقة التى لمسوها بأعينهم . . واستطاعوا إثبات كذب الشهادات المزورة التى قدمها المدير . . وأعادت هيئة التحقيق فتح ملف القضية ، واقتنعت بصحة الوقائع الجديدة ، وكذب الأدلة التى استند إليها حكم الإعدام . . وأعدت هيئة المحكمة تقريرها ، وانتهت فيه إلى براءة اليوزباشى يوسف أبو دية . . ورفعت تقريرها إلى وزير الحقانية ، طالبة استصدار مرسوم من الخديو بالعفو عن الضابط البرئ ، وأصدر الخديو توفيق مرسوم العفو الذى حمله رسول خاص إلى الإسكندرية . . وشاء القدر العاثر أن يصل المرسوم إلى السجن بعد خمس دقائق فقط من تنفيذ حكم الإعدام فى الضابط البرئ . . وقرأ مأمور السجن مرسوم العفو ، بينما كانت جثة الضابط الشهيد يوسف أبو دية تتدلى فى بثر المشنقة . . ولم يتمالك الحاضرون أنفسهم . . فاجهشوا بالبكاء بمن فيهم عشاوى نفسه . .

أبو الدستور

كان قاضى قضاة مصر عام ١٨٢٦ ، رجلاً تركيا اسمه محمد شريف أفندى الشركسى ، وكان منصب قاضى القضاة ، من المناصب العليا ، التى تستأثر بها حكومة الخلافة العثمانية ، بحكم سيادتها على مصر ، رغم استقلال محمد على بمصر استقلالاً فعلياً . . . وفى أثناء السنة التى قضاها الشركسى أفندى بمصر أنجب طفلاً أسماه (شريف) . . . ولم يلبث أن عاد به إلى الأستانة بعد انتهاء فترة خدمته بمصر . . . وبعد سنوات عين الرجل قاضياً على الحجاز ، وفى أثناء ذهابه إليها عرج على مصر ، ليحظى ببركات ولى النعم محمد على ، الذى ما إن شاهد الصبى (شريف) حتى توسم فيه النجابة والذكاء ، وأدرك أنه سيكون له شأن . وكان محمد على يتمتع بخاصية الفراسة ، فطلب من الأب إبقاء ابنه فى مصر ليتلقى تربية ملوكية مع أبناء الولى . . . ووافق الأب ، وترك الصبى وديعة فى كنف عزيز مصر . . . والتحق شريف بالمدرسة العسكرية التى أنشأها محمد على ، فى الخانكة لتعليم أولاده أصول الضبط والربط . . . وكان زملاؤه ، من أبناء العزيز : سعيد وحليم وحسين . . . ومن الأحفاد : إسماعيل . . . فلما أتموا تعليمهم ، سافروا إلى باريس ، ليلحقوا بمدرسة (الرسالة) التى أقامها محمد على لاستكمال تعليم المتفوقين من خريجي مدرسة الخانكة . . . وهنا ظهرت ميول شريف لتعلم الفنون الحربية ، فالتحق بمدرسة (سان سير) ، وهى يومئذ أرقى المعاهد العسكرية الفرنسية . . . وبعد تخرجه ، خدم فى الجيش الفرنسى سنتين ، فلما مات محمد على عاد إلى مصر وهو برتبة نقيب ، فدخل الجيش المصرى معاوناً للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) ، وتوطدت الصداقة بينهما ، حتى انتهت بالمصاهرة فتزوج الضابط الشاب ابنة سليمان .

وفى عهد الوالى سعيد ، تفتحت أبواب الترقى أمام شريف باشا ، فعينه رئيسا للحرس الخصوصى برتبة لواء . . . وبعدها ترك الخدمة العسكرية ، وتفرغ للنشاط الدبلوماسى ، وساعدته على ذلك ثقافته الفرنسية ، فأصبح سفيرا متجولا وممثلا شخصيا للوالى فى المهام الخارجية ، فلما تولى إسماعيل ، ازدادت فرص الترقى أمام شريف حتى أصبح وزيره الأكبر ، وموضع ثقته لدرجة أن عينه (قائمقام مصر) أثناء غيابه فى الخارج ، وكانت المرة الأولى التى يعين فيها نائب عن خديو مصر من خارج الأسرة العلوية .

هذا هو شريف باشا ، الذى ارتبط اسمه بكل الأحداث الجسام التى شهدتها مصر طوال ثلاثين عاما ، كان أجلاها نشوب الثورة العربية ، وأفدحها وقوع الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ . . . ولكن الشهرة الكبرى التى علقت باسم شريف ، إنما جاءت من ارتباطه بالدستور ، وبالحياة النيابية ، وكلاهما خرج من أعطافه وبفضل مثابرته وإيمانه بالديمقراطية ، وبغضه للاستبداد . والحكم الاتوقراطى وإصراره على حق المصريين فى ممارسة الأساليب الحديثة فى شئون الحكم . .



كان من ثمرات هذا الكفاح النبيل ، أن شهدت مصر فى عام ١٨٧٩ تدوين أول دستور على أحدث المبادئ العصرية . . . وأخذ شريف مسودة الدستور ، وذهب بها إلى مجلس النواب ، الذى حاولت حكومة رياض الإطاحة به ، فأعاد شريف للمجلس اعتباره ، وطلب منه الاستمرار فى ممارسة مهامه النيابية ، احتراما للقرار الذى اتخذته المعارضة الوطنية برفض حل المجلس . . . وأعلن شريف أنه لن يوضع قانون ، ولن يعدل قانون - بما فيها القوانين الأساسية التى تقرر النظام الدستورى - إلا بقرار من المجلس . . . وزيادة فى تكريم مجلس النواب ، وإضفاء صفة (اللجنة التأسيسية) عليه ، طلبت الحكومة من المجلس إقرار الدستور قبل عرضه على الخديو إسماعيل ، حتى لا يبدو وكأنه منحة من ولى النعم . . . ومن المآثر التى سوف تذكر لشريف باشا أبد الدهر ، أنه ضمن هذا الدستور نصا يخول لأبناء السودان حق انتخاب ممثليهم فى مجلس النواب تأكيدا للروابط التاريخية بين شطرى الوادى .

بعد كل هذا . . . ألا ترى أن شريف باشا ، يستحق عن جدارة لقب (أبو

الدستور) . . ! إن النهج الذى نهجه هذا الرجل ، لا يزال مثار دهشة المؤرخين الذين سجلوا إصراره وصبره وانتزاعه حقوق المصريين السياسية من براثن إسماعيل . . وتزداد الدهشة إذا تذكرنا أن شريف باشا لم يكن مصرياً أصيلاً ، ولا تربطه بالتراب المصرى وشيجة قديمة ، ولا تجرى فى عروقه قطرة واحدة من دماء الفلاحين . . ! فما الذى دفعه إلى سلوك هذا المسلك الوعر ليقف إلى جانب الحقوق الدستورية للمصريين فى مواجهة السلطات الأتوقراطية التى كان يتمتع بها حكام مصر ومن يلوذ بهم من بقايا الترك والشركس والألبان . . وهو الذى ينتمى إليهم . . !؟

قصة مزعومة

قبل أن أمضى فى الحديث عن شريف باشا . . أبى الدستور وراعى الحياة النيابية فى مصر الحديثة . . أستاذن القارئ فى عرض هذه الحكاية التى تتصل بشريف نفسه . وتلقى بعض الظلال على عملية ميلاد أول برلمان مصرى فى عام ١٨٦٦ ، وهو مجلس شورى النواب ، الذى أنشأه الخديو إسماعيل ، ليستكمل به ديكور الحضارة الأوربية فى مصر . .

تقول القصة إنه قبيل انعقاد المجلس . . لأول مرة . . اجتمع شريف باشا مع النواب (٧٥ نائبًا) بالقلعة ، وألقى عليهم درسا فى أصول الإجراءات البرلمانية ومنها أن يشكلوا من بينهم حزبين : أحدهما يؤيد الحكومة ، ويجلس على مقاعد اليمين . والثانى يمثل المعارضة ويجلس على اليسار . . وتظاهر النواب بأنهم استوعبوا الدرس . . فلما دخلوا القاعة ، جلسوا جميعا على اليمين . . فثار شريف باشا ، وأفهمهم أنهم بذلك يخرقون التقاليد . . ولكن النواب استنكروا طلبه ، وقالوا له : كيف يخطر ببالك يا باشا أن يكون بيننا معارض لحكومة أفندينا وولى نعمتنا . . ؟! وتمضى القصة - إمعانا فى السخرية - فتزعم بأن شريف باشا أصر على أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار . . فما كان منهم إلا أن تحولوا جميعا إلى مقاعد اليسار . . !!

* * *

فما رأيك - عزيزى القارئ - فى هذه النكتة التى يرددها بعض كتابنا ، حين يريدون التدليل على عظمة التطور البرلمانى المصرى المعاصر ؟ فلا يجدون أمامهم من سبيل سوى التحقير من شأن آباء الديمقراطية المصرية ، والتهكم على الرعيل

البرلمانى الأول ، وإظهاره بصورة الجاهل الذى لا يعرف الفرق بين مقاعد اليمين ومقاعد اليسار ، ولا يتخيل أن تكون هناك معارضة للحكومة ولى النعم . . . !!
إنك لو عرضت هذه القصة على ميزان العقل - قبل عرضها على أدوات البحث التاريخى - فلن يستسيغها . . فمهما قيل عن وداعة المصريين وطيبتهم وصبرهم العريق وتمسكهم بالشرعية - وهو قول فيه نظر - إلا أن الأمر لا يبلغ بهم حد البلاهة . واستهجان قيام معارضة برلمانية ، ولو مصطنعة . . بل المعقول أن تنشأ بينهم «خبرة» معارضة ، ولو على سبيل التقليد للغرب . . كما يشاع على لسان شريف باشا فى القصة المزعومة . وفضلاً عن ذلك فإن المجتمعات الإنسانية عرفت المعارضة فى كل الشرائع والنظم ؛ فلماذا يصر بعض الكتاب على استثناء الشعب المصرى من هذه المزية التى عرفتها كل الشعوب . . ؟!!

* * *

أما لو عرضت القصة على ميزان البحث التاريخى ، فسوف تكتشف أنها قصة مختلقة ، ليس لها أصل فى مصادر التاريخ الموثوق بها . . وإنما هى من مخترعات الكتاب الأوروبيين حين يطيب لهم السخرية من المصريين الذين لا يصلحون - فى رأيهم - لممارسة مبتكرات الحضارة الغربية . .

وهذه النتيجة ، هى التى انتهى إليها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ، بعد أن فند القصة ومحصها ، فلم يجد لها سنداً من أقوال شهود العيان الذين عاصروا نشأة المجلس . . ولا جاء ذكرها ولو تلميحاً فى مضابط المجلس . . ويضيف إلى ذلك قوله بأن الرواية لا يسيغها المنطق ، لأن نظام المجلس واختصاصه لا يدعان مجالاً لتأليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة . . فالأحزاب الموالية والمعارضة ، إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة (وهو ما يعرف بمبدأ المسئولية الوزارية) ، ولم يكن مجلس شورى النواب يملك هذا الحق أصلاً . . مما يقطع ببطلان القصة من أساسها . .

* * *

ولكن بعض كتابنا لا يتحرزون من ترديد هذه القصة المختلقة ، والترويج لها بحسن نية ، دون إدراك منهم لما تنطوى عليه من افتراء وتجريح وتهكم . . !!

طوفان الفساد

بعد إخماد الثورة العربية . . عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار ، من الثغر المحترق إلى القاهرة المحتلة . . وكان في استقباله بمحطة العاصمة ، قادة الجيش البريطاني الذين سبقوه إلى القاهرة ، ومهدوا له طريق العودة . . وانطلق موكب الخديو إلى قصر عابدين عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال . . لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة ، وبفعل القهر المسلح . . وأضحى الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة ، وسجين ينتظر النفي والتشريد . . والوطن كله ينزف دما من جراح الهزيمة . . وبدأ الظلام ينشر أعلامه السوداء على مصر المحروسة . . وكان على المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع ، كالأيتام على مأدبة اللثام . . لقد مضى ذلك العصر ، الذي جلجلت فيه صيحات النديم ، والأفغانى ومحمد عبده ، وصرخة عرابى فى وقفة عابدين . . وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب ، وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط إلى أسفل السافلين . . بات قصر الدوبارة - مقر المعتمد البريطانى - قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة . . وأصبحت مصر نهبا لكل خوان أثيم . . ولم يقتصر الفساد على علية القوم . . وإنما كان الفساد طوفانا تسرب إلى كل الشقوق . . وشمل كلى الطوائف والطبقات . . فانحطت الأخلاق وشاع الجبن والذل والرياء . . وسادت شعارات النفعية والوصولية والانتهازية . . وانعدمت روح الانتماء إلى الوطن ، وحلت محلها نزعة اللامبالاة وعدم الاكتراث والبحث عن المنافع الشخصية على أشلاء الوطن المحتل . . وأصبح الولاء للاحتلال والتنكر للوطن جواز المرور إلى المناصب العليا . . والوجاهة الاجتماعية .

وبدأ الإنجليز فى تنفيذ برنامج طويل المدى ، لتصبح مصر بمقتضاه مستعمرة

بريطانية ، تحكم من لندن حكما مباشرا عن طريق « نصائح » يقدمها المعتمد البريطاني إلى الخديو . . فلا يملك حياها إلا الإذعان . . وكان لابد من وزارة تدبر شئون البلاد ، في هذا الظرف العصيب . . ولم يكن هناك غير شريف باشا ، ليقوم بهذه المهمة الصعبة وسط الظلام الكثيب . . وقبل الرجل التكليف . وكان عليه أن يتحمل المسؤولية في وقت انعدمت فيه المسؤولية الوطنية . . وكان عليه أن يعيد ترتيب البيت الذي تفكك وانهار تحت وطأة الاحتلال . . وكان عليه أن يحافظ على آخر ومضات الروح الوطنية ، قبل أن تذبل إلى الأبد . . ومكث الرجل يمارس هذه المهمة الشاقة سنتين ، حتى إذا كشف الإنجليز عن أنيابهم ، لفصل السودان عن مصر - لم يستطع شريف الصبر ، وأبى أن يكون أداة في يد الاحتلال لسلخ السودان عن مصر . . وهو القائل « إذا تركنا السودان ، فإن السودان لن يتركنا » . . وهو الذي ضمن الدستور نصا يتيح لأبناء السودان انتخاب ممثليهم في مجلس النواب المصري إيمانا منه بوحدة المصير بين شمال الوادي وجنوبه . . عندئذ قدم شريف استقالته الثالثة والأخيرة . . وبعدها اعتزل الحياة العامة حتى وافاه الأجل بعد ثلاثة أعوام قضاهما في صمت .

هل تستحق هذه الاستقالة ، أن تدرج ضمن الأعمال الوطنية العظيمة ؟ لقد رفع الأستاذ الرافعي من شأن هذه الاستقالة ، واعتبرها من الأبحاث التي تذكر لشريف باشا . . ورأى فيها دليل الحياة واليقظة الوحيد ، في وقت تلاشت فيه كل دلائل المقاومة الأهلية . . وعاب على حكام مصر وكبرائها أنهم لم يحدوا حذو شريف ، ولم يستقيلوا من مناصبهم ، احتجاجا على التدخل الأجنبي في شئون مصر . . فكان من نتيجة سكوتهم وإذعانهم أن تعاقبت على البلاد وزارات الولاء للاحتلال والخضوع لأوامره ونواهيه .

* * *

هل كان شريف مخطئا حين قبل الوزارة تحت مظلة الاحتلال ؟ لم يتعرض الرافعي لمناقشة هذه القضية الهامة ، لأن الرافعي كان - بحكم موقفه العدائي من العربيين - مناصرا لشريف ومبررا لكل تصرفاته ، حتى خلع عليه كل وصف حميد ونزع عنه أية نقيصة . . ولعل هذا الصمت المتعمد من جانب الرافعي ، جرنا إلى

سؤال آخر : هل خان شريف باشا الثورة العرابية ؟ ! فالثابت أن « شريف » لجأ إلى معسكر الخديو ، حين وقعت الواقعة ، وتلاحمت سيوف الثورة العرابية مع قوات الغزو الإنجليزي . . وكان في معيته في رحلة القطار من الإسكندرية إلى القاهرة بعد فشل الثورة . . وكان في رفقته أثناء ذهابه إلى قصر عابدين . . ويقول الرافعي : إن شريف باشا لم يتمالك نفسه ، وهو يرى جنود الاحتلال ينتهكون شرف بلاده . . فأجهش بالبكاء . . ومع ذلك ، وأيا كان نصيب هذه القصة من الحقيقة . . فإنها لا تعفيانا من مناقشة هذا السؤال : هل خان شريف الثورة ؟ إنها قصة تحتاج إلى وقفة للتأمل .

الكبرياء الوطنية

فى حياة شريف باشا ثلاث استقالات شهيرة . . من المفيد أن نلّم بها . . لأنها تكشف النقاب عن معدن الرجل ومنهجه فى الحكم . . واكتشافه اللحظة الفاصلة التى يتحتم فيها على رجل الدولة أن يتنحى ، إذا حدثت إهانة لشخصه أو مساس بكرامته الوطنية .

وظروف الاستقالة الأولى تلقى الضوء على جانب من شخصية شريف . . هو تمسكه بالكبرياء الوطنية فى مواجهة التدخل الأجنبى . . كان شريف باشا وزيراً للخارجية والحقانية (العدل) ، فى أواخر عصر إسماعيل ، حين بدأ النفوذ الأوروبى يسيطر على مقدرات البلاد ، بعد أن أوشكت خزانتها على الإفلاس . . وكان من آثار ذلك أن وافق الخديو على تشكيل لجنة « التحقيق العليا الأوربية » ، من جبابرة الاستعمار البريطانى ، وبعض أذياهم من الفرنسيين ، ومعهم - للأسف الشديد - مصرى هو رياض باشا . . وكان من سلطة اللجنة استدعاء كبار رجال الدولة بمن فيهم الوزراء ، لمساءلتهم والتحقيق معهم . . فلما جاء الدور على شريف باشا ، رأى أن من العار على وزير مثله ، أن يقف كالمشبهه أمام تلك الحثالة المتربصة باستقلال بلاده وتمريغ سيادتها فى التراب . . فرفض المثل أمام اللجنة التى رأت فى عناده تحقيراً من شأنها . . فأصرت على إحضاره . . وازداد الرجل تشبهاً بموقفه . . وتوسط الخديو ، وطلب من شريف أن يجيب عن أسئلة اللجنة كتابة . . ولكن اللجنة أصرت على مثولة - شخصياً - إمعاناً فى إذلاله . . وحتى لا يكون قدوة لغيره من الوطنيين الأحرار . . عندئذ وجد شريف باشا أن العزة الوطنية ، تحتّم عليه أن يستقيل ولا يحنى رأسه . . فاستقال .

وتبدو أهمية هذا التصرف ، الذى يتسم بالإباء والشمم ، ويرسخ قيمة الأنفة الوطنية ، إذا قورن بمسلك غيره من أعمدة الحكم الإسماعيلي الذين فرطوا فى كرامتهم أمام الأجانب ؛ وكانوا لا يرون بأسا من التدخل الأوربى فى شئون مصر ، بحجة أن هذا التدخل سيقلم أظافر الخديو ويخفف من غلواء حكمه المطلق .

* * *

أما الاستقالة الثانية . . فقدمها شريف باشا ، وهو رئيس الوزارة الوطنية ، التى شكلت فى أعقاب تظاهرة عرابى فى ميدان عابدين (سبتمبر ١٨٨١) ، وكان من مطالبها إسناد الوزارة إلى شريف باشا . . وكان شريف فى ذلك الوقت يتزعم جناح المثقفين فى الحركة العرابية التى تبلورت فى حزب سياسى يحمل اسم (الحزب الوطنى) ، ويضم فى صفوفه كل الأحرار على اختلاف نزعاتهم السياسية والفكرية .

قد يكون من الغريب ، انضواء رجل مثل شريف يعتنق الفكر الليبرالى بين صفوف العرايين الثوار . . ولكن من السهل تفهم ذلك ، إذا تذكرنا أن الحركة العرابية فى ذلك الوقت المبكر ، كانت تسلك منهجا سلميا مع النظام الحاكم . . وتحاول تحقيق مطالبها بالتراضى مع الخديو . . بدليل أن عرابى وإخوانه أعلنوا ولاءهم للخديو بعد التظاهرة . . وكان الجناح الليبرالى فى الحركة ، يرى إمكانية الحصول على المطالب الشعبية دون حاجة إلى تدخل الجيش . . . ولم يكن هؤلاء الليبراليون على استعداد لتقبل فكرة تدخل الضباط فى شئون الحكم ، لأن ذلك سيؤدى - فى رأى الرافعى - إلى انتقال الاستبداد من يدى الخديو إلى أيدي العصابة العسكرية ، وتحول الجيش عن مهمته الأصلية ، ويشجع على انتشار الخلل والاضطراب فى البلاد .

إذن فلم يكن من المتوقع ، أن يستمر التعاون بين شريف باشا رئيس الوزراء . والجناح العسكرى فى المجلس ، ويمثله محمود سامى البارودى ، وزير الجهادية . . بل كان لا مفر من الشقاق بين الفصيلين مع تداعى الأحداث . وردود فعل كل منهما . . ووقع الخلاف حين قدم شريف باشا نص الدستور للخديو توفيق ، فثارت ثائرة بريطانيا وتابعتها فرنسا . لأن الدستور كان يعطى مجلس النواب حق إقرار الميزانية العامة للدولة - الدولة المصرية وليس الدولة البريطانية (١١) - ورأى عتاة

الاستعمار فى هذا النص مساسا بالنفوذ الأوربى ، فأقنعوا الخديو توفيق بالامتناع عن إعلان الدستور . . وأراد شريف أن يتلافى الصدام بين الخديو ومجلس النواب لعلمه أن الخديو سوف ينحاز إلى الإنجليز ويخضع لأوامرهم . . فاقترح تأجيل البت فى البند الخاص بالميزانية . . ولكن العراقيين رفضوا الاستجابة لرأى رئيس الوزراء الذى رفض أن يكون أداة فى يد الجيش وزعمائه . . فاستقال من رئاسة الوزارة وخلفه محمود سامى البارودى . . وفى عهده مضت الثورة العراقية إلى منتهاها .

الوطنية والخيانة

ما هو الخط الفاصل بين الوطنية والخيانة . . ؟ وما هي المساحة المشروعة التي يسمح لرجل السياسة بأن يتحرك فيها . . ؟ فإذا تجاوزها انتقل إلى معسكر الخيانة . . . وحقت عليه اللعنة ؟؟ وأين هو الميزان الذي نحتكم إليه قبل توجيه الاتهام بالخيانة إلى الخصوم ؟؟

إن موقف شريف باشا من أحداث الثورة العراقية ، يفتح الباب لمناقشة هذه القضية الجوهرية . . والذي حدث أن الرجل كان يمثل الأرستقراطية الزراعية في جبهة الثورة ، التي ضمت أشتاتا من العناصر الوطنية الطامحة إلى نمط جديد في الحكم ، يقوم على أنقاض نظام الحكم المطلق الموروث عن محمد علي . . وكان الجناح الليبرالي في حزب الثورة ، بزعامة شريف ، يرى إمكانية تحقيق هذا الهدف عن طريق الدستور وقيام حياة نيابية ، ودون سيطرة الجيش على الحكم . . وكان تصرف شريف وشيعته في هذه المسألة ، نابعا من اقتناعهم المبدئي بأن انتقال السلطة إلى العسكريين ، سيؤدي إلى قيام ديكتاتورية عسكرية على أنقاض ديكتاتورية الخديو . . وكان البلاد سوف تنتقل من استبداد مدني إلى استبداد عسكري ، لا تحمد عواقبه . . فلما احتدمت الأمور بين العراقيين والخديو ، انسحب شريف من جبهة الثورة ، وظل يراقب الأحداث حتى تطورت على النحو المعروف : فشل الثورة ووقوع الاحتلال . . « عندئذ انتقل شريف إلى معسكر الأعداء الذين خانوا الثورة » . . . فإلى أي مدى يمكن تقبل هذا الحكم الذي انتهى إليه الأستاذ صلاح عيسى عبر رحلة من البحث الشاق تضمنها كتابه المهم عن الثورة العراقية ؟

منذ البداية ، يرى صلاح عيسى ، أن شريف باشا تعاون مع الثورة وهو يضم

احتواءها تمهيداً لإجهاضها . . ودليله على ذلك أنه رفض ترشيح الثوار له لتشكيل الوزارة أثناء تظاهرة عابدين ، ولم يقبل إلا بعد شروط اشترطها أهمها : إبعاد قادة الجناح العسكرى ، وحمل أعضاء مجلس النواب على الاعتدال فى مطالبهم ، وانتهاج سياسة الحزم مع الجيش والأعيان على السواء . . ويرى الباحث أن هذه الشروط تتلاقى مع مطالب الاستعمار ، لتهدئة الأحوال فى مصر والانتقال بها من مرحلة الهدنة إلى مرحلة الاستقرار . . هذا هو دليل الاحتواء . . أما عملية إجهاض الثورة فقد تمت - فى رأى الباحث - عن طريق مخطط دبره شريف باشا ، يتمثل فى أنه « كان يعتزم أن يجمع حوله أعضاء مجلس النواب ليصبحوا بالتدريج أصحاب السلطة التنفيذية المشروعة لتصرف الشؤون الداخلية ، ويجردوا الجيش - بهذه الطريقة - من الصفة التى ادعاها لنفسه فى الحركة الأخيرة (يقصد مظاهرة عابدين) بغير حق . بحيث يصبح النواب هيئة ممثلة للأمة يستطيع الخديو والحكومة الاعتماد على تأييدها ضد سلطة الجيش . . » .

وأنت حين تقرأ فحوى هذا الاتهام ، لا تملك إلا أن تتساءل : « هل إسناد السلطة إلى مجلس النواب المنتخب جريمة فى حق الثوار الذين كانوا يطالبون بقيام برلمان منتخب على النسق الأوروبى ؟ وهل نعتبر قيام النواب بتصرف الشؤون الداخلية خطوة نحو عملية إجهاض الثورة ؟ أم أنه لا يجوز قيام « ثورة » إلا على أكتاف العسكريين ؟ وإذا أمكن تحقيق المطالب الوطنية عن طريق مجلس النواب ودون تدخل المؤسسة العسكرية . . ألا يتم التغيير وتحقق الثورة ؟؟ »

وفى رأى صلاح عيسى ، أن إصرار شريف باشا على إقصاء العناصر المتطرفة عن جبهة الثورة ، كان يهدف إلى أمرين ، الأول : منع إنجلترا من استغلال سيطرة المتطرفين كحجة للاحتلال . . الثانى : القضاء على تخوف شريف باشا من أن تؤدى سيطرة المتطرفين إلى تحقيق المكاسب للطبقات التى تمثلها هذه العناصر على حساب الطبقة الأرستقراطية التى يمثلها شريف . . وللدرد على هذا التخريج نقول : إن الحيلولة دون وقوع الاحتلال البريطانى هدف مقدس . . يهون من أجله أى تصرف حتى لو كان إبعاد العسكريين عن الحكم . . فقد كان الاحتلال البريطانى نكبة عصفت بالأخضر واليابس ، وامتصت رحيق مصر لمدة سبعين عاماً أو تزيد . . أما

عن مسألة المكاسب الطبقية . فقد أثبتت الدراسات ، التي أجريت حول الأصول الاجتماعية للعسكريين العربيين ، أن معظمهم ينتمون إلى الشريحة الوسطى من ملاك الأراضي ، وكان يجمعهم بالارستقراطية الزراعية حلف هدفه المشاركة في الحكم ونقل ملكية أكبر مساحة من الأرض الزراعية من أيدي الأجانب إلى أيدي المصريين . . فلم يكن ثمة خطر على الشريحة الوسطى من الشريحة الأعلى . . وإنما كان الخطر من جانب الملاك الأجانب الذين اتسعت ملكياتهم في عصر إسماعيل وبعد . . ألا ترى أن مسألة الاتهام بالخيانة ليست بالبساطة التي نمارسها أحيانا ؟ . .

مسرحية متقنة الصنع

بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢) ، أيقن أحمد عرابى أنه لا أمل فى الصمود . . فهرع إلى القاهرة ، وسلم نفسه إلى سلطات الاحتلال البريطانى التى أصبحت - منذ هذا اليوم المشؤم - صاحبة الكلمة الأولى فى إدارة شئون مصر . . وأضحى الخديو توفيق مثل خيال المآة . . لا تتعدى سلطاته حدود قصره . . وبدأت إجراءات التحقيق مع عرابى وزملائه الستة تمهيداً لمحاكمتهم . . ورأى الإنجليز أن تقتصر قائمة الاتهام على تهمة واحدة فقط هى : عصيان الخديو وأن يصدر الحكم على عرابى وزملائه بالإعدام متضمننا التخفيف إلى النفى المؤبد خارج مصر . .

وكان توفيق الخائن ، لا يرى بديلاً عن إعدام عرابى « ولو كانت توجد عقوبة أشد فتكا وتنكيلاً من الإعدام ، لما تورع عن استعمالها . . ولو ترك توفيق وهواه لاستخدم مع عرابى أبشع فنون التعذيب ، التى تعودها حكام الشرق وسودوا بها صحائف التاريخ . . ولكن الإنجليز . . وقد استقرت لهم الأمور . . وقفوا فى وجه توفيق . . وحالوا بينه وبين رقبة عرابى . .

وبدا الأمر فى غاية الغرابة . . ١١

**** حاكم البلاد الشرعى ، يطالب برقبة الزعيم الوطنى الذى وقف فى وجه الغزو الإنجليزى ، ثم انكسر بفعل الخيانة والعجز والتردد . .**

**** وسلطات الاحتلال ترى الإبقاء على حياته ١١**

وكان هذا الموقف المحير - ولا يزال - مثار دهشة الباحثين ونقاد التاريخ . . وقد

حاول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن يلقي ظلالاً من الشك حول قيام علاقة مشبوهة بين عرابى والإنجليز ، مستعيناً فى ذلك بمزاعم الساسة الفرنسيين . . وقد بلغ بهم الشطط أن ادعوا وجود اتفاق مسبق بين عرابى والإنجليز على احتلال مصر !!

ومع أن الرافعى وصف أقوال المسئولين الفرنسيين بأنها (إسراف فى الاتهام) ، إلا أنه لم يكلف نفسه مسئولية مناقشة هذا الاتهام الفظيع ودحضه . وكشف ما ينطوى عليه من تهافت وسطحية . . وأى ناقد للتاريخ يعرف دوافع المزاعم الفرنسية : فقد خرجت فرنسا من سياق احتلال مصر خاسرة ، واستطاعت إنجلترا أن تنفرد بمصر وتفترسها ، بعد أن خدعت الذئاب الأوربية الأخرى وأبعدتها خارج الحلبة . . فلم تجد هذه الذئاب من وسيلة للتعبير عن حنقها وخيبتها سوى التشنيع والتشكيك فى وطنية عرابى واتهامه بالتواطؤ مع أعدائه . . وظل هذا الاتهام معلقاً برقبة العرابيين سنين طويلة . . والمؤسف أن تأثرت به بعض العناصر الوطنية ، مثل مصطفى كامل والشاعر أحمد شوقى ، وبدا هذا التأثير واضحاً فى كتابات الرافعى التى تزخر بالتحامل والتجنى على الحركة العرابية .

* * *

ولكن السؤال الأهم الذى لايزال قائماً هو : لماذا أظهر الإنجليز هذا القدر الكبير من التسامح مع عرابى ؟ ولماذا أصروا على الإبقاء عليه حياً ، وهم الذين جردوا الأساطيل للقضاء عليه ؟

لقد ظهر عطف الإنجليز على عرابى منذ وقع فى أيديهم ، وهددوا الخديو إذا أصابه مكروه ، وأمروا بأن يعامل معاملة إنسانية فى سجنه ، ولا يتعرض لأى تعذيب . . بينما كان الخديو الخائن يبعث تابعه إبراهيم أغا فى منتصف الليل ، ليفتح الزنزانة على البطل الأسير ، ويوقظه من نومه ثم يبصق فى وجهه وينهال عليه بأفدع الشتائم . . وعين الإنجليز مندوباً خاصاً (تشارلس ويلسون) لحضور مراحل التحقيق مع عرابى ، وتدخلوا فى توجيه التحقيق ، بحيث يقتصر على تهمة العصيان وتبرئته من تهمة تدبير مذبحة الإسكندرية ، التى وقعت قبل شهر من ضرب الإسكندرية .

وفى نفس الوقت ، كانت هناك اتصالات تجرى وراء الكواليس عبر القاهرة ولندن

هدفها إنقاذ عرابى من جبل المشنقة . . وكان محور هذه المساعي الكاتب الحر والسياسى الإنجليزى الشهير مستر (بلنت) صديق العربيين الحميم ، وكاتم أسرارهم منذ فجر الحركة الوطنية . . وقاد بلنت حملة إعلامية من أحرار الإنجليز لتحريك رأى العام الإنجليزى ، ليرغم حكومته على إنقاذ البطل القومى المصرى الذى ثار على الظلم والطغيان والسخرة وحكم الفرد ، وتطلع مع شعبه إلى حياة جديدة تناسب روح العصر ، ويتحقق فيها قدر معقول من العدل والمساواة والمشاركة فى إدارة البلاد . .

وبينما كان عرابى عاجزاً عن توكيل محام مصرى ، يتولى الدفاع عنه أمام المحكمة المصرية (!!) كان بلنت قد نجح فى تكليف محام إنجليزى للدفاع عن عرابى وإخوانه . . وجاء الرجل إلى القاهرة وقام بمهمته الجليلة . . وتم الاتفاق مع سلطات الاحتلال على صيغة الاتهام ومنطوق الحكم . . حتى إذا وقف عرابى أمام قضاته ، كان كل شىء قد تم إعداده مسبقاً . . وبدأت المحاكمة مثل مسرحية متقنة الصنع .

مذنب .. أم غير مذنب ؟

لم تستغرق محاكمة زعيم الثورة العرابية أكثر من خمس دقائق ، كانت كافية لأن يؤدي كل طرف من أطراف المسرحية دوره المرسوم بإتقان . . وشهدت قاعة مجلس النواب القديم (قاعة مجلس الشورى حاليا) ستار الختام ، وهو ينسدل على تلك الملحمة الأسطورية الباسلة التي خاضها الشعب المصرى ضد الاستبداد والظلم والتدخل الأجنبى . . ولكن . . هاهو ذا الحلم الذى راود قلوب المصريين فى الحرية والعدل . . يخبو ويدبل . . وهاهو ذا البطل القومى المهزوم يقف أسيراً بين براثن أعدائه ليؤدي الدور الذى كتبوه له . . ولم يكن مطلوباً منه أن يتكلم أو يدافع عن نفسه . . حتى إذا سألته المحكمة عما إذا كان مذنباً أم غير مذنب - أشار إلى محاميه الإنجليزى ، مستر برودلى ، فيقف ليتلو بالفرنسية اعترافاً من زعيم الثورة بأنه مذنب . . ثم يقدم إلى هيئة المحكمة نص الوثيقة التى وقعها عرابى فى صبيحة ذلك اليوم ، ونصها : « بمحض إرادتى الحرة ، وبناء على مشورة محامى . أقر بأننى مذنب فى التهمة التى تليت على الآن » .

والمقصود تهمة التمرد على الجناح الخديو .

وتنفض المحكمة لمداولة صورية تستغرق ست ساعات . . أغلب الظن أن أعضاء المحكمة التسعة قضوها فى تدخين الشيشة . . فلم يكن هناك شىء يستحق المداولة . . لأن رئيس المحكمة - الفريق رءوف باشا - كان يحمل فى جيبه نص الحكم ، الذى كان محكوماً عليه بأن ينطق به أمام جمهور معظمه من الصحفيين الأجانب الذين كانوا يعرفون التطور الدرامى للمحاكمة . . ١

هل كان عرابى مخطئاً ، حين قبل الاشتراك فى هذه المسرحية التى انتهت بتخليص

رقبته من حبل المشنقة ، ومعه رقاب ستة من أكبر أعوانه وإبعادهم جميعا خارج البلاد . . ٢٢؟

من السهل على قارئ التاريخ المعاصر ، أن يصدر حكما تعسفيا على هؤلاء الرجال ، مدفوعا بعاطفة الحماسة . . ولكن من الصعب على الباحث المنصف أن يصدر مثل هذا الحكم ، قبل أن يلم إلمامًا كافيا بالظروف والملابسات ، التي أحاطت بالحدث ، وبشرط أن يتجرد من مشاعر الحب والبغض . . وبذلك يكون حكمه أقرب إلى الانصاف والعدل . .

أما خصوم الثورة العرابية ، فيأخذون على زعيمها قبوله توكيل محام إنجليزي للدفاع عنه ، أمام محكمة مصرية . . ويتخذون من ذلك ذريعة لاتهام عرابي بالتواطؤ مع الإنجليز . .

والواقع أن عرابي لم يقصر في توكيل محام مصري عنه . . ولكن الذى حدث أن هذا المحامى المصرى ، تنصل من القيام بواجبه خوفا من بطش الخديو . . بينما كان مستر بلنت - صديق العرابيين - قد نجح مع أصدقائه الأحرار الإنجليز ، فى الاتفاق مع مستر برودلى وزميله نيبير للدفاع عن عرابي وإخوانه . . وعندما جاء المحاميان الإنجليزيان إلى مصر ، وجدا سلطات الاحتلال قد شددت قبضتها على شئون مصر. وال إليها زمام الأمر كله ، فكان لابد من «تسوية» ترضى جميع الأطراف .

* * *

كان لورد دوفرين - سفير إنجلترا فى الأستانة وأحد أساطين الاستعمار البريطانى قد جاء إلى القاهرة عقب الاحتلال ليرسم مستقبل مصر فى ظل الاحتلال ، ويضع البرنامج الاستعمارى طويل الأجل الذى سيقوم بتنفيذه تلميذه النجيب لورد كرومر. . وكان من رأى دوفرين ، الفراغ بسرعة من قضية العرابيين ، وإغلاق هذا الملف الثورى إلى الأبد ، حتى تتفرغ إنجلترا لمهمتها الاستيطانية فى مصر . . ولذلك وضع دوفرين الخطوط الرئيسة لمسرحية محاكمة العرابيين ، وأشرف بنفسه على إخراجها وتوزيع الأدوار على كل طرف من أطرافها . . فلما كشف أفندينا توفيق الخائن عن نياته الانتقامية من عرابي وإخوانه ، تصدى له دوفرين ، وأظهر له

يدا حديدية ملفوفة في قفاز من المخمل . . فتراجع أفندينا ، ورضى بالأمر الواقع . .

كان دوفرين يعارض إعدام عرابي . . ليس لأنه لا يستحق الموت . . ولكن لأن الرأي العام الإنجليزي ، ومن خلفه أحرار أوروبا وأمريكا ، كانوا يعتبرون الثورة العرابية حركة شعبية وطنية ، وأن عرابي وزمرته أبطال يستحقون التمجيد . . ولم تكن حكومة جلادستون في لندن على استعداد لتجاهل هذا التيار المستنير المؤثر .

هذه واحدة . . أما الثانية ، فترجع إلى نيات الاحتلال في مصر وعزمه على البقاء فيها لأطول فترة ممكنة بدون إزعاج ، وبدون هبات شعبية تهدد وجود الاحتلال الأمر الذي يتطلب الإبقاء على حياة عرابي ، حتى لا يصبح مصدر إلهام لثورات متجددة . . وكان لابد من إغلاق ملف البطولات الشعبية ، حتى تموت بذور الثورة بموت أبطالها في جزيرة نائية غارقة في مياه المحيط الهندي .

وأثمرت خطة الاستعماري العريق دوفرين ، وعاشت مصر أقسى فترات حياتها فسادًا وانحلالًا . . وغلب اليأس على النفوس حتى فقد الناس الأمل في صبح جديد . . ولكن مصر الولود المعطاء ، لم تلبث أن أفاقت من غشيتها ، ونهضت تفك قيودها وتسترد روحها . . وظهر مصطفى كامل صوتًا جهيرًا عم صدها أنحاء البلاد فأيقظ النيام بعد طول رقاد . . وتفجرت ثورة ١٩١٩ لتمحو عار الهزيمة بعد ٣٧ سنة من وقوعها ، وثبتت أن في السويدياء رجالًا يأبون الضيم والخنوع والاستعباد . .

أمراء .. لكن شرفاء

فى تاريخ الثورة العربىة صفحة مجهولة ، تتعلق بموقف أمراء الأسرة العلوية من هذه الثورة .. خاصة عندما تطورت الأحداث إلى ذروة الصدام المباشر بين عربى باشا من جهة ، وتوفيق خديو مصر وعميد الأسرة العلوية من جهة أخرى .. وكان على أفراد الأسرة أن يحددوا موقفهم من المعسكرين .. وهو الاختيار الصعب .

ومن الحقائق المعروفة أن توفيقا هذا .. لم يكن يتمتع باحترام أو تأييد أقاربه لأسباب كثيرة ، بعضها يرجع إلى تكوينه الخلقى الذى كان من أبرز مميزاتة الجهل والغباء والتردد والغدر ، وبعضها الآخر يتعلق بالصراعات داخل الأسرة نفسها .. وهى صراعات ، كان يقودها أمراء أقوياء يرون أنفسهم أحق بالحكم من توفيق لولا اللعبة التى دبرها والده إسماعيل لتغيير نظام وراثته العرش ، وبمقتضاها أصبح الحكم من نصيب أكبر أبناء الولى بعد أن كان من حق أكبر أفراد الأسرة .. وكانت تلك غلطة إسماعيل القتالة .. ولعله هو نفسه كان أول ضحاياها .. فلم يكن ابنه توفيق - وهو ولى للعهد - ببعيد عن مؤامرة عزل أبيه .. وكان أقوى المناوئين الأمير عبد الحليم أصغر أولاد محمد على الذى نحاه إسماعيل ونفاه إلى الأستانة .. ومن هناك كان يحيك الدسائس لاستعادة عرشه السليب .. وكان هناك أيضا الأمير مصطفى فاضل ، شقيق إسماعيل ، الذى أبعد عن العرش ليحل محله توفيق الغبى الجهول .

ولكن هذه الصراعات العائلية ، تضاءلت أمام الحدث الأكبر ، حين تعرضت مصر للغزو الإنجليزى ، وانهاالت قنابل الأسطول على الإسكندرية فى يوليو ١٨٨٢ وكشف توفيق عن وجهه القبيح بانحيازه العلنى إلى جيش الاحتلال .. وبينما كان

الجيش المصرى يصنع المستحيل لصد الهجوم ، اجتمع قادة الأمة من كل الفئات والطبقات والأديان ، وأصدروا قرارًا تاريخيًا بالوقوف خلف الجيش المصرى ، بقيادة عرابى ، وعدم الاعتراف بالأوامر التى يصدرها توفيق الخائن من مكمنه فى الإسكندرية . « حيث إن الخديو خرج على الشرع الحنيف والقانون المنيف » . . . وكان فى طليعة الموقعين على هذه الوثيقة التاريخية ثلاثة من أمراء الأسرة العلوية .

وفى أثناء معركة كفر الدوار ، ظهرت حاجة الجيش المصرى إلى المال والعتاد والمؤن، بعد أن استولى السير « كالفن » المراقب المالى الإنجليزى على أموال الخزانة المصرية ، وحملها فى الأسطول الإنجليزى المربط فى الإسكندرية . . . وهنا ظهرت معادن المصريين الأصيلة ، فجادوا بما لديهم من نفس ومال وغلال وعتاد وخيول ودواب . . . ولم تتخلف أميرات الأسرة العلوية عن المساهمة فى هذا الواجب المقدس . . . وفى طليعتهن الأميرة خوشيار أم الخديو إسماعيل ، التى تبرعت بجميع خيول عرباتها . . . واقتدى بها بقية أفراد العائلة ، على النحو الذى يرويه عرابى فى مذكراته . . .

على أن الجانب المثير فى موقف أميرات الأسرة العلوية ، إنما يتجلى رائعًا بعد فشل الثورة وانفضاض الذباب من حولها . . . ففي هذا الوقت العصيب ، الذى تنكر فيه الانتهازيون للثورة وتبرءوا منها . . . ظلت الأميرات على مبدئهن المؤيد للثورة وقائدها . . . ولم يمنعهن الخوف من بطش الخديو ، من الوقوف إلى جانب عرابى فى محنته . . . وبقين معه حتى اللحظة التى غادر فيها مصر إلى منفاه السحيق . . . وبينما كان عرابى يستقل القطار من قصر النيل إلى السويس ، انهالت عليه هداياهن الثمينة اعترافًا بمجده وبطولته . . . فبعثت إليه واحدة بمعطف ثمين ، وأرسلت أخرى مصحفًا كبيرًا ، وثالثة سجادة صلاة . . . إلخ .

ويكشف مستر برودلى - محامى عرابى الإنجليزى - عن هذه الصفحة المضئية فيقول : إن عرابى وجد فى سيدات مصر أكبر عون فى ثورته . . . فقد ساعدنه منذ اللحظات الأولى مساعدات لها قيمتها . وظللن يقدمن هذه المساعدة ، حتى بعد أن فقد آخر أمل فى النصر . . . بل إن أميرات الأسرة الخديوية - باستثناء أم الخديو وزوجته - كن يعطفن عطفًا كبيرًا على عرابى باشا ، وألفن عدة جمعيات مهمتها

مساعدة ومواساة الجرحى في موقعة كفر الدوار ، والاستعداد لمواجهة مصاعب القتال القادمة إلى حد الاشتراك في الصفوف ذاتها . . وتلقى برودلى من أرملة الوالى سعيد باشا خطابا تشكره فيه على دفاعه عن عرابى .

ويعلق برودلى على ذلك بقوله : ولاشك أن هذا خير رد على أولئك الذين يزعمون أن حركة عرابى لم تكن إلا حركة فردية ، فهى فى الحقيقة حركة شعبية أسهم فيها المصريون جميعا .

وكشف برودلى ، فى مذكراته التى ترجمها محمود كامل المحامى ، عن لقاء مثير تم بينه وبين إحدى الأميرات ، لم يفصح عن اسمها خوفا عليها من انتقام الخديو قالت الأميرة : كانت كل واحدة منا - نحن الأميرات - تعطف على عرابى منذ البداية ، لأننا نعرف أنه كان يرغب أصلا فى تحقيق أمانى المصريين جميعهم ، وكنا جميعا ننظر إلى عرابى نظرة الرجل المدافع عن البلاد إزاء الإنجليز الذين التجأ إليهم الخديو ، فعقدت مجالس كثيرة من رجالات مصر فى القاهرة . اشترك فى بعضها الأمير إبراهيم والأمير كامل والأمير أحمد ، وقررت هذه المجالس مساعدة عرابى حتى يسير بالحرب إلى النهاية . . لقد رأينا فيه القائد . وكانت لدينا كل الثقة به ، فكتبنا له الرسائل والبرقيات مشجعات مهتئات . . بل إن إحدى الأميرات كتبت له خطابا غريبا تطلب منه الزواج بها لأنه منقذ مصر ، فلما علمنا بهزيمته استولى الحزن علينا جميعا . . وقد عوقبت الأميرة التى طلبت الزواج بعرابى شر عقاب ، بالرغم من أن والدتها اعترفت بأنها هى التى كتبت الخطاب ، ووقعته باسم ابنتها . . ولكن الأميرة خوشيار عرفت كيف تؤدب الشخص الذى وشى بسر الخطاب إلى الخديو . فضربت به بمقعد على رأسه . . وأخيرا صدرت إلينا الأوامر بالذهاب إلى القصر . وكنا نبكى من الخوف والذعر . وبعد أن وبختنا والددة الخديو قالت لنا إن الإنجليز سوف يسلمون عرابى إلى الخديو ليقتله شر قتلة ، وأمست بكشف طويل فيه كثير من أسائنا مع العقوبات الموقعة علينا . . وعندما علمنا بأن حياة عرابى مهددة ، ساد الوجوم والحزن فى دوائر القصر كأن أحدا من الأسرة نفسها قدم مات . . !

واختتمت الأميرة حديثها إلى المحامى الإنجليزى قائلة : « بعد كل ما حدث . . لا يمكن أن يستتب أمن فى البلاد . . لا لنا . . ولا لكم . . ولا لمصر . . » .

عصر الشهادة

كانت الكنيسة المصرية منذ نشأتها حصنا للوطنية ، ورمزاً للصلاية والصمود في وجه السيطرة الأجنبية الدخيلة ، ومقاومة العقائد الوثنية الفاسدة . . وعلى امتداد عهود القهر الرومانى ، التى استطالت سبعة قرون إلا ربع قرن ، كان المصريون يلوذون بكنيستهم كلما أوجعتهم ضربات الرومان ، فيجدون فى رحابها طمأنينة الإيمان واستقلال الرأى والضمير ، ورفض الذل والمهانة ، والتمرد على جبروت الحاكم مهما كانت فظاعة البطش والتنكيل .

فى كنيسة الإسكندرية ، امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية ، فأكسبها ذلك قوة روحية ومادية ، جعلت منها ندا مناوئاً للإمبراطورية الرومانية ، فى وقت بلغت فيه هذه الدولة غاية القوة والاقتدار وآلت إلى ممتلكاتها دول ذوات مجد عريق ومنها مصر . . وتحول أبناء العز القديم إلى أتباع وعبيد للأرض ، يعملون ويكدحون من أجل مجد روما ، ورفاهية السادة الأشراف الذين جعلوا من الإمبراطور إلها يعبد وتقدم له القرابين . . ولفقوا من بقايا العقائد الوطنية الرجعية ديناً فرض على شعوب الإمبراطورية أن يعتنقوه .

فى ذلك العصر الوثنى الكتيب ، كان المصريون ينكفئون على ذواتهم ، فيجدون نفحات الإيمان تسرى فى أوصالهم ، منذ عرفوا عقيدة التوحيد قبل قرون من ظهور نجم روما وبيزنطة . . فلما ظهرت النصرانية دينا إلهيا يدعو إلى عبادة الإله الواحد الصمد ، ونبد عبادة البشر ، لاذ به المصريون واعتنقوه . . وأصبحت مصر مصدر قوة وإشعاع للدين الجديد . . منها تخرج قوافل التبشير ، وفى صحاريها الصامته تقام صلوات وصوامع وبيع يذكر فيها اسم الله . . وظهرت الرهبانية احتجاجاً عملياً

على السلطة الوثنية التي ترغمهم على ما يكرهون . . وهج الرهبان إلى فجاج الصحراء ، فرارا بدينهم من طغيان دولة لا يضمرون لها سوى البغض والاحتقار ، ولا تضمّر لهم سوى المهانة والإذلال .

عندئذ أدرك الأباطرة أن المسيحية هي الأعلى التي تهدد مجد الإمبراطورية . . وأن رأس الأعلى هي مصر . . ولذا كان نصيبها من العنت والاضطهاد متناسبا مع دورها الطبيعي في زعزعة أركان الإمبراطورية ، سواء في مجال العقيدة الدينية ، أو في مجال السلطة الزمنية . . فانهاالت مطارقهم على رأس الكنيسة ، لما كانت تحمله من روح العناد وبث نزعة التمرد في نفوس المصريين . . فلما جاء عام ٢٨٤ ميلادية ، اعتلى عرش بيزنطة الإمبراطور دقلديانوس . فأقسم برأس آلهته الوثنية أن يؤدب المصريين أدبا يجعلهم عبرة لكل متمرّد جسور . . وجاء بنفسه إلى مصر شاهراً سيفاً ظل يعمل به في رقاب المسيحيين ، حتى سالت دماؤهم أنهاراً . . وبر بالوعد والوعيد الذي قطعه على نفسه ، بأن تغوص سنايك خيله في بحر من دمائهم . . ولقد تحمل المصريون هذه المجزرة الرهيبة بما فطروا عليه من صبر على المكاره ، وثبات في الشدة ، حتى إذا انجلت المحنة كان حرياً بالأقباط أن يجعلوا من سنة ارتقاء هذا الإمبراطور المفترس عرش بيزنطة بداية للتقويم القبطي ، وأن يجعلوا من دماء الشهداء التي أريقت بداية لحلقة جديدة من التاريخ المصري المجيد ، وهي الحلقة المعروفة بعصر الشهداء .

ولقد ذهب دقلديانوس . . وجاء من بعده أباطرة اعترفوا بالنصرانية بعد أن رفعوا عنها الأغلال . . ثم جاء من بعدهم أباطرة اعتنقوا النصرانية ، وجعلوا منها ديناً رسمياً للإمبراطورية . . وقامت في بيزنطة كنيسة خلعت على نفسها صفة القيادة والريادة لما سبقها من كنائس . . وكان المفترض أن يتوقف اضطهاد المصريين بعد هذا التحول الكبير في ديانة الدولة المتسلطة ، ولكن الاضطهاد لم يتوقف من جانب الرومان ، ولم يتوقف السخط والعناد من جانب المصريين . . وكان سبب الصراع الجديد يرجع إلى الخلافات المذهبية التي نشأت بين الفرق المسيحية ، حول طبيعة السيد المسيح . . لقد تغير سبب الاضطهاد ، ولم يتغير نوع الاضطهاد الذي شقى به المصريون في ظل دولة تزعم أنها تعتنق المسيحية . . كانت كنيسة بيزنطة الرسمية تستنكف أن يبقى لكنيسة الإسكندرية سلطانها الروحي والأدبي الذي صنّعه عبر

أجيال وأجيال من صمودها وثباتها في وجه الطغيان . . وكانت الكنيسة المصرية تتمسك باستقلالها الدينى والوطنى ، وتأبى أن تساوم على رأيها في قضية تتعلق بالعقيدة لمجرد الإذعان والخضوع لسلطان الكنيسة الإمبراطورية .

وحين اكتشف الأباطرة أن هذا الخلاف المذهبى هو غطاء يخفى تحته ضغائن المصريين ، تجاه الدولة الحاكمة ، ضاعفوا من ضرباتهم للأتباع الكنيسة الوطنية وأبعدوهم عن الوظائف العامة ، حتى يضيروهم في أرزاقهم ، ويرغموهم على النزول عن كبرياتهم . . ولكن كل هذه الضغوط لم تفلح في زحزحة المصريين عن عنادهم أو تغيير موقفهم الرافض للسيادة الرومانية على مقدراتهم الدينية والوطنية . وفى ذلك يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد .

« إن اللازمة التى لا فكاك منها ، تبرز على الأثر ، كلما اجتمعت الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية في جانب ، وهذه القوة المتجمعة من غيرة الدين وخماسة القومية هى التى اعتصم بها المصريون زمنا في وجه الدولة الرومانية قبل إيمانها بالمسيحية ، وبعد إيمانها بالمسيحية . لقد اضطهد المصريون من قبل من جانب الأباطرة والقيصرة الوثنيين والمتدينين ، ولم يكن هذا الاضطهاد خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، فلما وجدت للمصريين كنيسة قائمة . . كانت هى الدين والدولة في وقت واحد ، أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيتها في وجه القوة المفاجئة » . .

حتى إذا أوشكت شمس الإمبراطورية على الغروب ، كان الخلاص منها قد أصبح حلما يساور زعماء الكنيسة الوطنية ، وساد الناس شعور واحد ، وهو شعورهم بالغضب الإلهى على هذه الدولة الظالمة وانتظار الجزاء العادل من الله . . فلما تقدم المسلمون لحرب الروم ، شاع في المشرق كله أن هزيمتها حق ، وأن غلبة المسلمين عليها عدل ، وأن القضاء الإلهى ينفذ في مستحقه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية .

خير أجناد الأرض

كان المصريون على موعد مع الفتح الإسلامى ، بحكم الجوار للأرض المقدسة وقد ترامت إلى أسماعهم أنباء الهزائم المتوالية التى منيت بها الجيوش الرومانية فى الشام وفلسطين . . وبلغتهم مأساة هرقل ، وقد أرغم على الجلاء عن القدس ، فوقف على أسوارها يلقي عليها نظرة الوداع الأخير ، وفى عينيه دموع الدل والانكسار . . وتناقل المصريون فيما بينهم قصة الخليفة عمر بن الخطاب الذى حضرته الصلاة ، وهو فى صحن الكنيسة الكبرى بيت المقدس ، فغادرها ليصلى على درجها منفردًا ، حتى لا تثول إلى ملكية المسلمين ذكرى لصلاة الخليفة فيها . . وتسامع المصريون بصيغة العهد الذى كتبه الخليفة المنتصر لبطارقة بيت المقدس ، وأعطاهم فيه الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم : لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يتقص منها ولا من صليبيهم ولا من شئ من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم . . حتى الروم المهزومون ، شملهم العهد ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه ، ومن أقام منهم فهو آمن .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها المصريون عن الإسلام والمسلمين . . فقد تلقى المقوقس رسالة النبى صلى الله عليه وسلم التى يدعو فيها إلى الإسلام وتلقى النبى جواب المقوقس مؤذنا بالأمل غير قاطع بالإباء ، إذ يقول فيها : « فهمت ما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . . وقد أكرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام » . وقال النبى لصحابته الأقربين « ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » . ثم قال : « إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا بها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد

الأرض» . فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم يارسول الله ؟ قال : « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » .

فمصر لم تكن بعيدة عن الدعوة المحمدية منذ البداية . . ولم يكن الإسلام طارئاً مفاجئاً لمصر عندما أشرفت عليها جيوش المسلمين . . « فما كان من مسلم ، في حياة النبي عليه السلام ، أو بعد وفاته ، إلا وهو يعلم أن مصر مفتوحة للمسلمين على يقين ، وإنما هو الأوان المحتوم ، في يوم غير معلوم » ، على حد تعبير الأستاذ العقاد . . ولقد جاء الأوان المحتوم ، وليس في مصر من يود بقاءها في حوزة الدولة الرومانية بعد الذي كان منها من طغيان وجور وظلم . . كل ذلك أساء إلى المصريين في دينهم ودنياهم ، وجعلهم يتعجلون اليوم الذي تزول فيه هذه الدولة الظلمة . . فلما تقدم جيش الخلاص ، بقيادة عمرو بن العاص ، رحب به المصريون ، وقدموا له كل ما في مكتتهم من عون . . وفي ذلك تقول الدكتورة سميرة بحر في كتابها (الأقباط في الحياة السياسية المصرية) : ولاشك أن أقباط مصر قدموا العون للمسلمين أثناء فتحهم لمصر ، وإن كان هذا لا ينفي حدوث بعض المقاومة ، فمن الواضح أنه لم يكن للأقباط مصلحة في الدفاع عن سيد (الدولة البيزنطية) الذي أذاقهم مر العذاب في محاولته القضاء على استقلالهم .

ومع الفتح الإسلامي ، بدأت حلقة جديدة من حلقات التاريخ المصري ، أهم ما يميزها روح التسامح وحسن العشرة بين أتباع محمد وأتباع المسيح . . واختفت صور الاضطهاد التي شغلت التاريخ القبطي طوال عهد الاحتلال الروماني ، ولم نسمع على مدار التاريخ الإسلامي عن حادث مشابه لتلك الفظائع التي أودت بحياة الكثير من الأقباط ، وجعلتهم في عداد الشهداء الذين تعزز الكنيسة بسيرهم وتحرص على ذكر بطولاتهم في اجتماعات الصلاة الدورية ، فلا يمضي شهر دون الاحتفال بذكرى واحد منهم . . وكان موقف الحكام المسلمين في ذلك متمشياً مع مبادئ الإسلام التي تقوم على أساس من احترام العقائد ، ورفض القسر والإكراه في أمور الدين . . وجاء النص القرآني صريحاً في تحريم الإكراه ، ولم يكن لأي حاكم مسلم مهما بلغ من الجبروت أن يجبر أحداً على الإسلام .

وفي ظل الإسلام ، استعاد المصريون نزعتهم الأصيلة في الاعتدال وكرامية

التعصب . . . وتشربوا عناصر التراث الاجتماعى والثقافى فى العادات والتقاليد ، حتى ليصعب على الغرباء تمييز المسلم عن المسيحي ، فيما يمارسه من عادات فى أفراح الزواج والولادة والمآتم والجنائزات والمعيشة اليومية . . . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر جبار الاحتلال البريطانى - كرومر - فأشار إليها فى كتابه (مصر الحديثة) بهذه الكلمات : القبطى الحديث ، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فى السلوك واللغة والروح مسلم ، وإن لم يدر كيف ؟ فالقبطيات محجبات كالمسلمات ، والأطفال تأقلموا بشكل عام ، وعادات الزواج والوفاة مشابهة لتلك المتبعة لدى المسلمين .

ويضيف الدكتور ميلاد حنا إلى هذه الصورة بعض الرتوش الفولكلورية فيقول : ولقد أوجد التاريخ المشترك والوجود المتداخل أعيادًا دينية مشتركة ؛ فالأيام الأولى للسنة الهجرية (عاشوراء) يحتفل بتقاليدها فى أغلب بيوت الريف المصرى الأقباط والمسلمون ، وعندما يحل المولد النبوى ، يطالب الطفل القبطى بالحصان وتبكي الطفلة القبطية لتحصل على (العروسة الحلاوة) ، ويجمع شمع النسيم الذى يأتى عقب عيد القيامة مباشرة كلا من الأقباط والمسلمين انطلاقًا من تراث يعود إلى أيام الفراعنة وعيد الحصاد ، وحول ضريح سانت تريزا تتجمع المسلمات والقبطيات وفاء لنذر أو طلبا لحاجة .

وعلى اختلاف عهود الحكم الإسلامية ، كان الأقباط موضع التقدير والإعزاز من جانب الحكام ، وبلغ بغضهم فى المناصب العليا شأوا عظيما ، مثل عيسى بن نسطوروس الذى كان وزيرًا للخليفة الفاطمى العزيز بالله بن المعز لدين الله . . . وفى الحكم التركى المملوكى شغل بعض الأقباط مناصب رفيعة . يقول الدكتور زاهر رياض فى كتابه (المسيحيون والقومية المصرية) : إن الأقباط كانوا من أشد المقربين إلى على بك الكبير ، وإلى مصر فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، فقد كان المعلم رزق اليد اليمنى لعلى بك ، وإليه يرجع الفضل فى التنظيم المالى الذى استند إليه على بك ، سواء فى مصر أو فى سوريا ، كما كان المعلم يعقوب والمعلم إلياس بقطر أكبر عون لمراد بك فى محاولة الخروج على السلطان .

ومن الشخصيات القبطية المرموقة ، قبل عصر محمد على ، المعلم إبراهيم الجوهري الذى يصفه الجبرتي بأنه كان رجلا عظيما فى خلقه وفى عمله سخيا كريما .

أما أخوه جرجس الجوهري ، فقد كان أحد البارزين في دولة محمد علي ، إلى جانب المعلم رزق أغا الذي تولى حكم الإقليم الواقع وراء فرع دمياط ، والمعلم غالى الذى عهد إليه بمسح عموم أراضي مصر ، وبطرس غالى أغا ناظر شئونات الغلال وعيد فرج أغا حاكم دير مواس ، وميخائيل عبده حاكم الفشن ، ومكرم أغا حاكم أطفيح . وتكلا سيداروس حاكم بهجورة ، وأنطون أبو طاقية في الشرقية ، وعبود كاتب الخزانة ، وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول له « لولا الملامة لقلدتك الدفتردارية » وهو المنصب الذى كان يتولاه ابنه إبراهيم باشا .

كيرلس الخامس

كان البطريرك كيرلس الخامس ، من أطول آباء الكنيسة المصرية عمرا . . فقد تولى قيادة الكنيسة في عصر الخديو إسماعيل ، ومات في ١٧ أغسطس ١٩٢٧ ، قبل أسبوع من وفاة سعد زغلول . . وعاصر خمسة من حكام مصر : إسماعيل ، وتوفيق وعباس الثانى ، وحسين كامل ، وأحمد فؤاد . . وعاش خلال فترة كرازته - التى بلغت ٥٣ عامًا - أحداثًا جساما من تاريخ مصر الحديث : الثورة العرابية ، ثم الاحتلال البريطانى ، والحرب العالمية الأولى ، وثورة ١٩١٩ ، ثم استقلال مصر وظهور أول حكومة شعبية في ١٩٢٤ .

وكان كيرلس الخامس شخصية فريدة ، تجمع بين المهابة والوقار والحزم ، إلى جانب الزهد والورع . . ولكن المدهش فى شخصية هذا البطريرك ، هو مشاركته الإيجابية فى كل الأحداث الخطيرة التى تعرضت لها مصر خلال عمره المديد . منها موقفه المساند للثورة العرابية حتى النهاية ، فكان فى مقدمة الذين وقعوا عريضة خلع الخديو توفيق الذى استعان بالإنجليز لضرب الثورة ، فلما وقع الاحتلال ، تصدى البطريرك لكل المحاولات التى بذلها الإنجليز ، لوضع الكنيسة المصرية تحت الحماية البريطانية ، ورفض العروض التى قدمها اللورد كرومر ، لمنح المدارس القبطية معونات مالية . . وبعد ثورة ١٩١٩ وقف إلى جانب الثورة ، مؤيدا ومباركا تآلف المسلمين والقبط ، تحت علم الوحدة الوطنية ، ولما حاول الإنجليز إجهاض الثورة والتلويح بحماية الأقباط ، رد عليهم قائلا : إن المصريين شعب واحد وحمايته موكولة لله وحده .

كتب عنه عباس محمود العقاد : كان كيرلس الخامس ناسكا متعبدا مؤمنا

برسالته الدينية أشد الإيمان ، وكان - مع رعايته لفرائض الدين - لا ينسى فرائض الكرامة الدنيوية في معاملته لأصحاب السلطان ، ولو كانوا من الملوك أو في حكم الملوك ، وقد خطر لعميد الاحتلال - لورد كيتشنر - أن يلقاه كيرلس على غير موعد فذهب إلى دار البطيركية وأمر الحجاب أن يبلغوا صاحب الغبطة أن فخامته موجود في الدار . . وهول الحجاب وهو يلهث صائحا : اللورد يا أبانا . . اللورد يا أبانا . . فسأله في أناة : من اللورد يا هذا ؟ وعلم جليلة الأمر فلم يزد على أن قال : اذهب يا ولد وقل لفخامته إن البابا لا يقابل أحدا بغير ميعاد . وطلب منه الملك فؤاد أن يبارك وزارة زيور باشا ، كما بارك وزارة سعد زغلول ، فلم يجبه ، ولم يزد على أن قال : إن البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار .

وقد أهلته هذه السجايا والمواقف - كما يقول طارق البشري - في مؤلفه « المسلمون والأقباط » - لأن يكون موضع التجلة والاحترام بين المصريين جميعا ، وأن ينظر إليه رجال الحركة الوطنية ، بكثير من الامتنان لمباركته حركتهم . . ومع ذلك فلم يسلم كيرلس الخامس من تدخل مناوئيه الذين أفلحوا في استصدار قرار بتجريدته من سلطاته ، ونفيه إلى دير البراموس ، بوادي النطرون في أول سبتمبر ١٨٩٢ . . وتلك قصة أخرى . .

الكنيسة المصرية

في أخريات القرن الماضي ، اشتد تيار الإصلاح الدينى - بجناحيه الإسلامى والمسيحى - وإن اختلفت المنطلقات والنتائج . . فعلى المستوى الإسلامى قاد الشيخ محمد عبده تيار التمرد على الجمود فى الفقه ومناهج التعليم الأزهرى ، فاصطدم بقوة السلفيين الذين يريدون إبقاء الحال على ما هو عليه .

أما على المستوى المسيحى ، فقد تبلورت دعوة الإصلاح فى قيام هيئة علمانية تقف إلى جانب الكنيسة وتشاركها الإشراف على الأوقاف والمدارس القبطية والمطبعة والنظر فى قضايا الأحوال الشخصية للأقباط . . إلخ . وتمخضت الفكرة عن ظهور (المجلس الملى) بالانتخاب الجزئى من جانب الأقباط ، ومن الواضح أن دعاة الإصلاح كانوا متأثرين بموضحة المجالس النيابية والمشاركة فى الحكم التى باتت صيحة العصر ، ولكنهم أخطئوا إذ تصوروا إمكانية الانتقاص من سلطان الكنيسة القبطية ، ذات التقاليد الراسخة فى احترام السلطات الموروثة للبطارقة ، منذ بشارة مرقس الرسول . وأخطئوا مرة ثانية حين لجئوا إلى الحكومة لتنصرهم على البابا كيرلس الخامس ، الذى اتخذ موقفا عنيدا ضد تدخلات المجلس الملى . صحيح أنهم نجحوا فى إصدار فرمان من الخديو بنفى البابا إلى وادى النطرون ، ولكنه عاد بعد خمسة شهور إلى كنيسته أقوى مما كان .

ولم يكن موقف البابا ضد المجلس الملى نابعا من عناد شخصى ، ولكنه كان يرى أن دعوة الإصلاح (العلمانى) ، تخفى وراءها دعوة مشبوهة ، إلى تذويب الكنيسة المصرية الأرثوذكسية فى تيار التبشير الذى هل على مصر مع الاحتلال البريطانى وبالتالي إخضاع الكنيسة القبطية للكنيسة الأسقفية البروتستانتية . وقضية التدخل

المذهبي في شئون الكنيسة المصرية ، قضية قديمة ترجع إلى عصور المسيحية الأولى . . ولكن كل محاولات التدخل فشلت وبقيت الكنيسة محافظة على استقلالها الدينى والمذهبي .

* * *

وهناك شبهة أخرى ، دفعت البابا كيرلس الخامس إلى معارضته القوية لدعوة الإصلاح ، وهى ارتباطها بالاحتلال البريطانى نفسه . وإذا عرفت أن رائد حركة الإصلاح كان بطرس غالى باشا ، لأدركت على الفور سر عناد البابا ، وتمسكه باستقلال الكنيسة والحفاظ على طابعها الوطنى ، استمرارا لموقفها العنيد من حركات الاستعمار منذ العصر الرومانى ، حيث امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية وباتت الكنيسة المصرية ندا مصاولا للدولة الرومانية . الأمر الذى جعلها هدفا لاضطهاد الأباطرة . وفى ذلك يقول عباس محمود العقاد : لم يكن اضطهاد الرومان للأقباط خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية . وقد اعتصم المصريون بكنيستهم . وتجسدت فيها عناصر الدين والدولة ، والتفت الأمة حول زعامتها لإثبات كيانها ومشيتها فى وجه القوة القاهرة . . وذلك سر مصدر القوة الكبرى التى اشتهرت بها المسيحية المصرية . .

أغاخان فى مصر

فى أضاير التاريخ المصرى المعاصر ، قصة مشهورة تقول إن سلطات الاحتلال البريطانى كانت تعتزم تعيين «أغاخان» سلطانا على مصر . وذلك فى غضون الفترة القصيرة التى خلا فيها عرش مصر بعد نفى الخديو عباس حلمى الثانى ، وتمنع عمه الأمير حسين كامل عن الجلوس على عرش ابن أخيه . . . وبلغ من شيوخ هذه القصة ، أن الدكتور محمد حسين هيكل باشا أوردها فى مذكراته ، فى معرض حديثه عن ظروف قبول السلطان حسين عرش مصر ، وكيف أن هذا الأمير ما قبل العرش إلا انقاداً له من أن يجلس عليه حاكم أجنبى ، ثم يقول هيكل « إن الأكثرين صدقوا هذه القصة ، وأعتقد أنها صادقة لأن الإنجليز دعوا بالفعل سمو الأمير أغاخان الهندى قبيل ارتقاء السلطان حسين العرش ، وتناقل الناس أنهم - أى الإنجليز يريدون أن يجعلوا أغاخان سلطانا على مصر » . والجزء الأول من تلك الرواية - وهو عزم الإنجليز تعيين حاكم أجنبى لمصر - صحيح مائة فى المائة ، أما غير الصحيح فهو أن يكون أغاخان هو السلطان المرتقب .



وترجع فكرة تعيين حاكم أجنبى لمصر ، إلى قرار بريطانيا لإجراء تغييرات جذرية على وضعها الاستعمارى فى مصر ، بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، وانضمام تركيا إلى صف عدوتها اللدود - ألمانيا - فقررت بريطانيا أن يكون وجودها فى مصر أبدياً وأن تقطع خيوط الشرعية التى كانت تربط مصر بدولة الخلافة . . . وكان شكل العلاقة الجديدة ، يتراوح بين فكرتين ، لا ثالث لهما : الأولى : « ضم » مصر نهائياً إلى التاج البريطانى ، فيصبح المصريون رعايا بريطانيين ، وتنمى الجنسية المصرية .

ويرتفع العلم الإنجليزي ذو الصليب الأزرق على الديار المصرية ، ويتولى الحكم حاكم عام بريطاني ، مثلما كان الحال في الهند وأستراليا ونيوزيلندا ، وكان هذا المشروع بمثابة حكم بالإعدام على الشخصية المصرية . وإنهاء للوجود الشرعى والقانونى للدولة المصرية العتيدة .

أما الفكرة الثانية فكانت أخف وطأة ، وهى إعلان « الحماية » على مصر ، بحيث تحل بريطانيا محل تركيا فى السيادة على مصر ، مع بقاء الحكم فى يد حاكم مصرى يعاونه وزراء مصريون . وبعد بحث مستفيض ، أخذت الحكومة البريطانية بفكرة «الضم» ، وأعدت بالفعل مسودات الأمر الملكى ، ليوقعه الملك جورج الخامس . . . وطلب من كيتشنر - بحكم خبرته السابقة فى مصر - ترشيح أحد كبار الإنجليز ليكون حاكما على مصر ، ولكن حكومة لندن ، تراجعت فجأة عن قرارها ، بسبب معارضة رجال الوكالة البريطانية فى مصر ، الذين حذروا حكومتهم من التهاب الشعور الدينى ، واحتمال نشوب ثورة وطنية فى صفوف المصريين ، الذين كان بعضهم - حتى هذه اللحظة - يثق بوعود بريطانيا فى الجلاء عن مصر . . . فما بالك بضمها نهائيا إلى ممتلكات التاج ١١٩

لقد اجتمع هؤلاء المستشارون ، وكتبوا مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية قالوا فيها : كيف نتزع من دولة صغيرة آخر مظهر للكيان الفردى ؟ إن قرار الضم سيكون نهاية لصدق كلمتنا . . . فلن يصدقنا أحد . . . وستكون لهذا القرار عواقب وخيمة . . . ولم يعد مقبولا فى القرن العشرين أن نقضى على قومية الأجناس أو نحاول ابتلاعها - وحتى لو كان ذلك ممكنا فى أى مكان آخر - فلن يكون ممكنا فى مصر . . . إن طمى النيل الذى امتصه العبريون والفرس والإغريق والرومان والأتراك امتصاصا كاملا - بحيث مح كل أثر لهم - هذا الطمى ليس بالبيئة المناسبة لأية تجربة أخرى . . . ١١٠

وتراجعت الحكومة البريطانية عن قرار الضم . . . وأخذت بفكرة الحماية وخففت حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . . . وفى يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت الحماية المشثومة على مصر . . . وفى اليوم التالى أعلنت دار المعتمد البريطانى فى القاهرة قرار عزل الخديو عباس ، وتعيين الأمير حسين كامل سلطانا على مصر . . .

أو تعيينه موظفا في دار المعتمد البريطاني بدرجة سلطان . . وبذلك تلاشت فكرة
تعيين حاكم أجنبي على مصر . .

* * *

أما مقولة تعيين أغاخان سلطانا على مصر ، فقد كشفت عنها الدكتورة لطيفة
سالم (كلية الآداب - بنها) في كتابها (مصر في الحرب العالمية الأولى) ، ويتبين منها
أنها مقولة تفتقر إلى السند التاريخي . .

فبالرجوع إلى مذكرات أغاخان نفسه نجد أن إنجلترا قد أحضرته إلى مصر - لا
ليحكمها - ولكن ليهدئ من روح المصريين المتدمرة ، يقول أغاخان : « كان الوضع
السياسي مضطربا ودقيقا ، كان عباس بالآستانة ومصر بدون حاكم ، وكانت
النتيجة في مصر شيئا يقارب الفوضى » . . لقد ذهبت إلى مصر مع زميل لي ، وانصرفنا
فوراً إلى أداء مهمتنا الدقيقة الشاقة المتشعبة إلى طبقات كثيرة من المجتمع المصري
فكان علينا أولاً أن نكسب القصر والعلماء رؤساء جامعة الأزهر ، كما كان هناك
عامة الشعب المصري ، منهم المتعلمون الذين يجلسون في المقاهي يطالعون ويناقشون
إلى مالا نهاية أخبار الحرب . . والفلاحون الذين كانوا ولا يزالون المصدر الحقيقي
لقوة مصر . . كان علينا أن نقنع هؤلاء بأن يؤازروا قضية الحلفاء » .

إذن فلم يحضر أغاخان إلى مصر كأمر ليقفز إلى عرشها . . ولكنه جاء إليها
كعميل ، مهمته كسب ولاء المصريين للتاج البريطاني . . فكان شأنه شأن جميع
العملاء الذين أطلقتهم بريطانيا ، طابوراً خامساً ، لإخماد الثورة في نفوس الشعوب
المقهورة . .

ولكن من هو هذا العميل الذي يعمل برتبة أمير ١٢

قاطع طريق

اكتسب « أغاخان » صيتا عالميا ، فاق شهرة نجوم السينما ولاعبى الكرة ، وعلماء الذرة وزعماء الدول وكبار المصلحين . . مع أنه لم يكن شيئا من هؤلاء ، ولكنه جمع فى شخصيته الغربية شيئا من كل هؤلاء ، وعندما يذكر اسم « أغاخان » تتبادر إلى الذهن صورة ذلك الرجل الذى عاش حياته فى العواصم الأوروبية ، مفتونا بملكات الجمال ، وعارضات الأزياء ، مشغولا بكل متع الحياة . . وكان أتباعه يزنونه كل عشر سنوات بسبائك الذهب والبلاطين وقطع الماس النادرة ، لإجلالا وتعظيما لمكانته عندهم . . ولا غرابة فى ذلك ، فقد أضفوا عليه صفة الألوهية . فلما مات اختاروا أسوان لتكون مثواه الأخير . .

والحديث عن أغاخان ، لا يكتمل إلا بالحديث عن طائفة (الإسماعيلية) التى تولى زعامتها على مدى ستين عاما . . فجدد شبابها . . وانتقل بها من غياهب الخمول والضعف والفقر ، إلى دائرة الضوء والشهرة والمال والنفوذ . .

والإسماعيلية هى إحدى فرق الشيعة ، التى تتفق جميعها على أحقية الإمام على ابن أبى طالب ، بالخلافة عمن سبقه من الخلفاء الراشدين الثلاثة . رضوان الله عليهم أجمعين . ولكن الإسماعيلية تختلف عن غيرها بأنها سلكت طريقا شططا وقالت فى على بن أبى طالب قولا فظيحا ، أولئك هم الغلاة الذين اختلطوا بالمذاهب والمعتقدات ، التى كانت سائدة منذ القدم فى الهند والعراق وفارس واليونان . وأخذوا من كل مذهب بطرف ، وبقدر ما أخذوا وتوغلوا . . بقدر ما بعدوا عن تيار الإسلام المصفى . وصنعوا من كل ذلك نسيجاً يناقض المقرر الثابت من الأحكام والعقائد الإسلامية .

وتعرض « الإسماعيلية » كغيرهم من طوائف الشيعة ، للاضطهاد والقهر فهاجروا من الشرق إلى الغرب وكونوا تنظيمات بالغة السرية والتعقيد ، وأثاروا القلاقل والاضطرابات داخل الدويلات الإسلامية المفككة ، ونجح الانقلاب الذى دبروه فى المغرب ، فأقاموا دولة الفواطم التى لم تلبث أن انتقلت إلى مصر عن طريق الغزو العسكرى ، فبنوا مدينة القاهرة ، وأقاموا الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين ، دون أن تفلح فى استمالة المصريين المسلمين إلى عقيدتها الشاذة . فالمصريون الذين عرف عنهم التوسط والاعتدال فى التدين والبعد عن الغلو والشطط ، رفضوا اعتناق مذهب الدولة الرسمى ، حتى اندثر بزوال الدولة الفاطمية ، فلا تجد مصرى واحدا يعتنق مذهباً شيعياً بالرغم من حب المصريين لأهل البيت .



وفى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر ، تعرضت الحركة الإسماعيلية للانشقاق بين ولديه : المستعلى ونزار ، ففريق تمسك بإمامة المستعلى . ولكنهم تفككوا عبر القرون ، ولم يبق منهم الآن سوى طائفة (البهرة) الذين ينتشرون فى الهند واليمن ومعظمهم من أثرياء التجار ، وهم الذين نجحوا فى إقناع الرئيس الراحل أنور السادات بالسماح لهم بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله الملاصق لباب الفتوح وأنفقوا على عملية التجديد عشرات الملايين من الجنيهات ، كى يجعلوا منه تحفة معمارية رائعة ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا تمجيذا لإمامهم المتأله الحاكم بأمر الله ، مدفوعين بالحنين إلى استعادة مجدهم القديم فى عاصمة المعز .

أما أتباع نزار فقد تعرضوا للاضطهاد من جانب الحكومة الفاطمية ، ففروا من مصر ، ونجح أحد زعمائهم - وهو الحسن الصباح - فى إقامة دولة الحشاشين فى شمال إيران . وهى الدولة التى كانت تتسلل منها جحافل الفدائيين لاغتيال زعماء وقادة العالم السنى ، حتى أثاروا الفزع والرعب فى قلوب الملوك والسلاطين ، إلى أن قضى عليهم خاقان المغول هولاكو ، فلم تقم للنزارية قائمة ، إلى أن ظهرت بعض بقاياهم فى إيران فى أواسط القرن التاسع عشر ، تحت اسم « الأغاخانية » الذين ينتمى إليهم أغاخان الثالث موضوع هذا الحديث .

والاسم الصحيح لأغاخان الثالث هو : محمد الحسينى شاه ، أما جده أغاخان الأول واسمه (حسن شاه على) ، فقد كان قاطع طريق ، ظهر فى إيران ، فى منتصف القرن الماضى ، واستطاع أن يجمع حوله عددا من الفتوات من الإسماعيلية وغير الإسماعيلية ، وكون منهم عصابات ، كانت تنقض على القرى والقوافل ، حتى ذاع صيته فى جميع أنحاء إيران ، وأصبح له نفوذ واسع على أتباعه وبات مصدر قلق للأسرة الحاكمة .

وفى ذلك الوقت كان الإنجليز يعملون على بسط نفوذهم فى إيران ، وكعادة الإنجليز فى بث الدسائس والفتن ، وصنع العملاء ، واستمالة كل طامع فى الجاه والثروة ، فقد وجدوا ضالتهم فى هذا « اللص الشريف » فاتصلوا به ، وزينوا له القيام بانقلاب ضد الشاه ، على أن يتولى هو حكم فارس تحت رعايتهم ، وتمت المؤامرة الإنجليزية ، وأعلن قاطع الطريق حسن شاه الثورة ، ولكنها فشلت وقبضت عليه السلطات الإيرانية وزج به فى السجن ، عندئذ تدخل الإنجليز وأقنعوا الشاه بالعفو عن الثائر الهام ، على أن يغادر إيران ، وبالفعل خرج حسن شاه على من السجن تحيط به حالات البطولة المصطنعة ، فدفع به الإنجليز إلى أفغانستان ليلعبوا به كورقة فى صراعهم هناك مع روسيا . . ولكن الأفغان تصدوا له فرحل إلى الهند واتخذ من مدينة بومباى قاعدة لنفوذه الجديد . وأراد الإنجليز أن يلعبوا به مرة ثالثة فى السيطرة على درة التاج البريطانى ، فجعلوا منه إماما لطائفة الإسماعيلية النزارية ، وخلعوا عليه لقب (أغاخان) ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الإسماعيلية ، الذين فرحوا بعلو شأنهم ، بعد أن ظلوا مغمورين طوال عدة قرون . . وبظهور إمامهم الذى ظل فى الستر والكتمان مئات السنين ، بدأ أغاخان ينظم صفوف الإسماعيلية تحت العلم البريطانى ، حتى مات سنة ١٨٨١ ، فخلفه ابنة (أغا على شاه) ، وكان على درجة عالية من الثقافة ويجيد عدة لغات أفادته فى نشر التعليم بين طائفته ، ووضع الأساس المادى والثقافى الذى بنى عليه ابنه أغاخان الثالث مجده المرموق .

صعيدية من لندن

كانت (لوسى دف جوردون) ، من الأجنيات القليلات اللاتى وقعن فى غرام مصر ، فأحببنها حبا خالصا واتخذنها موطنا وسكنا . . وقد حتمت الأقدار على لوسى ، أن تقضى فى مصر السنوات السبع الأخيرة من عمرها ، فيما بين سنتى ١٨٦٢ - ١٨٦٩ ، فاندججت فى نسيج المجتمع ، وخالطت الفلاحين فى قراهم الكثيبة ، وعاشت أوجاعهم وبؤسهم بلا استعلاء أو غطرسة ، حتى وصفت نفسها بأنها مصرية عربية ، ووصفها البعض بأنها مسلمة . . ورغم أنها عاشت فى الأقصر بين أحضان الآثار القديمة ، إلا أن هذه الآثار لم تقع فى بؤرة شعورها ، مثلما حدث لمعظم الأجانب الذين استوطنوا مصر . . ولأنها كانت تؤمن بأن الأحياء أجدى من الأموات ، فقد صرفت كل همها فى مخالطة أحفاد الفراعنة ، وهم يعانون الضنك والشقاء والتعاسة ، وكانت تدفعها رغبة جياشة فى التشبث بالحياة ، والانتصار على المرض اللعين الذى ينهش صدرها ، وجمعت بينها وبين أهل مصر وحدة الألم ، وقوة الانتصار على العدم ، فأقبلت على الحياة بكل طاقتها ، ورحب بها أهل الأقصر ترحيبا حارًا ، وأنزلوها منزلة التكريم ، وأطلقوا عليها من الألقاب ما يتكافأ مع نبيلها . . فقد كانت تستقبلهم فى بيتها والبشاشة تملأ وجهها فسموها « البشوشة » ورأوها تشاركهم احتفالهم بموالد الأولياء فسموها « الشيخة » وتلقوا العلاج على يديها فسموها « نور » .

كانت لوسى تنتمى إلى عائلة إنجليزية أرستقراطية . . فقد كان أبوها أحد رجال الفقه القانونى بجامعة لندن ، وكانت أمها على درجة عالية من الثقافة ، وكان بيتها ملتقى كبار رجال الفكر والسياسة والأدب ، من أمثال شارلز ديكنز وتوماس كارليل

وجيمس ميل ، والد المفكر السياسى الشهير جون ستيوارت ميل ، الذى كان رفيق صباها . . . وهيات هذه البيئة للفتاة نضجا عقليا وذهنيا ، وألبستها خصالا راقية تتمثل فى حب العدل والتسامح وشجاعة الرأى والنظر إلى الأمور نظرة موضوعية خالية من التعصب والهوى . . . فلما بلغت لوسى سن الزواج ، اقترنت بالسير إكسندر دف جوردون وأنجبت منه ابنة . . . وطافت الأسرة فى أنحاء القارة الأوربية وهى يومئذ تفور بالجدل والصخب فى أعقاب الزوبعة التى خلفتها حروب نابليون . . . وشاركت لوسى فى هذه الحياة الفكرية الخصبة . وبينما هى تخوض هذا المعترك الثقافى تمكن منها داء السل اللعين ، وهى فى ريعان الشباب ، فى وقت لم يكن الطب قد توصل بعد إلى علاجه علاجا ناجعا ، فنصحها الأطباء بالابتعاد عن الأجواء الباردة ، فذهبت إلى جنوب أفريقيا ، ولكنها لم تتقدم صحيا ، فعادت إلى إنجلترا فنصحوها بالذهاب إلى مصر ، فشدت الرحال إلى الإسكندرية ، ومنها إلى القاهرة ، ثم أقلها مركب نيل إلى صعيد مصر ، حيث استقر بها المقام فى الأقصر وأقامت فى بيت يسمى (بيت فرنسا) يقع على تل من الرمال ، كان يغطى معبد الأقصر ، ويطل على مسجد أبى الحجاج من ناحية ، ويطل على النيل من ناحية أخرى .

وفى هذا البيت العتيق الذى كان أشبه بالدوار ، عاشت لوسى حياة غاية فى البساطة ، تتوحد إلى الناس ، وتعطف على الفقراء . وتعالج المرضى ، وتناقش العلماء والمشايخ ، وتشارك الناس أفراحهم فتغمر نفسها بالسعادة ، وتقاسمهم تعاستهم فتذوب روحها أسى ولوعة . . . وعلى مدى السنوات السبع التى عاشتها ظلت رسائلها تتوالى على زوجها وأمها وابنتها ، تحكى فيها كل صغيرة وكبيرة من حياتها فى قاع المجتمع المصرى ، وتقدم صورة واقعية للحياة الريفية بلا زيف أو مبالغة . . . وقد بقيت هذه الرسائل وديعة عند أسرتها فى إنجلترا ، حتى أخرجها إلى النور أحد أحفادها فنشرها فى مجلد أنيق فى عام ١٩٦٩ بمناسبة مرور مائة عام على وفاتها ، وقد ترجمها إلى العربية المؤرخ المعروف أحمد خاكي ، ونشرها فى كتاب تحت عنوان (رسائل من مصر) . . . وهو يرى فى الرسائل وثيقة قيمة للتاريخ الاجتماعى تصف قطعة من حياة الريف المصرى فى أواسط القرن التاسع عشر . . . بل يراها من بعض نواحيها وثيقة دينية وسياسية يجدر بالباحثين فى التاريخ أن يعيروها دراسة

دقيقة ، لأن دراسة المجتمع نفسه وإحساسات أفرادهِ وتصرفاته من ألزم ما يكون للمؤرخ . . وقد استطاعت رسائل (لوسى دف جوردون) أن تقدم لنا هذه المعلومات الدقيقة ، لأنها كانت تحكى الأحداث الصغيرة التى كانت تصادفها . . وكانت لوسى دائبة على التجوال فيما حولها من القرى ، والاستماع لما يلقىهِ عليها القوم من قصص فتكتبها إلى زوجها أو أمها أو ابنتها . . وباحث التاريخ يستطيع أن يجد أنه كان هناك تفاعل بين الحكومة المركزية فى القاهرة وهذه القرى النائية فى صعيد مصر فقد كان الأهليون متأثرين بسياسة الحكم فى بداية عصر إسماعيل . . فالرسائل إذن وثيقة سياسية اجتماعية تعرض خبرات شخصية مباشرة ، وهى من ناحية أخرى وثيقة دينية لأنها تتحدث عن أثر الإسلام فى المصريين - ولكن وراء هذا الأثر ما تأصل فى ثقافة المجتمع المصرى من أثر التاريخ الفرعونى ومعتقدات الفراعنة .

وعندما أدركت لوسى أن الموت يسرى فى جسدها ، تقبلت حكم القضاء بروح راضية ، وأبحرت بها السفينة شمالا من الأقصر إلى حيث توقفت قبالة حلوان والتف من حولها بحارة السفينة وخادماها الأمين (عمر أبو حلاوة) الذى ظل إلى جوارها طيلة السنين السبع ، وكتبت آخر رسائلها إلى زوجها تقول فيها : لا تبشس ولا ترسل إلى ممرضة ، فأنا ألقى من العناية ما هو فى الإمكان ، والريسان (رمضان) و (يوسف) قويان عطوفان ، أما (عمر) فهو كما كان دائما . لقد بلغ بى الألم الجثمانى ما لا أود أن يشهده الآخرون . . بارك الله فيك يا أعز الأحباب . . كم هو مؤسف أنك لم تقم بها كنت قد عذمت عليه من قدومك إلى أعلى صفحة نهر النيل . . قبل لى كل أحبائى . . وتشارلى العزيزة . . إننى أشفق على عينيها . . أظن أننى لا أستطيع أن أجيد الكتابة - فخطى ردىء - فأنا مجعدة مسهدة ، فارقنى النوم وصدري يتمزق من السعال . . اغفر لى أخطائى . . كم وددت لو أننى رأيت وجهك العزيز مرة أخرى . . لكنى لست أود ذلك الآن . . لست أريدك الآن هنا بأية حال من الأحوال . .

وفى اليوم التالى ، كتبت صورة برقية إلى زوجها تنعى فيها نفسها . وتركت فراغا بين الكلمات يكتب فيه تاريخ الوفاة . . وانتابتها نوبة شديدة من السعال فاستسلمت لأمر الله . . وكانت آخر كلماتها « لتكن مشيئتك » وبعدها أسلمت الروح .

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

فى غضون العام الأخير من القرن التاسع عشر ، طالع الرأى العام المصرى على صفحات (المؤيد) سلسلة من المقالات الجريئة ، تتحدث عن طبيعة الاستبداد السياسى وأثره فى انحطاط الأمم ، حيث تتحول الشعوب إلى قطع يسوسها مستبد غشوم . . وكانت المقالات مجهولة المؤلف الذى رمز لاسمه بحرف (ك) . وكان هذا الإيهام مثيراً للشغف والفضول ، وتساءل الناس عنى يكون هذا الكاتب المقدام الذى يطرق موضوعاً طالما تجنبه الكتاب خشية التنكيل ، وإثارة للسلامة والتعايش مع حكام ظلمة ، لم يتعودوا سوى سماع عبارات التمجيد والتعظيم والتسبيح بحمدهم .

كانت الدول العربية آنئذ تخضع لسيادة الدولة العلية التى يجلس على عرشها أستاذ فى الاستبداد : السلطان عبد الحميد الذى تنكر للدستور ورجاله ، وزج بهم فى غياهب السجون ، وبث عيونهم فى أنحاء الممالك والولايات يطاردون الأحرار ويخمدون أنفاسهم بالسمة تارة ، والخنق تارة . . وكان نصيب الشام من أذى السلطان كبيراً . . أما مصر فكانت قد تخلصت من قيود الرق العثمانى . وسرى فيها لهيب الوعى الوطنى ، وترددت فيها صيحات الحرية والعدالة منذ وقت مبكر وظهرت فيها رموز الاستقلال متمثلة فى دستور عصرى وصحافة حرة وتمثيل برلمانى وأصبحت مصر قبلة الأحرار والمفكرين الشوام الذين ضافت عنهم أوطانهم ، فشدوا الرحال إلى أرض الكنانة حيث الحرية والسعة والأمن والرخاء .

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبى من طليعة المفكرين الأحرار الذين ظهوروا فى الشام فحركوا ركود الحياة السياسية ، وأيقظوا بنى قومهم من سباتهم ، فأصدر العديد من الصحف فى مسقط رأسه (حلب) . وجعل منها سوط عذاب على الظلم

والظالمين ، وصوتا طليقا للمستضعفين والمنكوبين . . وكان جواسيس السلطان بالمرصاد لكل ما يكتبه الكواكبي . فالصحف التي يحررها تصدر أو تجمع لتحرق والولاة العثمانيون يلفقون له القضايا ليقضى معظم أيامه في السجون . . فلما بلغ به اليأس مبلغه راودته نفسه بالرحيل عن وطنه ، ولكنه كتم وجهته عن أهله وإخوانه وزعم لهم أنه سيقصد إستانبول للسياحة . . ومع ذلك ساورهم الخوف من أن يذهب إلى مصر ، فيحرم إلى الأبد من العودة إلى وطنه . . فلما جن الليل جمع الكواكبي أوراقه وغادر وطنه متمثلا قول الشاعر :

وإذا نكرتني بلدة ونكرتها خرجت مع البازي على سواد

وما هي إلا أيام ، حتى كانت مقالات الكواكبي تصدر الصفحات الأولى من (المؤيد) فيتردد صداها في أنحاء الشرق . . ويهتز منها عرش السلطان فزعا . . يقول كامل الغزي الصديق المقرب من الكواكبي : « وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما ، لم نشعر إلا وبصدي مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة (المؤيد) تنشر له حلقات كتاب « طبائع الاستبداد » الذي لم يطلعنا عليه مطلقا ، بخلاف كتاب « جمعية أم القرى » فقد أطلعنا عليه مرارا ، ثم إنه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما في البلاط السلطاني ضجة عظيمة ، وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية . . وبلغنا أنه بعد دخوله مصر بأيام قلائل ، التف حوله جماعة من أدباء الأتراك زعموا أنهم من طائفة « تركيا الفتاة » وما هم في الحقيقة إلا جواسيس يرقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها إلى إستانبول . . » .

وعاش الكواكبي في القاهرة معززا مكرما ، في جوار الإمام الحسين ، وقد أحاط به كوكبة من أحرار الشرق الذين يتطلعون إلى اليوم الذي تتخلص فيه أوطانهم من أكفان الذل والاستعباد . ويعبرون عن آمالهم بالكتابة والخطابة وبكل ما يملكون من وسائل البيان . . وسرت أفكار الكواكبي في الجماهير العطشى إلى الحرية مسرى الماء في الأرض القاحلة ، وتلهف الناس على مطالعتها ، لما كانوا يجدون فيها من صدق وجرأة في نقد الحكام الطغاة . . وبرغم القيود المحكمة التي فرضتها السلطات العثمانية ، فقد وجدت كتابات الكواكبي طريقها إلى الشعوب العربية في الشام والعراق واليمن والبحرين وشمال أفريقيا . . وباتت مقالاته عن الاستبداد بمثابة

مشاعل تهدي المقهورين إلى طريق الخلاص ، ولم يكن الخلاص سوى الثورة على الاستبداد في كل أشكاله السياسية والاجتماعية والتربوية . . ولم يكن من المعقول أن يستمر هذا القلم الجريء في إثارة الغافلين وتنبيه النائمين ، وإنما المعقول في ظل تقاليد الاستبداد والبطش أن يخفت الصوت قبل أن يعلو ضجيجهم . . وفي مساء الخميس ١٤ يونيو ١٩٠٢ كان السيد عبد الرحمن الكواكبي ، يجلس في مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية ، ومعه من أصدقائه المقربين : السيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد علي ، والشيخ إبراهيم سليم النجار . وطلب الكواكبي - كعادته - فنجانا من القهوة المرة فارتشفه . ولم تمض نصف الساعة إلا وقد أحس بالألم يمزق أحشاءه فنهض في الحال ومعه ابنه كاظم في عربة حنطور إلى الدار ، وظل يتقيأ حتى قارب الليل منتصفه ، ثم أصابته نوبة قلبية ، فأحس ابنه بالخطر ، فهب يستدعي أقرب طبيب بالحي ، فلما عاد بصحبة الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة ، بعد أن طوى فيها خمسين عاما ، كانت من أقصر الأعوام زمنا . . ولكن من أخصبها جهادا ونضالا في سبيل الحرية والعدل والكرامة الإنسانية .

وسرى الخبر صباح الجمعة في مدينة القاهرة . فأمر الخديو عباس الثاني أن يدفن الكواكبي على نفقته الخاصة ، وأن يعجل بدفنه في قرافة باب الوزير بالقرب من القلعة . . وارتجل شاعر النيل حافظ إبراهيم بيتين من الشعر نقشا على شاهد قبره .

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى	هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا	عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبي

أما السلطان عبد الحميد ، فلم يكذ يتلقى نبأ وفاة الكواكبي حتى تنفس الصعداء ، وأوفد أحد أعوانه في مهمة سرية إلى القاهرة ، فقصد إلى البيت الذي كان يقيم فيه بالحسين ، وجمع ما تبقى في مكتبه من أوراق ، وبعث بها إلى قصر يلدز . . وظن عبد الحميد أنه استراح إلى الأبد من إزعاجات الكواكبي ، ولكن الأقدار خيبت ظنونه . . فما هي إلا بضعة سنين حتى أنهار عرش عبد الحميد ، وأطاحت به ثورة جارفة ألقت به في أعماق السجون ، ليقضى ما تبقى له من عمر مقهورا مدحورا . . وبقيت أفكار الكواكبي شعلة وضاءة في قلوب الأحرار ، وأنشودة يتغنى بها عشاق الحرية في أنحاء الشرق .

المستبد عدو الحق

كان السيد عبد الرحمن الكواكبي ، مفكرًا تقدميًا بالقياس إلى عصره . . فقد شغل نفسه بقضية كانت مركونة في أضابير العقل العربي منذ عصر ابن خلدون فجاء إحيائها نشازا إذا قورنت بالقضايا التي كانت تشغل بال علماء الدين في أخريات القرن التاسع عشر . . فقد كانت اهتماماتهم موزعة بين التصوف وبحوث البلاغة والبيان والبديع والنحو والصرف والخلافات الفقهية في الفروع ، ومدى مشروعية استخدام الصنوبر (الحنفية) في الوضوء . . فإذا تبحروا عقليا بحثوا في أمور الحياة الأخرى ولا يقربون شيئًا من شئون الحياة الدنيا .

وكان هذا القصور العقلي ، يلقي تشجيعا من الحكام لأنه يصرف الرعية عن التفكير في القضية الأساسية : قضية نظام الحكم ومدى تطابقه مع المبادئ الأساسية التي جاء بها الإسلام ، كالعدالة والحرية والشورى والمساواة والوفاء بالعهد واحترام الكرامة الإنسانية . . وهي القضية التي استحوذت على تفكير الكواكبي فجعلها قضية عمره ، ومحور كتابه العظيم (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ، فظهر كنقطة ضوء في عتمة الفكر السياسي ، وكان أثره في العقل العربي لا يقل عن أثر (العقد الاجتماعي) لروسو (وروح القوانين) لمونتسكيو في العالم الغربي . . فقد بدأت الشعوب العربية تنبه إلى واقعها المرير من خلال التشريح الذي قدمه الكواكبي للعلل والأمراض التي تعاني منها الأمة الإسلامية ، وقدم لنا هذا المفكر الجريء تشخيصًا وافيًا ، استقاه من قراءة عميقة للتاريخ الإسلامي ، كما استقاه من الواقع الذي لمسَه بنفسه بعد سياحة عريضة في البلاد الإسلامية . . لم تكن سياحة للترويح عن النفس ، ولكن لتقصي الحقائق والتعرف على حال هذه الشعوب .

فكان إذا هبط بلدا خالط أهله في معاشهم وفكرهم وسلوكهم ، وتعرف إلى مصادر أرزاقهم وكوامن ثرواتهم الزراعية والمعدنية وأسلوبهم في العلم ونظام حكمهم .

ومن حصيلة هذه المعارف النظرية والعملية ، توفرت للكواكبي رؤية عميقة لواقع الشعوب الإسلامية انتهى فيها إلى أن أصل الداء يكمن في نظم الحكم المطلق التي أطبقت على رقاب الشعوب وخنقتها بالذل والاستعباد . . وصاغ الرجل أفكاره في عبارات واضحة جريئة لا تحتل لبسا . . ومفادها أن ما أصاب الدول العربية من انحطاط وتخلف إنما مرجعه وقوعها تحت وطأة حكومات غاشمة وحكام طغاة مغتصبين معتدين وضعوا كعوب أرجلهم على أفواه الملايين من الناس فمنعوها النطق بالحق والمطالبة به .

وكم كنت أود أن أقدم للقارئ العزيز ملخصا وافيا للأفكار التي تضمنها كتاب (طبائع الاستبداد) ، لولا أن رفوف مكتبتى لا تضم هذا السفر الخطير الذي يحرص كل عاشق للحرية وكل مبغض للاستبداد على اقتنائه . . فالكتاب اختفى منذ عشرات السنين ولم تحفل دور النشر بإعادة طبعه اتقاء لبطش الحكومات العربية فهي بطبعها لا تحب ذبوع مثل هذه الكتب التي توقظ الغافلين وتنبيه المظلومين إلى حقوقهم المهدرة . . ولذلك سأقدم ملخصا للعرض الوافى الذى كتبه العلامة الكبير أحمد أمين عن الكواكبي ضمن فصول كتابه (زعماء الإصلاح الاجتماعى فى العصر الحديث) .

فكتاب طبائع الاستبداد ، يدور حول تعريف الاستبداد بأنه صفة للحكومة المطلقة العنان ، التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب ، ويأتى هذا من كون الحكومة مطلقة التصرف ، ولا يقيدتها قانون ولا إرادة أمة ، وربما كانت الحكومة مقيدة بشيء من ذلك ، ولكنها تملك بنفوذها ودهائها إبطال هذه القيود والسير على هواها . . والحكومات بطبعها ميالة إلى الاستبداد ، لا يصدها عنه إلا وضعها تحت المراقبة الشديدة ، ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها .

فالمستبد عدو الحق ، وعدو الحرية وقاتلها . . وهو يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتدلل وتتملق . وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه : هل خلقت خادمة له . . أم هى جاءت به ليعخدمها فاستخدمها ؟ والرعية العاقلة

مستعدة أن تقف في وجه الظالم المستبد ، تقول له : لا أريد الشر . ثم هي مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه .

وقد بحث الكواكبي بحثا مستفيضا في علاقة الاستبداد بالدين ، ونقل عن الفرنج رأيهم في أن الاستبداد في السياسة متولد عن الاستبداد في الدين أو مساير له . . فكثير من الأديان تبث في نفوس الناس الخشية من قوة عظيمة لا تدرك كنهها العقول . وتهددهم بالعذاب في الحياة الأخرى ، ثم تفتح بابا للخلاص والنجاة بالالتجاء إلى الأخبار والقسس والمشايخ ، بالدلة لهم ، وطلب الغفران منهم . . والمستبدون السياسيون يتبعون هذه الطريقة فيستربون الناس بالتعالى والتعظيم ويدلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلف لهم وتملقهم وعوام الناس يختلط عليهم في أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكام ، فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم ، وينزهونهم عن سؤا لهم عما يفعلون ، ولا يرون لهم حقا في مراقبتهم على أفعالهم ، كما أنه ليس لهم حق في مراقبة الله فيما يفعل !! ولهذا خلعوا على الحاكم المستبد صفات الله ، مثل : ولي النعم ، والعظيم الشأن ، والجليل المقتدر . . وما إلى ذلك . وما من مستبد سياسى إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله . أو تربطه برباط مع الله . ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله . . !!

ولقد رأى الكواكبي أن الإسلام في جوهره الأصيل لا ينطبق عليه هذا القول . . فهو مبنى على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية والأرستقراطية . . فهو مؤسس على أصول ديمقراطية (أى مراعاة المصلحة العامة) وعلى شورى أرستقراطية (أى شورى الخواص وهم أهل الحل والعقد) ، فالقرآن مملوء بتعاليم تقضى بإماتة الاستبداد ، والتمسك بالعدل والخضوع لنظام الشورى . . ثم لا يعرف الإسلام سلطة دينية ، لا اعترافا ، ولا بيع غفران ، ولا منزلة خاصة لرجال الدين ، ولكن دخل عليه من الفساد ما دخل على كل دين ، فتفرقت كلمة المسلمين ، وانقسموا شيعا ، وتحول الحكم من نظام شورى إلى الاستبداد ؛ فصغرت نفوس الناس وخفت صوته ، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو المبدأ الذى به يراقب أولو الأمر في الأمة ، فصار أمر المسلمين إلى ما نرى .

ويلاحظ أحمد أمين أن الكواكبي لم يتعرض للرد على الشطر الأول وهو ما يوحى به تصوير الله بالقوة والعظمة من خضوع النفوس للمستبد ، ويرى أحمد أمين أن الإسلام - بجعله (لا إله إلا الله) محور الدين - كان كفيلاً أن يذكر المسلمين دائماً بأن العزة لله وحده ، وأن النفوس لا يصح أن تذلل لأحد سواه ، وأن هذه الكلمة توحى بالضعف أمام الله ، والقوة أمام من سواه . . . ولكن بتوالى القرون وبفساد العقائد . أصبحت (لا إله إلا الله) عند أكثر المسلمين كلمة جوفاء لا روح فيها ، تبعث الضعف ولا تبعث القوة ، وتبيح أن يشرك مع الله الحاكم المستبد والرئيس المستبد بل المال والجاه والمنصف ، فكل هذه وأمثالها أصبحت آلهة مع الله . . !

أصل الفساد

عكف السيد عبد الرحمن الكواكبي على دراسة أحوال الشعوب الإسلامية ، فهاله ما كانت عليه في أخريات القرن التاسع عشر من تخلف وانحطاط وإملاق . . . وانتهى من نظريته التشريحية الدقيقة إلى أن الاستبداد هو أصل كل فساد . وسبب كل نقيصة ، والسوس الذى ينخر جسد الأمة فيسلبها رواءها ونضارتها ويحيلها جليداً على عظم .

فالحاكم المستبد يخشى العلم ، لأن العلم نور ، وهو يريد أن تعيش الرعية فى الظلام ، لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه ، وهو لا يخشى علوم اللغة والأدب ولا علوم الدين المتعلقة بالحياة الآخرة ، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييده فى استبداده ، يسد أفواههم بلقييات من فتات مائدته . . . إنما ترتعد فرائصه من علوم السياسة والاجتماع والتاريخ والفلسفة العقلية ، ونحو ذلك من العلوم التى تنير الدنيا ، وتثير النفوس على الظالم ، وتعرف الإنسان حقيقته كإنسان له حقوق ومطالب ، وكيف ينالها ويستخلصها من الحاكم السارق .

والحاكم المستبد تسره غفلة الشعب ، لأنه يتمكن بغفلتهم من الصولة عليهم يغصب أموالهم ، فيحمدونه على إبقاء حياتهم . . . ويضرب بعضهم ببعض فيصفونه بحسن السياسة والكياسة . . . ويسرف فى أموالهم ، فيقولون إنه كريم . . . ويقتلهم ويمثل بهم ، فيقولون إنه رحيم . . . وإن نقم عليه بعض الأباة ، قاتلهم بهم كأنهم بغاة .

ويضع الكواكبي أيدينا على حقيقة غريبة ، تقول إن الحاكم المستبد يخشى رعيته كما تخشاه رعيته ، بل خوفه منهم أشد ، لأنه يخافهم عن علم ، وهو يخافونه عن

جهل . . وقد اعتاد المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره وقياس درجة عدله بمقدار طمأنينته . . كما يستدلون على أصالة الاستبداد في الأمة بترف حكامها ، وإمعانهم في البذخ . . وقد تكون اللغة دليلاً على تفشى الاستبداد بما تحويه من ألفاظ التعظيم والتفخيم وعبارات الخضوع والمذلة كاللغة الفارسية .

ويرى الكواكبي أن الاستبداد لا يكون مقصوراً على الحاكم الفرد ، ولكنه يتفرع منه إلى المستويات الدنيا : إلى الشرطى . . إلى الكناس . . إلى الفراش . . ولا يكون كل صنف من هؤلاء إلا من أسفل طبقة ، لأنه لا يهمهم الترفع باستجلاب محبة الناس ، إنما يهمهم اكتساب ثقة رئيسهم المستبد . . والوزير في الحكومة الاستبدادية هو وزير المستبد الأعظم ، لا وزير الأمة ، وكذلك من تحته من أعوانه . . فالهيئة كلها شركاء في جريمة الضغط على الأمة وظلمها وقتل روح الإباء والعزة فيها ، وخلق نوع من السيادة الكاذبة ، وتجعل أولى الأمر سلسلة تبدأ من المستبد الأعظم إلى الشرطى في الشارع ، كل يخضع لمن فوقه ، ويستبد بمن تحته . . وعلى العكس من ذلك الحكومة الديمقراطية ، فهي تشعر كل شخص في الدولة بالعزة التي يحميها العدل ، وبأن له نصيباً في حكم بلاده ، وصوتا مسموعاً فيها يجب أن يعمل ، وما يجب أن يترك ، وأن حكومته ليست قائمة إلا برأيه ورأى أمثاله . إن شعروا يوماً بجورها أسقطوها ، سلطة الرأي العام فيها فوق سلطان الحكومة والبرلمان وكل سلطان .

وعرض الكواكبي بعد ذلك لأثر الاستبداد في فساد الأخلاق . . فالاستبداد يضعف الأخلاق الفاضلة ويفسدها ، لأنه يفقد الإنسان عاطفة الحب ، فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ، ولا يحب وطنه لأنه يشقى فيه . وهو ضعيف الحب لأسرته لأنه ليس سعيداً فيها ، وهو لا يركن إلى صديقه ، لأنه قد يأتي عليه يوم يكون فيه عوناً على الاستبداد ومصدر شر له .

الإنسان في ظل الاستبداد لا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة ، فلا يذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها . . والاستبداد يقلب الأخلاق ، فيحيل النصح تطاولاً ، والشهامة تجبراً ، والحمية تطرفاً وطيشاً ، والإنسانية حمقاً ، والرحمة ضعفاً والنفاق سياسة ، والتحایل كياسة ، والدناءة لطفاً ، والبذاءة دماثة وظرفاً .

والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ؛ فسموا الجبابة الطغاة عظماء أجلاء . . كما أفسد أخلاق الناس ؛ فأرغمهم على ألفة الرياء والنفاق . . وأعان الأشرار على فجورهم ، وجعلهم في مأمن حتى من الانتقاد والفضيحة . . ولأن معظم أعمالهم تظل مستورة ، لا يجرؤ الناس على قول أمامهم خوف العقاب .

ثم عرض الكواكبي لأثر الاستبداد في تربية الأمم والأفراد . . فالحكومة العادلة تعنى بتربية الفرد منذ كونه جنينا . وذلك بسن قوانين للزواج الصالح ثم بالعناية الصحية للطفولة ، ثم بإنشاء المدارس وتسهيل الاجتماعات والاهتمام بالقدرات الجسدية والنفسية والعقلية للأفراد . وفي ظلها يعيش الإنسان حرا نشيطا يسره النجاح ولا تحزنه الخيبة ، وفي الحكومة المستبدة يعيش طفلا خامدا ضائع القصد حائرا . . ويصير كالأسير المعذب يسلى نفسه بالسعادة الأخروية ، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة ، وقد جنى على المسلمين علماءؤهم فأفهموهم أن الدنيا سجن المؤمن ، وأن المؤمن مصاب ، وإذا أحب الله عبدا ابتلاه ، وهكذا مما ابتدعوه ويتغافلون عن الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » ، وحديث « إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها » وكان من أثر هذه المشبطات أن حولت الأذهان من معرفة أسباب الشقاء إلى إلقائها على عاتق القضاء والقدر ، وقد أحكموا هذه المكيدة باختراع الأحاديث التي تجعل الخضوع للحاكم المستبد . . دينا ، وعلى الجملة فالترية الصحيحة عند الكواكبي لا تتحقق في ظل الاستبداد .

ولا يقف هذا المفكر الجليل عند حد تشريح طبائع الاستبداد ، إنما يرشدنا إلى سبيل الخلاص من هذا الداء الوبيل ، فيرى أن الاستبداد لا يقاوم بالقوة ، إنما يقاوم باللين ، وبالتدريج ، ببث الشعور بالظلم ، وهذا بالتعليم والوعى ، ذلك لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات : قوة الجند ، وقوة المال ، وقوة رجال الدين ، وقوة الأغنياء ، فإذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس ، وإنما الواجب المقاومة بالحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة ، والاستبداد مع اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة في قلبه ، كما قيل : كم من جبار عنيد صرعه مظلوم صغير . . ١١

ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة البديل ، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة

ومتى وضحت الغاية المرسومة يجب السعى في إقناع الناس بها واستجلاب رضاهم عنها وحملهم على النداء بها ، ويجب أن ينشر ذلك في كل الطبقات حتى يصبح عقيدة فيتلهفوا جميعا على نيل الحرية وتحقيق المثل الذى ينشدونه . . عندئذ لا يسع المستبد إلا الإجابة طوعا أو كرها .

هذا مجمل لأفكار الكواكبي حاول أن يوقظ بها قلوبا غلفا . . وأسماعا صما . . وليس من شك في أنها آتت ثمارها فأزالت أصناما وأطاحت بطواغيت . . ورسخت معانى الحرية والكرامة في نفوس أبناء الشرق .

يا بهية وخبرينى .. !

انتشرت فى أرجاء مصر ، فى بداية هذا القرن ، أسطورة (ياسين وبهية) وشاعت على ألسنة الجماهير أغنية : يا بهية وخبرينى .. عالى قتل ياسين .. ! حتى باتت جزءا من التراث الشعبى كسيرة أبى زيد الهلالي وأدهم الشرقاوى وحسن ونعيمة .. يتغنى بها شاعر الربابة فى المقاهى الشعبية ، وفى حلقات السمر التى يقيمها الفلاحون فى جرن القرية خلال أمسيات الصيف الندية ، وتتملكهم النشوة وهم يتابعون بطولات ياسين وأعماله الخارقة من أجل مقاومة الظلم ونصرة البؤساء ثم ينجم عليهم الحزن حين يفجعون بمصرعه على أيدي « السودانية من فوق ظهر الهجين » .

وظلت أسطورة ياسين وبهية مجالا خصبا لخيال المؤلفين عبر الأجيال .. كل جيل يضيف إليها ما يوافق ظروفه السياسية والاجتماعية ، ويحقق حلم الشعب فى ظهور البطل حتى لو كانت القصة الأصلية خالية من كل عناصر البطولة والشرف .. وقد يدهش أصدقاء ياسين ، إذا عرفوا أن بطلهم الأسطورى لم يكن سوى مجرم سفاح يحترف مهنة القتل بالأجر ، ويتعيش من دماء الضحايا والأبرياء .. وسوف تزداد دهشتهم ، إذا عرفوا أن قاتل ياسين هو المجاهد الإسلامى المعروف اللواء محمد صالح حرب باشا وزير الحربية ورئيس جمعية الشبان المسلمين ، يرحمه الله .

وقبل الحديث عن القتل .. نتحدث عن القاتل .

ولد اللواء محمد صالح حرب ، فى إحدى قرى (دراو) بمديرية أسوان ، من أب كان يعمل مديرا للجبخانه (مخزن السلاح) فى أسوان ، وينحدر من أصل سودانى من دنقلة . ودخل الصبى المدرسة الابتدائية فى أسوان . وكان زميله فى الفصل الكاتب العملاق عباس محمود العقاد .. وبعد حصولها على الشهادة الابتدائية عام

١٩٠٣ ، انطلق العقاد ، نحو العاصمة ، باحثا عن المجد في عالم الأدب والصحافة . أما صالح حرب فقد أثر الجيش ليحقق أمنيته في أن يكون قائدا مرموقا فالتحق بمدرسة خفر السواحل . وبعد تخرجه فيها اشتغل في الصحراء الغربية وذاق الأمرين من صلف الضباط الإنجليز الذين كانت لهم السيادة الكلية على الجيش ، مما غرس في نفس الضابط الشاب بذور الكراهية للاستعمار ، خصوصا بعد قيام الحرب العالمية الأولى . . وفي عام ١٩١٥ ظهرت الحركة السنوسية في ليبيا بقيادة أحمد الشريف السنوسي لمقاومة الاحتلال الإيطالي ، ففر صالح حرب إلى بنى غازى واندمج في الثورة السنوسية ، حتى أصبح قائدا لجيوشها فحكمت عليه السلطات البريطانية في مصر بالإعدام . . وكانت الخلافة العثمانية في ذلك الوقت تعاني سكرة الاحتضار في مواجهة قوات الحلفاء ، وأصبحت في حاجة إلى مساندة الحركات الإسلامية الفتية ، فبعث الخليفة وحيد الدين غواصة تركية حملت الشريف السنوسي وصالح حرب وأعانها إلى إستانبول . . ولكن الأحداث تلاحقت بسرعة رهيبة فانهارت المقاومة العثمانية ودخلت جيوش الحلفاء عاصمة الخلافة ، ففر السنوسي وصالح حرب إلى الأناضول ، وعملا مع قوات كمال أتاتورك في مقاومة الاحتلال البريطاني ، وظل صالح حرب - وكان له من اسمه نصيب كبير - يحارب في صفوف الثورة الكمالية حتى تم لها النصر على الحلفاء وأطاحت بالخلافة الهزيلة . . وفي تلك الأثناء كانت ثورة مصر ١٩١٩ قد آتت ثمارها ، وشكل سعد زغلول أول وزارة وطنية ، وكان من أوائل أعماله إصدار مرسوم بالعفو عن السياسيين المسجونين والمنفيين ، فعاد صالح حرب إلى وطنه ، وانضم إلى صفوف الوفد ورشحه سعد زغلول في انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٦ في مسقط رأسه أسوان ، فنجح واستطاع أن يحصل لأبناء دائرته على مرسوم بمجانية التعليم . . وبعد حل المجلس عين وكيلا لمصلحة السجون ، ثم مديرا لخفر السواحل ، ثم وزيرا للحربية في حكومة على ماهر التي تشكلت عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية . . ثم اختتم حياته العامة رئيسا لجمعية الشبان المسلمين ، التي تحولت في عهده إلى بؤرة للإشعاع الديني والثقافي ، حتى لقي وجه ربه في عام ١٩٦٨ فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد ضد الاستعمار والكفاح من أجل رفعة الإسلام .

أما عن قصة الرجل مع ياسين ، فقد تضمنتها مذكراته التي نشرها الدكتور محمود

دياب في كتابه (أبطال الكفاح الإسلامى المعاصر) وقد وقعت أحداثها حين كان صالح حرب في بداية حياته العملية بالجيش ، وذهب إلى وادى حلفا ضمن بعثة عسكرية لشراء سرب من الجبال للخدمة في سلاح الهجانة . وفي أثناء عودة الضابط الشاب على رأس قطيع الجبال تسامع عن قصة ياسين . . أعنف شقى وأجراً مجرم مشى على أرض مصر في زمنه ؛ فقد اتخذ القتل حرفة ، وإزهاق الأرواح تسليية . . وكان يطرب كل الطرب عندما يسمع اسمه يردده الناس في خوف وفزع وهلع ويتمنى أن يكون مثل أبى زيد الهلالى . وامتد نشاطه الإجرامى على طول مديريتى قنا وأسوان . . وفشلت جميع الحملات التى أوفدها الحكومة للقبض على ياسين حيا أو ميتا .

وبينما كان الضابط الشاب صالح حرب ، يستريح مع قطيعه من الجبال في بعض الأودية المتاخمة لجبال أسوان ، أبلغه أحد أتباعه أنه رأى بدويا نائما على بطنه عند إحدى المغارات وفي يده بندقية ، فلما ذهب يستطلع الخبر فوجئ بوابل من الرصاص ينهمر من ناحية المغارة ، فأدرك على الفور أن القدر وضعه وجها لوجه أمام ياسين ، وأنه لن يخرج من المنطقة كما دخلها . . فلما قاتلا وإما قتيلا . . وخطرت للضابط الشاب فكرة جريئة . . فاستدار نحو قمة التل الذى يعلو فتحة المغارة وأسقط حبلا تتدل منه حزمة من البوص المشتعل ، وحملت الريح الدخان إلى فوهة المغارة وشعر ياسين بالاختناق ، فاضطر إلى الخروج منها ، ودارت معركة حامية الوطيس . . « وكان سلاح الهجانة في ذلك الوقت سلاحا بارعا في التنشين الماهر وإصابة الهدف . فإذا أربع رصاصات في المليون . . ورأينا الشقى يلقي بسلاحه فجرينا نحوه ، فإذا به قد انتهى بعد أن استقرت إحدى الرصاصات في قلبه . . ودخلنا المغارة المظلمة على أعواد الثقاب . . ففوجئنا بامرأة تصرخ ومعها طفل يولول . . فأخرجناهما ، واتضح أن المرأة المسكينة زوجة الشقى ، والولد ابنه ، فلما علمت الزوجة بمقتل ياسين اندفعت تزغرد وتقول في حماس : بركة لى . . بركة لى . . وحسبت أنها تتصنع الفرح خوفا منا . . ولكنى علمت أنها جادة لأنها كانت تعيش معه في خوف وبلاء . . » .

وانتهت حياة ياسين . . السفاح المحترف . . وبقيت أسطوريته في وجدان الجماهير التى تبحث دائما عن بطل يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، فإذا لم تجده في الحقيقة . . صنعه في الخيال .

أولاد تيمور

عجيب أمر العائلة التيمورية . . . ! لم يكن يجرى في عروق أبنائها قطرة دماء
مصرية . ومع ذلك أحبوا مصر حبا صادقا ، وارتبطوا بشعبها ارتباطها وثيقا .
خالطوا أولاد الخواري في حى الأزهر ، وعاشوا الفلاحين في عين شمس . وتشربوا
الروح المصرية الخالصة ، ثم عبروا عنها بأرقى وسائل التعبير : الفن والأدب . ولا
عجب أن تصدر أول صيحة لإبداع أدب مصرى صميم في مطلع القرن من
الأخوين : محمد ومحمود تيمور .

بم نفسر هذه الظاهرة : توهج العاطفة الوطنية عند بعض الأتراك المتمصرين .
شريف باشا والبارودى وشوقى وقاسم أمين وأولاد تيمور ؟ أدينا الكبير يحيى حقى
يفسرنا بأن العرق الحديث أشد العروق اهتزازاً بحب الوطن الجديد وانتباها لفضله
وجماله . . . فليست العبرة في أن يولد الكاتب في أحضان الطبقات الشعبية ، بل في
قدرته على الإحساس بها وفهمها بفضل حب وتجارب روحى .

وهذا على أى حال تفسير مقبول . وتشهد على صحته حوادث التاريخ .
وينطبق على الأستاذ يحيى حقى نفسه صاحب قنديل أم هاشم ، والبوسطجى
ونجليها على الله . وغيرها من الأعمال الأدبية ذات النكهة الشعبية .

* * *

أما رأس الأسرة التيمورية - محمد تيمور كاشف - فقد هبط مصر ضمن الحملة
العثمانية ، التى جاءت لتهدئة الأحوال بعد خروج الحملة الفرنسية . وكان بين
أفرادها محمد على . وكان تيمور أحد الأعمدة التى ساندت محمد على فى تأسيس
ملكه ، وتولى بعض الوظائف الإدارية الكبرى ، وبنى لنفسه قصرًا منيفًا فى درب

سعادة . وأنجب ولدا وحيدا اسمه إسماعيل ، لم يسلك نهج أبيه في حقل الإدارة العليا . فقد شغله العلم عن وهج السلطة ، وجعل من قصره مجمعا للعلماء والأدباء والفقهاء . وفي هذا المناخ الأدبي تفتحت مدارك ابنته عائشة ، فأصبحت شاعرة مرموقة . وابنه أحمد باشا تيمور ، الذى لم يعرف تاريخ مصر الحديث نظيرا له في حب العلم ، وعشق البحث ، واقتناء المخطوطات النادرة ، وتحقيقها ، حتى بلغ مجموع نفائسه ٧١٣٤ مجلدا ، بين مطبوع ومخطوط أهداها كلها إلى دار الكتب . . كما خلف للأدب والفن ولديه الأديبين الكبيرين محمد ومحمود .

في هذا القصر الذى يشبه دار الحكمة في عصر المأمون ، تنفس الصبيان عبرا ثقافيا معتقا . . وجالسا زمرة عجيبة من البشر الذين لا يمتون بصلة إلى الطبقة الأرستقراطية التى ينتمى إليها صاحب البيت ، وإنما هم خليط من رجال العلم والفقهاء والأدب . ومعظمهم من الفقراء وكلهم من طبقة الشعب . فلم تكن مجالس أحمد تيمور باشا - فيما يسجل الناقد الكبير عباس خضر - تضم أبناء الذوات ، بل كان روادها ممن تجمعهم بصاحب البيت الصلات الفكرية المشتركة . ومن هذا العالم السحري الأصيل ، انطلق الصبى محمد تيمور ليلوى على شىء . ولا على أحد من طبقته الأرستقراطية ، فينزل من قصره يبحث عن الأدباء والفنانين ويذهب محمد تيمور إلى باريس لينهل من علمها وثقافتها كعادة أبناء الذوات في ذلك العصر . ولكن مصر لا تفارق خياله . فلا يكف عن المقارنة بين حال مصر وحال باريس . ثم يعود من هناك وقد تشبعت نفسه بمشاعر التمرد على القديم والرغبة في التجديد . ويقود نهضة أدبية قوامها إبراز الشخصية المصرية المستقلة عن الشرق والغرب . . وإيجاد فن شعبي صادق الإحساس وهو يعبر عن أفكاره عن طريق المقالة الصحفية والمسرحية الاجتماعية ، بل يقف على خشبة الأوبرا يمثل فيراه السلطان حسين فيعجب بشجاعته وتمرده ، ويأمر بتعيينه أمينا في القصر . وهى وظيفة يتمناها أبناء الذوات . ولكن فتانا يضيق بها ويراه قفصا من ذهب . فما أن يموت السلطان حتى يستقيل تيمور ويتحرر من رق الوظيفة ، ويعود إلى عمله الرحب المنطلق . ويتسلطن فؤاد ، وقد أتى به الإنجليز من الكباريه إلى العرش فيستقبله تيمور وسيد درويش بمسرحية « العشرة الطيبة » التى يسخر فيها تيمور من

فساد الحكم ، ويوجه إلى السلطان رسالة على لسان الأخوات يقول فيها : عشان
مانعلى ونعلى ونعلى . . لازم نطاطى نطاطى . . نطاطى . . ويفهم فؤاد الإشارة
فيوعز بوقف المسرحية . . ولا يمضى تيمور فى مشوار التمرد . . فقد اختطفه الموت
وهو فى شرخ الشباب . . وودع الحياة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره . .

العفريت .. !

فى اليوم الأول من أغسطس ١٨٩٦ ، نخلت بيوت القاهرة من سكانها . وهرع الناس - رجالا ونساء وأطفالا إلى الشوارع . واحتشدوا على طول الطريق الممتد من بولاق إلى القلعة عبر ميدان العتبة الخضراء ، ليشهدوا مخلوقا غريبا يزحف على قضبان ملساء . والأولاد من خلفه يركضون ويتصايحون العفريت . . العفريت !!

ولم يكن ذلك العفريت ، سوى أول عربة ترام تشق شوارع القاهرة ، فى أول رحلة تجريبية ، لهذا الكائن الحضارى الذى سيغير وجه المجتمع القاهرى تغيرا شاملا . . وفى العربة كان يجلس ناظر (وزير) الأشغال حسين فخرى باشا ، ومعه كبار موظفيه . وقد تملكهم الزهو والخيلاء . وكانت المركبة - كما وصفها مندوب «المقطم» : « تسرع حتى تسابق الرياح متى نخلت لها الطريق ، وتارة تسير رويدا رويدا ، أو تقف بغتة عند اعتراض الأولاد والسابلة طريقها . وقد وقف سائقها ووضع يده على ميزان تسييرها وإيقافها ، ويصل بينها وبين السلك فوقها عمود من الحديد لإتمام الدورة الكهربائية .

وبعد أيام من تلك المرحلة التجريبية المثيرة ، احتفلت الشركة البلجيكية رسميا بتسيير الترام على الخطوط الثمانية ، التى كانت تتجمع فى ميدان « العتبة » وتمتد إلى أطراف القاهرة . ووصفت الصحف هذا الحادث الفريد بقولها : شهد أهل العاصمة أمس مشهدًا قلما شهد مثله أهالى المشرق ، ولم يخطر على قلب بشر منذ مائة عام وهو أن تجرى مركبات كبيرة تقل المئات من الناس ، لا بقوة الخيل ولا بقوة البخار بل بقوة الطبيعة التى تسبب البروق . هذا هو الترامواى الكهربائى .

وفى الكتاب البديع الذى وضعه محمد سيد كيلانى عن « ترام القاهرة » معلومات

طريقة عن عملية تنظيم ركوب الترام . « فقد كان يحظر ركوبه على كل محدث غوغاء أو سكران . أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس ، ولا يجوز تسلق العواميد المعدة للحركة الكهربائية ، أو تعليق شئ عليها أو إقامة إشارات كاذبة .

ونستخلص من دراسة محمد سيد كيلانى أن تسيير الترام كان حدا فاصلا فى تاريخ المجتمع القاهري . انتقل فيه من طور البداوة والتأخر ، الذى يتمثل فى استخدام الحمير والبغال . إلى طور الحضارة والمدنية الذى يتمثل فى استخدام القوة الكهربائية ، وكان سواد الشعب فى القاهرة يعانى مشقات هائلة فى الانتقال من جراء استبداد أصحاب الحمير والعربات وتحكمهم فى الناس ، وما يوجهونه إلى الجمهور من ألفاظ نابية ، فلما أنشئ الترام ، حدثت ثورة هائلة فى جميع نواحي الحياة القاهرية فتلاشت العزلة بين أحياء المدينة . وسهلت عملية الانتقال وطاب السهر ، وأصبح فى متناول الشبان قضاء الليل فى الملاهى والمراقص ، وبدأت الروابط العائلية فى التفكك ، وضعفت رقابة الآباء على الأبناء . كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران ، ونشطت الحركة التجارية ، ونشأت المحلات الكبرى فى منطقة العتبة . ولما سهل على الناس الانتقال ، عظم امتزاجهم واشتد اختلاطهم ، وبدأ رأى العام يتبلور ويصبح خطرا على الجهات الحاكمة . وكثرت الأندية الثقافية والرياضية والصحف والمجلات . . . وكان من الطبيعى أن ينعكس هذا كله على الأدب . . . فظهر « الأدب الترامى . . » الذى يسجل معالم الحياة الجديدة بما فيها من خير وشر وخلاعة ومجون . وتقدم وتأخر . . وخصوصا بعد أن أصبح الترام سببا فى وقوع حوادث لم يألها جمهور القاهرة من قبل . . وفى ذلك يقول شاعر خفيف الظل اسمه إلياس حنيكاتى .

إن الترامواى على القاهرة مصيبة ياقومنا قاهرة
فكم قلوب هاها رهبة وكم نفوس غاها طاهرة
يجرى وعزرائيل من خلفه يمد للقبض يدا غادرة
فيأرجال الضبط ما ضبطكم وأين العين الساهرة

وبمرور السنين ، يضحى الترام وسيلة متخلفة بالقياس إلى وسائل النقل الأكثر حداثة وسرعة ، وانطبقت عليه سنة الحياة التى لا ترحم العاجزين عن مواكبة إيقاع

العصر . . فكاد يختفى من شوارع العاصمة ، ترى . . ماذا سيقول سكان القاهرة بعد عامين عندما يشاهدون مركبات المترو وهى تشق بطن الأرض ؟؟ وهل سيصيحون كما صاح أسلافهم : العفريت . . العفريت ؟؟ أغلب الظن أنهم لن يفعلوا . . لأن كلمة عفريت نفسها قد اختفت من قاموس الألفاظ الدارجة عند أطفالنا .

تحرير المرأة المصرية

كان صدور كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين بمثابة إلقاء حجر في بركة راكدة فتحركت مياهها الأسنة واهتزت أمواجها ، وتطاير رذاذها لينال من سمعة الرجل وكرامته ، حتى أن الخديو عباس الثانى أمر بوضع اسمه على قائمة الممنوعين من دخول قصر عابدين ، بالرغم من مركزه القضائى الرفيع . . . وبعدها انهار الطاعنون يسلقون الرجل بالسنه حداد . . . ويرمونه بأبشع التهم التى بلغت حد الإلحاد والمروق من الدين .

انظر إلى هذه الصورة الوصفية التى يسجلها الدكتور محمد حسين هيكى فى مذكراته عن الزوبعة التى صاحبت ظهور الكتاب : فى سنة ١٩٠١ وقع حادث لفت أنظار الناس جميعا ، وأثار ضجة كبرى ، ذلك أن قاسم بك أمين المستشار بمحكمة الاستئناف ، نشر كتابا عنوانه « تحرير المرأة » طلب فيه تعليم المرأة ورفع الحجاب عنها ، وكان تعليم المرأة يومئذ أمرا إذا ، لا يقوم عليه رجل حريص على احترام الجمهور المصرى له ، أما رفع الحجاب وخروج المرأة سافرة إلى المجتمعات ، فكان القول بهما أدنى الأشياء إلى تحليل ما حرم الله إن لم يكن الشرك بالله (!!) فقد كانت المرأة يومئذ محكومة عليها بالألا تتعلم وألا تخرج من بيتها إلا لضرورة ملحة ، وإلا محجوبة الوجه . . . والمرأة المصرية التى كان يجرى عليها هذا الحكم لم تكن المرأة الفلاحة المضطرة بحكم الحياة إلى مشاركة زوجها فى عمله ، بل المرأة التى يستطيع زوجها أو أهلها أن يعفوها من مشقة الخروج من البيت . فكان ظهور هذا الكتاب حادثا - بل حادثا خطيرا - اضطربت له آراء الهيئات الدينية واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم .

وإذا كان قاسم أمين قد دخل تاريخ مصر الاجتماعى ، على أنه محرر المرأة ، حتى

أطلق اسمه على كثير من مدارس البنات ، إلا أن الدراسات الحديثة تكشف عن أن قاسم أمين لم يكن أول الرواد الذين ارتادوا هذا الحقل الملىء بالألغام . . وإنما سبقته جهود حثيثة قام بها آباء الاستنارة الفكرية الذين وضعوا للبنات الأولى في صرح المجتمع المصرى الحديث وهو يعانى آلام المخاض . . ويشق طريقه بصعوبة من خبايا العصر التركى إلى مشارف العصور الحديثة . وكان على رأس هؤلاء جميعا ، أبو الرواد رفاعة رافع الطهطاوى ، الذى حمل راية التنوير في شجاعة وثبات ، ودعا إلى تعليم المرأة وإتاحة الفرصة أمامها لتعمل إلى جانب الرجل ، ورأى في تعليمها وعملها تكريما لها ورفعاً لمكانتها .

يقول الدكتور محمد كمال يحى في كتابه (الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية في العصر الحديث) : إن قضية تعليم المرأة لم يكن مقيضا لها النجاح ، لو لم يتصد لها المفكرون والكتاب من عامة المصريين ومثقفهم بالتحليل والإقناع ، ويأتى على رأس هؤلاء رفاعة الطهطاوى الذى طالب في كتابه (تخلص الإبريز) بتعليم المرأة قائلاً : لقد اقتضت التجربة في كثير من البلدان أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره . . بل لا ضرر فيه أصلا . . ودخول البنات والغللمان للمدارس واجب قانونا في جرمانيا - بل إن أوربا كلها تعلم البنات والبنين على قدم المساواة ، وإن لم يكن ذلك بقانون - وهذا هو السر في أن بلادهم الآن هي أقوى البلدان .

ولم تكن دعوة الطهطاوى إلى عمل المرأة صادرة عن رؤية خيالية أو شطحة فكرية ، بل عن إيمان عميق بهذه القضية ، خاصة عندما أكد في كتاب له بعنوان (المرشد الأمين للبنات والبنين) وخصص فيه فصلا كاملا عن « تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم وكسب العرفان » . وإذا كانت دعوة الطهطاوى إلى تعليم المرأة قد لقيت استجابة محدودة من جانب مؤسس مصر الحديثة ، وإذا كانت مصر قد شهدت في عهد محمد على أول نواة لتعليم البنات . فإن أفكار الطهطاوى وجدت صداها العميق عند إسماعيل ، ذلك العاهل المستنير الذى قاد النهضة الثقافية والعلمية بلا منازع ، وفي عهده انتشرت مدارس تعليم البنات بمعاونة رشيدة من رائد آخر هو على باشا مبارك الذى كان يرى أن من حق الفتاة أن تتبحر في العلم إلى غايته . وكان يرى أن الحياة بين الزوجين شركة يتعاونان فيها على العيش بالعمل والكسب ، فقرر بهذا حقها في التعليم ، ثم في العمل الذى تقدر عليه . وحين يتعرض

على مبارك لقضية الحجاب والسفور ينتهى فيها إلى أن القدوة الصالحة والنصح الرشيد هما منبع الخير وأصل الفضيلة ، وكان فى نفس الوقت يميل إلى سفورها وإن لم يصرح بذلك ، وترك لغيره بعده أن يبهر به ، فلم يمض ربع قرن حتى قام قاسم أمين يدعو إلى « تحرير المرأة من وقر الحجاب وقيوده التى تعزل المرأة عن الحياة العامة ، وتحول بينها وبين أن تكون عوناً لزوجها وشريكاً له فى مواجهة الحياة .

ويقدم لنا الدكتور كمال يحى رائدًا ثالثًا من رواد تحرير المرأة فى القرن التاسع عشر، هو عبد الله النديم ، مما يدل على أن قضية المرأة كانت هدفاً من أهداف إصلاح المجتمع فى مفهومه العام . ولم يتخلف النديم عن مفكرى عصره فى تأييد تعليم البنات . ومع أنه كان من مؤيدى سياسة الحجاب والتمسك به ، فقد أيد تعليم البنات أمور الدين وشئون الأسرة وأصول الحياة الزوجية والتدبير المنزلى وعارض تعليمهن الموسيقى والرقص واللغات الأجنبية .

إن الحديث عن موقف رائد الرواد رفاعة الطهطاوى من قضية المرأة يتطلب إلقاء الضوء على تلك الوثيقة الهامة التى تكشف بوضوح عن الارتباط العميق بين أفكار رفاعة وسلوكه الشخصى . لقد كان الرجل يكن احتراماً عميقاً للمرأة ويؤمن بحقوقها فى المساواة والعدل ، فلما تزوج بنت خاله حرر لها هذه الوثيقة الموجودة فى دار المحفوظات ونصها كما يلى :

« التزم كاتب هذه الأحرف رفاعة بدوى رافع - لبنت خاله المصونة ، الحاجة كريمة ، بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الأنصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من نساء أو تمتع بجارية أخرى - فإن تزوج بزوجة أيا كانت - تكون بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة - وكذلك إذا تمتع بجارية ملك اليمين . ولكنه وعدا صحيحاً لا ينقض ولا يحل أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها ولأولادها ولخدمها وجواريتها ، ساكنة معه فى محل سكناه ، لا يتزوج بغيرها أصلاً ، ولا يتمتع بجوار أصلاً ، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضاه . »

وهذه الوثيقة واضحة الدلالة على أن الطهطاوى لم يكن من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون .

عبيد وجوار

كان الرقيق يشكل عنصرًا أساسيًا في كيان البيت المصري خلال القرن التاسع عشر ، وقلما كان بيت ارسقراطى يخلو من العبيد والجوارى الذين يتناسب عددهم مع ثراء رب البيت ، وقدرته على دفع أثمانهم والإنفاق عليهم ما داموا ملك يمينه . . فثمن الصبى أو البنت السوداء كان لا يزيد على ١٢ جنيها ، أما الرقيق الحبشى فأعلى درجة ، إذ يتراوح ثمن الصبى بين ٢٠ و ٣٠ جنيها ، و ثمن الفتاة الحبشية تحت سن ١٨ يصل إلى مائة جنيه . وأما الرقيق الأبيض من الجوارى الشركسيات الجميلات فكن باهظات الثمن ، إذ يختلف ثمن الجارية بين ٢٠٠ و ٥٠٠ جنيه ويصل فى حالة جاهها الأخاذ إلى ألف جنيه ، فلا يقدر على اقتنائهن سوى غلاة الموسرين كالأمراء ومن يلوذ بهم من الشرائع العليا فى المجتمع .

وقد وجد بين المصريين من كان لديه القدرة على تملك مئات الجوارى من شتى الأصناف والألوان والأجناس ، مثل إسماعيل صديق باشا « المفتش » الصعلوك الذى رفعته الأقدار من حضيفض الفاقة إلى مجتمع الملوك ، فعاش عيشة البذخ والسفه ونسى حياة الجوارى والجحور ، فلما انقلب عليه الخديو إسماعيل ، أخوه من الرضاعة ، وقتله غيلة ، وجدوا بين تركته الأسطورية سبعمائة جارية « . . ما بين حورية شركسية بيضاء ذات ثمن يفوق كل تقدير ، وخميرة مسكرة ، وسمراء غانجة ، وحبشية شعرية ذات عين بقرية ، وبرونزية موشومة ذات نهود سفرجلية وسودانية فحماء « متقدة الدم » على حد وصف المؤرخ إلياس الأيوبى ، وقد أشرف الخديو إسماعيل بنفسه على توزيع هذا القطيع الأنثوى ، فاختار أجملهن خلقا وأخفهن دما ، وأمهرهن صناعة وألحقهن بالحريم الخاص بالخديو ، وأهدى بعضهن

إلى أصفياه من كبار ضباط الجيش وكبار رجال الدولة ، « إما لكى تقع نقطة من دم صديق على كل منهم ، وإما - وهو الأقرب إلى المعقول فى رأى الأيوبي - لكيلا يفوت البغاث شىء من فضلات النسر » . أما الباقيات ، فقد عرضن للبيع فى سوق النخاسة ليشتريهن من يريد أن يقتنى أثرًا من آثار فرعون الصغير . أما الخديو نفسه فكانت قصوره تحوى حوالى ألفين من الجوارى الحسان .

وكان لتجارة الرقيق تنظيم محلى فى مصر ، على ما يذكر الدكتور محمد كمال يحيى . . . وكان معظم هؤلاء التجار من أبناء مصر العليا أو السودانيين المقيمين فى مصر ، وفى القاهرة بصفة خاصة . . كما كان هناك بدو وقرويون من مديرية البحيرة ومغاربة اشتغلوا بهذه التجارة . . وفى بعض الأحيان اجتذبت هذه التجارة بعض النساء فاحترفنها - وكان تجار الرقيق الأسود يختلفون عن مستوى زملائهم تجار الرقيق الأبيض ، فالأولون كانوا ينتمون إلى مجموعة من طوائف الحرب ذات الوضع الاجتماعى المنخفض ، بينما كان المشتغلون بتجارة البيض من تجار خان الخليل .

وكان جلب الرقيق الأسود ، يجرى عن طريق القنص والخطف بواسطة عصابات تقوم بهذا العمل الإجرامى فى حملات شبه عسكرية ، ثم تباع إيراداتها إلى شركات تجارية تتولى حمل الرقيق عن طريق النيل فى مراكب ترفع رايات دول أجنبية لكى تحتمى بامتيازاتها ، أو عن طريق الصحراء إلى أسىوط ، ومنها إلى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى . . أما جلب الجوارى البيض ، فكان فى معظمه يتم بالتراضى ، عن طريق الشراء من الآباء الذين يعرضون أولادهم وبناتهم للبيع تخلصا من نفقاتهم ، وعلى أمل أن تتاح لهم فرص الحياة الرغدة فى قصور السلاطين والأمراء ، فلربما بلغ أحدهم مركزاً مرموقاً فى وظائف الدولة ، ولربما أصبحت إحداهن السيدة الأولى فى قصر سيدها إذا نجحت فى الاستئثار بقلبه وأضحى محظيته المفضلة ، أو زوجته إذا أنجبت فاعتقت .

وكان هنا صنف ثالث من الرقيق ، لا هو من العبيد ولا من الجوارى . . أولئك هم (الخصيان) الذين كان الأمراء يعهدون إليهم بخدمة « الحریم » دون خوف على أعراضهن بعد أن أزيلت من أجسام الصبية أعضاء التناسل . وكانت عملية الخصى البشعة تجرى داخل بعض الأديرة فى صعيد أسىوط . يقوم بها الرهبان المتمرسون

مقابل أجر كبير يتناسب مع خطورة هذه العملية التي كانت تنتهى غالبا بوفاة الصبى ، فمن نجا منهم من الموت سيق إلى سوق النخاسة ليباع بسعر يفوق سعر غيره من أصناف الرقيق .

أما الجارية البيضاء فكانت تخضع داخل بيت النخاس لبرنامج طويل المدى تلقن أثناءه مبادئ الدين والقراءة والحساب . ثم تتعلم شئون التدبير المنزلى كالطهى والحياكة وأصول التعامل مع السادة ، فإذا كانت تتمتع بموهبة خاصة كالصوت الجميل جاءوا لها بمعلمين متخصصين يدربونها على الغناء والعزف على العود ، وكل إضافة إلى قدراتها ترفع من سعرها ، فإذا انتهت مرحلة التدريب والإعداد يبدأ عرضها على سماسرة يبحثون عن هذا النوع المتميز لتحل مكانها فى قصور العلية الموسرين .

أما بقية الجوارى اللاتى لا يتمتعن بمواهب خاصة ، فكان يعهد إليهن بالأعمال التافهة وفق تقاليد العصر ، فواحدة وظيفتها « قهوجى كالفه » لتقديم القهوة وأخرى لحمل الملابس على اليد ، وثالثة لتقديم الشراب ، ورابعة وظيفتها « سفرجى كالفه » أى إعداد المائدة للطعام ، وهناك « شمورجى كالفه » ووظيفتها تحضير الملابس للسيد .

وكان اقتناء الرقيق فى البيت المصرى ، من مظاهر الأبهة والفخفة والرغبة السقيمة فى تقاليد الأرستقراطية التركية . . فتحول البيت المصرى إلى مسخ من الحرم التركى يموج بألوان من الجوارى والعبيد والخصيان لمجرد التشبه بالسادة الترك دون أن تكون هناك حاجة عملية لحشد هذا الكرنفال المتعدد الألوان ، إذ كان رب البيت لا يعرف فى الغالب أسماء جواريه ولا يعيرهن التفاتا ، خاصة إذا كانت سيدة البيت من الحرائر ، فلا تسمح لزوجها بأن يلعب بذيله مع هذه الفراشات الجميلة . ولذلك كانت الزوجة تتفانى فى إرضاء زوجها وتقوم على خدمته بنفسها دون جوارىها حتى لا تسمح لواحدة منهن بإغرائه والاستحواذ على قلبه .

فلما أوشك القرن التاسع عشر على الغروب ، كانت الدعوة إلى عتق الرقيق قد أصبحت مطلبا إنسانيا تردد فى كل أنحاء العالم الذى كان يعترف بالرق ووصل صدهاء إلى مصر . . واستجابت الدولة لدواعى العصر فأصدرت التشريعات التى تحرم جلب الرقيق . . وقامت الحملات لمطاردة النخاسين ، وأنشأ الخديو إسماعيل

مدرسة خاصة لتعليم عدد من الفتيات الريفيات الفقيرات شئون الخدمة المنزلية
ليكن بديلات عن الجوارى المرغوب فى عتقهن ، وبدأ المجتمع المصرى يجد فى
التخلص من الرقيق . . . ولكن المشكلة التى لم يفكر فيها أحد هى : أين تذهب
الجوارى بعد عتقهن ، وليس لهن جذور فى المجتمع ولا يعرفن لهن آباء ولا أمهات ولا
إخوة؟؟ وكانت النتيجة المؤسفة هى اضطرار معظم الجوارى إلى احتراف البغاء !!

نفس المأزق الذى وقع فيه سبارتاكوس قبل ١٧ قرنا عندما قاد ثورة تحرير العبيد
دون أن يفكر فى مصيرهم بعد التحرير !! فعادوا إلى الرق مرغمين . . !!

غرام الشيوخ

أصبح من الواجب أن نتحدث عن الشيخ على يوسف ، وقد انتقل الوفد - حزبًا وجريدة - إلى المقر الجديد الذى يقع فى شارع يحمل اسم هذا العلم الذى خفق فى سماء مصر فى مطلع القرن ، فكان ملء الأسع والأبصار . والبطل المغوار فى حقل السياسة والأدب والصحافة ، والنجم الساطع فى دنيا العشق والغرام . . واكتسب من كل أولئك مجداً رفعه إلى مصاف العلية المرموقين . . وحقق ما كان يصبو إليه من جاه وثراء ونفوذ . . ثم إذا به - فجأة - يبدد كل هذا المجد ، ويعتزل الأضواء والشهرة والصخب ، ويسعى إلى وظيفة شيخ طريقة صوفية !! فكان مثله كمثله الرابع الذى خسر كل شىء وهو لم يزل فى حلبة الصراع ، فيلقى سلاحه وهو فى أوج انتصاره ويدير ظهره إلى خصومه قبل أن ينقشع غبار المعارك ، ثم يتركهم وهم فى ذهول من أمره ليأوى إلى ركن ظليل فى تكية صوفية متعلقاً بأهداب الانتساب إلى بيت من بيوت السادة الأشراف . . عساه يجد فى الشرف المصطنع ما يرضى كبرياءه الجريح ويعالج العقدة التى دمرت سعادته ونغصت حياته - عقدة النسب الوضيع - وحرمته لذة الاستمتاع بشمار النصر التى اجتناها بأظافره فى مجتمع كان يقيم اعتباراً كبيراً لعوامل الحسب والنسب .



جاء على يوسف من أعماق الصعيد شاباً يافعا إلى رحاب الأزهر مثل ملايين من أبناء الفقراء سبقوه على الدرب بحثاً عن آثاره من علم تؤهلهم لشغل وظيفة متواضعة العائد . . ولكن شيخنا الشاب كان يحمل بين جنبيه روحاً وثابة ، وهمة عالية وإرادة حديدية وعناداً فطرياً ضد عناصر المقاومة التى تحول بينه وبين ما يريد . .

كانت نفسه تجيش برغبة عارمة في أن يكون شيئاً مذكوراً . . فكان عليه أن يقتحم العالم الفوقى الذى يمسك في يده زمام السلطة والنفوذ والجاه والثراء . . ولم يكن شيخنا يملك المفاتيح التى تمكنه من دخول ذاك العالم الصاخب ، ولكنه كان يملك من القدرات الذاتية والملكات العقلية والخلقية ما يعوضه عن عراقه النسب وفخامة الحسب . . وكان عليه أن يوظف هذه القدرات ليصل إلى مبتغاه . . فكان ذئبا بين الذئاب يناطح أضرابه المتكالبين على مائدة السلطان وكل يحاول الزلفى إلى صاحب العرش . . وكان عليه أن يكون ثعلبا شديدا الدهاء . يراوغ ويناور حتى يفوز بقلب الأمير . . وكان ما أراد ، فإذا به بين عشية وضحاها جليس الخديو ونديمه ومكمن سره ولسانه الناطق . . وأصبحت صحيفته (المؤيد) ، كبرى صحف الشرق في أخريات القرن الماضى ، هى صوت السلطة الشرعية فى مقابل (المقطم) صوت السلطة الفعلية والناطقة باسم الاحتلال ، وفى مواجهة (اللواء) صوت الشعب النابض بالحرارة الوطنية .

وتنشأ بين الصحف الثلاث أو قل بين السلطات الثلاث معارك طاحنة يخوضها الشيخ شاهراً قلمه الفتاك فى وجه خصوم الخديو غير عابئ بسخط الجماهير عليه وعلى سيده . . وكان يردد : والله ما يعنينى أن يكون الناس جميعا فى صف واحد وأنا والحق الذى أعتقده بإزائهم فى صف واحد .

* * *

وتشهد الحياة السياسية المصرية فى مطلع القرن طفرة انتقالية تتمخض عن ظهور الأحزاب السياسية لأول مرة فى تاريخ البلاد . . ولم يكن من الغريب ، أن تولد هذه الأحزاب فى حجر الصحافة ، التى كان لها دور الريادة فى إيقاظ الحس الوطنى وتحريك الجماهير ، بعد فترة الركود التى رانت على مصر ، منذ ابتليت بالاحتلال البريطانى . . ففى أحضان (اللواء) ولد الحزب الوطنى بين يدى زعيمه الشاب مصطفى كامل ، وهو يومئذ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة . . وفى أحضان (الجريدة) ولد حزب الأمة ليعبر عن مصالح أثرياء مصر فى مواجهة فلول التركية البائدة والعائدة فى شخص عباس الثانى . . وينهض الفيلسوف أحمد لطفى السيد ليتكلم باسم (أصحاب المصالح الحقيقية) وينشر بذور الفكر الليبرالى على

صفحات الجريدة ، ومن حوله الجناح المثقف في معسكر الأرسطراطية المصرية الناشئة .

ولم يكن للخديو الشاب أن يقف متفرجا في الساحة التي تفور بالأفكار والمصالح المتضاربة ، كان عليه أن ينشئ حزبا يتحدث باسمه ويدافع عن مبادئه التي تقف عند الحد الفاصل بين وطنية مصطفى كامل الجامحة . وعقلانية أحمد لطفى السيد المتهادنة مع الاحتلال . . وكان على الشيخ على يوسف أن يلبي رغبة الأمير ويصنع له حزبا . . أسماه حزب (الإصلاح على المبادئ الدستورية) . وكأى حزب يولد في حجر السلطة ، فيكتب شهادة وفاته مع شهادة ميلاده . كان مصير هذا الحزب الأميرى ، فكان معدوم التأثير والفعالية في الشارع المصرى . . بينما ظل صوت (المؤيد) أقوى تأثيرا وأكثر فعالية حتى خلع البعض على صاحبه لقب (أعظم صحفى في العالم) ، ووصفوا صحيفته بأنها (تايمز الشرق) ومع ذلك لم تشبع هذه الأحماد طموحات على يوسف . . فراح يبحث عن المجد في دنيا الحب . . فلم يجد إلا الجحود والعذاب والحرمان .

عاشقان جريئان

كان مكتب الشيخ على باشا يوسف في صحيفة « المؤيد » أشبه بمتدى فكرى يتردد عليه وجوه القوم من رجال الدين والسياسة والأدب . « وكان من أبرز هؤلاء : السيد عبد الخالق السادات عميد بيت السادة الوفائية . وهو من أعرق البيوت المصرية وينتهى نسبهم إلى الحسن السبط ابن الإمام على كرم الله وجهه . . واعتاد السادات أن يصحب معه إلى المؤيد صغرى كريماته (صفية) . . وكانت صبية مليحة . على شىء من البدانة التى كانت من سمات الجمال فى ذلك العصر . . وراقت الصبية فى عين الشيخ على ، وصادفت من نفسه هوى . . فخطبها من أبيها الذى رحب بمصاهرة رجل ذائع الصيت ، كبير الجاه لقرب موقعه من الخديو عباس ، وتجاهل الأب فرق السن بين الشيخ والفتاة ، كما تجاهل انعدام الكفاءة الاجتماعية بين رجل مجهول النسب ، وأسرة تحظى بشرف الانتساب إلى البيت النبوى . . وقبض الأب مهر ابنته وسافر الجميع لقضاء الصيف فى ربوع تركيا كعادة الوجهاء فى ذلك العصر ، على أن يتم الزواج بعد العودة إلى مصر . . ولكن . .

بعد العودة شعر الشيخ على يوسف بأن السادات يباطل فى إتمام العقد . بل صرح بأنه لن يصاهر رجلا لا يضارعه حسبا ونسبا ، ولما كان الشيخ العاشق واثقا من تعلق الصبية به . واستعدادها لإتمام الزواج رغم معارضة أبيها - فقد أقدم عاشقان على خطوة جريئة فى عرف العصر . وهى إبرام عقد القران فى بيت آخر خارج بيت الوالى الشرعى ، ووقع اختيارهما على سراى البكرى بالخرنفش محلا مختارا لإتمام العقد .

وكان السيد توفيق البكرى - نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية - على

رأس البيت الآخر من بيوت العلية الأشراف ، هو بيت السادة البكرين الذين ينتهى نسبهم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان البيتان الكريمان - البكرى والوفائى - يتناوبان زعامة نقابة الأشراف ، وهو منصب كان له جليل الخطر وعظيم الأثر فى نفوس المصريين ، لما عرف عنهم من تعظيم وإجلال لكل من يرمى لأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار .

وأراد السيد توفيق البكرى أن يجمع البيتين تحت لواء واحد عن طريق النسب حتى تظل له نقابة الأشراف ، خاصة أن السيد عبد الخالق السادات لم ينجب غير ثلاث بنات ، فتزوج توفيق من كبراهن (حفيظة) ، وزوج الوسطى (أسماء) من ابن أخيه عبد الحميد البكرى ، حتى تتوفر له وراثته الزعامة إذا حرم العم من إنجاب الولد وبقيت الصغيرة (صفية) لتكون من نصيب على يوسف ، ولتكون بطلة هذه القصة التى هزت المجتمع المصرى من أعماقه ، وانقسم بسببها رأى العام بين مناصر للتقاليد والآداب الاجتماعية ، ومؤيد للتحرر والخروج على الأعراف الموروثة . . ولم يكن غريباً أن تكون هذه القصة مجالاً للصراع بين القوى السياسية الكبرى : المعتمد البريطانى كرومر ، والخديو عباس ، والزعيم الشاب مصطفى كامل ، وكل الأحزاب السياسية ، فضلاً عن المؤسسات الدينية التى هبت للدفاع عن حرمة الشرع .

* * *

لقد فوجئ السيد توفيق البكرى ، بصديقه الحميم على يوسف باشا وشقيقة زوجته - صفية - يدقان عليه باب قصره المنيف بالخرنفش - الذى كان يوماً مقراً وسكناً لوالى مصر عباس الأول ومن بعده سعيد باشا - ويضعانه أمام الأمر الواقع ، ويطلبان منه إتمام عقد الزواج على سنة الله ورسوله . . وأسقط فى يد الرجل . . فقد كان يعلم جيداً مخاطر هذا التصرف الذى يتنافى مع تقاليد السادة الأشراف ، فضلاً عن منافاته للآداب العامة التى لا تقبل بحال أن تعقد فتاة زواجها دون رغبة أبيها . . ولكنه وجد نفسه أمام عاشقين مصممين على تنفيذ عزمهما ، ويهددان بتنفيذ غرضهما فى مكان آخر إذا أصر على الرفض . . فما كان منه إلا الخضوع والاستسلام . . وبعث يستدعى الشيخ حسن السقا إمام وخطيب الجامع الأزهر فتولى الوكالة عن الفتاة

وشهد على العقد زوجها أختيها توفيق وعبد الحميد البكرى وشرب الجميع
الشربات . .

* * *

وبعد ٤٨ ساعة . وفي يوم السبت ١٦ يولييه ١٩٠٤ خرجت صحيفة (المقطم)
تزف إلى قرائها نبأ « عقد قران السيد على يوسف ، على إحدى كريمات السيد عبد
الخالق السادات في حفلة ضمت الكثير من العلماء . . ثم قصدت العروس بعد
ذلك إلى المنزل الذى أعده لها بناحية الظاهر ، وتعمدت المقطم إغفال ذكر المكان
الذى عقد فيه القران إمعانا في تضليل الأب الذى جرح في كرامته أمام أتباعه ومريديه
وإذلاله أمام رأى العام الذى يضع بيت السادات حيث هو من التكريم . . وبعث
السادات بخطاب إلى الصحف ينفى فيه علمه بالزواج ، ويؤكد أن الزواج - إن وقع -
فعلى غير رضاه ، وأنه أبلغ الأمر إلى جهات الاختصاص . وكان من الطبيعى أن
تمتنع (المؤيد) عن نشر الرسالة . ولكن المريب كان امتناع (المقطم) عن نشرها
بعد أن نشرت الخبر . . وخرجت (اللواء) وفي صدر صفحتها الأولى رسالة الأب
الجريح . . فكانت أشبه بقنبلة انفجرت فتطايرت شظاياها في رقعة واسعة من
الأرض . . هى كل أرض مصر .

أبو خطوة يقلب المائدة

بعد عشرة أيام فقط ، من إعلان زواج الشيخ على يوسف وصفية السادات . بدأت محكمة مصر الشرعية في نظر الدعوى التي رفعها السيد عبد الخالق السادات طالبا فسخ العقد لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين . . واستند الأب إلى أن الشيخ على يوسف - وإن كان صحفيا مرموقا ، وأديبا مشهورا ، وزعيما لحزب سياسى وأحد المقربين من أمير البلاد - فإنه يفتقر إلى النسب الرفيع الذى يؤهله للزواج من إحدى سليلات البيت النبوى . . فكل هذه المكتسبات مستحدثة ولا تغير من الواقع شيئا . وهو أن الشيخ على من « العامة » الذين لا يحق لهم التطلع إلى مصاهرة الأشراف .

وفى يوم نظر القضية ، غصت ساحة المحكمة الشرعية بباب الخلق بأشتات من البشر من شتى الطبقات والثقافات . . جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا وقائع هذه القضية التى تمس بعض مقدسات المصريين فى احترام العلاقات الأسرية ، ومراعاة الآداب الاجتماعية والتقاليد الموروثة . . وكانت الكثرة الغالبة من رأى العام تقف فى صف الأب المنكوب ضد الشيخ الذى أغوى فتاة شريفة ، وحرصها على التمرد والخروج على الآداب ، فتزوجت بغير رضا والدها ، بينما كانت القلة المثقفة المتحررة من التقاليد تناصر الشيخ على يوسف الذى صنع مجدا لم يستمد من عراقه الحسب والنسب ، ولكن من شرف العمل والجهد والكفاح . . ولا ترى هذه الفئة عيبا فى خروج فتاة عن ولاية أبيها لتتزوج الرجل الذى أحبته .

* * *

تلك كانت عناصر الصراع بين جبهة التقاليد والأخلاق ، وجبهة التحرر

والانفلات ، ولكن هذا التمايز الأخلاقي الظاهري كان يخفى وراءه صراعا أشد وأعتى بين القوى السياسية الجبارة التي وقفت وراء الكواليس ، كل منها تؤيد طرقا من أطراف القضية ، وتسعى لتصفية حسابات سياسية لا علاقة لها بجوهر القضية . . فمصطفى كامل وجدها فرصة ذهبية للانتقام من غريمه اللدود على يوسف . الذى كان دائم التهجم على الزعيم الشاب واتهامه بالرعونة والتطرف . . وانهالت معاول مصطفى كامل فى (اللواء) على رأس صاحب (المؤيد) وزعيم حزب الإصلاح . . ولكنه فى الحقيقة كان يقصد رأس الأفعى - عباس الثانى - الذى نفّض يده من معسكر الحركة الوطنية ، وانحاز نهائيا إلى صف الاحتلال بعد توقيع الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا فى إبريل ١٩٠٤ ، أى قبل أربعة شهور فقط من انفجار قضية الزوجية .

وكان عباس يعى جيدا أبعاد الهجوم الشرس الذى شنه مصطفى كامل على نديمه على يوسف . . ويعرف أنه المقصود بالم هجوم ، حتى لو تذرّع صاحب اللواء بحجة الدفاع عن آداب الشرع وحرمة التقاليد . . ووجد الخديو نفسه مضطرا إلى الوقوف إلى جانب رجله فى محنته ، ومحاولة إنقاذه من الورطة الغرامية التى تطورت إلى محنة سياسية ، وضعت القصر فى دائرة الاتهام . . فعباس نفسه كان متهما بأنه هو الذى أوحى إلى الشيخ على بفكرة الزواج من بنت السادات ، وانتحل له نسبا شريفا مزيفا حتى تتاح له فرصة رئاسة مشيخة السادات الوفائية ، فيضمن ولاء هذه الفرقة الدينية الثرية بوضعها تحت رئاسة أحد رجاله الأصفياء . . وكان عباس يسعى دائما للاستيلاء على مناصب الرئاسات الدينية فى مصر ، ولإسياء الرئاسات التى لها إشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ذات الإيراد المالى الوفير . . وكانت هذه الرغبة محلا لصراع تاريخى معروف بين الأمير ومفتى الديار الإمام العظيم محمد عبد الذى رفض بإباء وضع الأوقاف الخيرية تحت سيطرة الخديو .

* * *

ولم يتخلف جبار الاحتلال - اللورد كرومر - عن المشاركة فى إذكاء حمى الصراع بين أطراف قضية الزوجية ، فاختار الوقوف إلى جانب على يوسف تسديدا لحسابات قديمة اتخذ فيها الشيخ موقف المؤيد للإنجليز ، وليقطع بينه وبين الحركة الوطنية

التي اتخذت موقف الشبهة من الشيخ العاشق ، ولتكون مناصرة الإنجليز لرجل
القصر القوى أولى ثمار المصالحة بين كرومر وعباس . وإغراء الأمير بمزيد من التورط
في مهادنة الاحتلال . .

تلك كانت طبيعة القوى العظمى التي تخفت وراء القوى الصغرى استعدادًا
للجولة الحاسمة في ساحة القضاء . وكانت كل منها تظن أنها سوف تكسب الجولة
ولم يخطر ببال هذه القوى الجبارة أن كل ما حاكته من مؤامرات وحيل سوف ينهار
أمام جبروت شيخ أزهرى ضئيل الحجم قوى الشكيمة صلب الرأي . . لا يكاد
يظهر من خلف منصة القضاء التي يجلس عليها . . اسمه الشيخ أحمد أبو خطوة . .
فلم يكذ ينفرج الستار عن الفصل الأول من القضية حتى اهتزت مصر من أقصاها
إلى أقصاها بسبب الحكم الذي أصدره . . وقلب به المائدة على رؤوس أصحابها .

إضراب القضاة

كان نظر قضية الزوجية ، امتحانا رائعا لاستقلال القضاء الشرعى ، فالسلطة ممثلة فى الخديو عباس واللورد كرومر - كانت تساند الشيخ على يوسف وتسعى جهدها لكى يصدر الحكم فى مصلحته . ويرد له اعتباره الذى أطاح به تهجم صحف الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل . . وكان رأى العام الذى يقدر التقاليد والآداب الاجتماعية يساند السيد عبد الخالق السادات والد الفتاة التى هجرت بيت أبيها لتعيش تحت سقف واحد مع زوجها على سنة الله ورسوله . . إلا أن هذا الزوج كان فى رأى الناس مغتصبًا ، أغار على النسب الأنجب . . !

وفى الجلسة الأولى لنظر القضية أمام محكمة مصر الشرعية ، طلب محامى الزوج حسن صبرى باشا (رئيس الوزراء فيما بعد والذى مات أثناء إلقائه خطاب العرش سنة ١٩٤٠) ، التأجيل حتى يتمكن من الاطلاع على جوانب القضية . . فانبرى له الشيخ عثمان الفندى محامى السادات قائلاً : إذا رأت المحكمة التأجيل ، فلتأمر بالحيلولة بين الزوجين ، إلى أن يبدأ النظر فى الموضوع . فما كان من القاضى الشيخ أحمد أبو خطوة إلا أن أمر بإقامة الحيلولة بين الزوجين ، وإخراج السيدة صفية من بيت زوجها بالقوة الجبرية وإعادتها إلى بيت أبيها . . ومعنى ذلك أنه أخذ بوجهة النظر التى ترى أن الزواج قام على أساس باطل ، وأن استمرار العشرة بينهما هو اعتراف بدوام الخطيئة بينهما . الأمر الذى يستوجب التفريق بينهما حين البت فى الطلب الأصلى وهو فسخ عقد الزواج .

وتقبلت الجماهير المكتظة فى ساحة المحكمة قرار القاضى بالهتاف والتهليل . . أما الشيخ على يوسف ، فقد وقع عليه القرار وقوع الصاعقة ، وسافر لتوه إلى

الإسكندرية ليدبر الأمر مع ولاية الأمر الذين كانوا يقضون هناك شهور الصيف
لعلهم يساعدونه في الخروج من هذه المحنة ، خاصة أن زوجته أخبرته بأنها لن تعود
إلى بيت والدها إلا جثة هامة . . وساعد على تأزم الموقف أن صحيفة (المقطم)
الناطقة باسم الاحتلال ، قالت بعد اجتماع الشيخ على مع بطرس غالى باشا وزير
الحقانية (العدل) إن أمر الحيلولة لن ينفذ . . فانبرت لها (اللواء) بسيل من المقالات
تحذر فيها من تدخل السلطات في شئون القضاء ، وتستنفر رأى العام للدفاع عن
حرمة الشرع وكرامة التقاليد واستقلال القضاء .

* * *

وفي الساعة السابعة من صباح ٢٧ يوليو ١٩٥٤ ، اتصل الشيخ عبد الرحمن
الأفندى ، قاضى قضاة مصر بمحافظ القاهرة . وسأله عما تم بشأن تنفيذ أمر
الحيلولة ؟ فأجابه المحافظ بأن الأوراق لا تزال معروضة على رئيس الوزراء ووزير
الداخلية - مصطفى باشا فهمى - بالإسكندرية . . عندئذ أدرك قاضى القضاة أن
الحكومة ماضية في تعويق أحكام القضاء ، وتعطيل قرار الحيلولة . فاتصل على الفور
بالقاضى الشيخ أحمد أبو خطوة ، وطلب منه أن يذهب إلى قاعة المحكمة ، وينتظر
منه كتابا يقرؤه في الجلسة عند افتتاحها . . واتفق الرجلان على أن يتخذا مع الحكومة
إجراء يهذبها ويعلمها أن حكم القاضى واجب الاحترام . وأن القضاء يجب أن يكون
بمناى عن تدخلات السياسة وشئون الحكم .

وعند بدء الجلسة اتخذ الشيخ أبو خطوة موقعه على المنصة دون أن يتكلم . .

وظلت الجماهير تتربى بلهفة انجلاء الموقف . . ولم يكن يسمع سوى وجيب
القلوب يتردد في القاعة ، وقد خيم عليها صمت رهيب . . ومرت فترة كأنها دهر
حتى تلقى الشيخ أبو خطوة ظرفا يحتوى على رسالة قاضى القضاة ففرض الظرف وقرأ
الرسالة على الجمهور . . وكانت تتضمن قرارا صريحا بأن تتوقف جميع محاكم مصر
الشرعية ، عن نظر القضايا المعروضة عليها ، إذا لم تلتزم الحكومة بتنفيذ حكم
القضاء واحترام قراراته . . فكانت أول دعوة إلى الإضراب العام فى تاريخ القضاء
المصرى . . ولم يكذ الشيخ أبو خطوة يعلن قرار الإضراب العام . حتى ضجبت
القاعة بالهتاف بحياة القضاء واستقلاله . . وخرجت الجماهير إلى ميدان باب الخلق

وقد اشتعلت حماستها ، فأحاطت بمبنى المحافظة الملاصق لمبنى المحكمة تعبيراً عن
سخطها ، لتدخل السلطات الحاكمة في شئون القضاء . . وطيرت وكالات الأنباء
الخبر إلى كل أركان الدنيا . . وتكهرب الجو في جميع أنحاء مصر . . ودب الفزع إلى
نفس الخديو عباس حلمى الثانى ومعه اللورد كرومر . . واجتمع مجلس الوزراء على
الفور ، وأصدر بياناً أعلن فيه التزامه بتنفيذ قرار الحيلولة . . واضطرت الدولة بكل
هيلمانها إلى أن تتراجع أمام سطوة شيخين أزهريين ، لا يملكان من مظاهر القوة
سوى شجاعة القلب . ويقظة الضمير . واحترام النفس ، والترفع عن تملق
الحكومة ، والتمسك بكرامة القضاء .

وبعدها دخلت قضية الزوجية منعطفاً جديداً .

نهاية المأساة

أصرت السيدة صفية السادات ، على عدم العودة إلى بيت أبيها تنفيذًا لقرار المحكمة الشرعية بإقامة الحيلولة وعدم المخالطة بينها وبني زوجها الشيخ على يوسف إلى أن تفرغ المحكمة من البت في الموضوع الأصلي ، وهو طلب فسخ عقد الزواج لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين . . وإزاء إصرار الشيخ أبى خطوة على تنفيذ أمر الحيلولة ، تم الاتفاق على أن تغادر صفية بيت الزوجية لتقيم عند رجل مشهود له بالتقوى والصلاح وحسن السيرة ، هو الشيخ الرافعى ، وقبلت صفية هذا الحل وانتقلت بالفعل إلى بيت الرافعى ، ولكنها لم تنفذ أمر الحيلولة بالدقة التى ينتظرها الشيخ أبو خطوة ، فقد ظلت الاتصالات مستمرة بينها وبين زوجها عبر رسائل تفوح عشقا وهياما . . وتصرخ بلوعة الحبيين اللذين فرقت بينهما التقاليد العاتية ، بعد أن جمعت بينهما الشريعة السمحاء .

وكانت لدى الشيخ على خادمة أوربية تتولى نقل الرسائل بين الزوجين العاشقين . . وتسربت أنباء الخادمة والرسائل إلى الصحف المعادية للشيخ على ، فلم تتحرج من نشرها في إطار الحملة المسعورة لتجريح الزوجين وإحراج الشيخ الرافعى . . وزادت الصحف بأن الشيخ على نفسه يتسلل في الهزيع الأخير من الليل إلى بيت الرافعى ويختل بزوجته صفية ، ثم ينسحب عائداً إلى بيته قبل أن يبرغ الفجر. وثار الشيخ الرافعى لهذه الأنباء المثيرة التى تمس كرامته ، وتهز أمانته كحارس على الزوجة ومنع أى مخالطة بينها وبين زوجها ، حتى لو كانت مخالطة شاعرية عبر رسائل الغرام الملتهبة . . وكتب الشيخ الرافعى إلى قاضى القضاة طالبا إخراج صفية من بيته وإيداعها بيت مفتى الديار المصرية الشيخ حسونة النواوى - والد الأستاذ

عبد الخالق حسونة الأمين العام السابق للجامعة العربية - الذى أسقط فى يده خوفا من أن تنتقل المشكلة إلى بيته ، فتدخل بين الأطراف المتنازعة وتمكن من إعادة الأمور إلى نصابها بعد أن تعهدت صفية بعدم استقبال الخادمة الأوربية وتعهد الشيخ على بالكف عن بث هيامه عن طريق الرسائل .

وبدأت المحكمة فى نظر الدعوى ، وتحدث الشيخ الفندى محامى السادات فطالب ببطالان الزواج على أساس أن الزوج كان فى شبابه من الفقراء ، ومن غمار الناس الذين لا يعرف لهم نسب رفيع ، يؤهله لمصاهرة بيوت الأشراف . . وكانت «تهمة» النسب الوضيع هى التهمة الأولى فى حق الرجل ، أما التهمة الثانية فكانت . . حرفته . . إذ قال المحامى إن الشيخ على يحترف « مهنة دنيئة » هى مهنة الصحافة التى تقوم على التجسس والتلصص على أسرار الناس . . وهى أمور ينهى عنها الشرع !! .

واستمعت المحكمة إلى أقوال الشهود الذين جاءوا ليقروا عن ظهر قلب شجرة الأسرة التى ينتمى إليها السادات ، والتى تنتهى إلى الدوحة النبوية ، فإذا سئلوا عن نسب الشيخ على قالوا إنهم لا يعرفون له أصلا ! وكانت الصحف خارج أسوار المحكمة تردد نفس الدعاوى التى ترد على السنة الشهود . . ويعترف الأستاذ عباس محمود العقاد بأنه لفق للشيخ على لقباً حقيراً مستمداً من حساب الحروف والطوالع فاختر له لقب (نورى) الذى يعرف به الغجر وشذاذ الآفاق . ويرر ذلك بأن الشيخ على كان متها بالانتساب إلى هذه الطائفة ، كما كان يقال بأنه من (المسلمانية) الدخلاء على الإسلام من ناحية جده الأول .

إلى هذا الحد بلغت قسوة المثقفين فى الطعن على الرجل لأنه خرج على التقاليد . ولم يشفع له عندهم أنه صنع مجده بيده ، وشق طريقه فى الصخر ، وترجع على القمة التى ترنو إليها الأبصار دون اعتماد على الحسب الموروث . . ولكنها طبيعة المناخ الذى كان يسود الحياة الاجتماعية والثقافية فى أخريات القرن الماضى وبدايات القرن العشرين . . وكان الشيخ أبو خطوة من أشد القضاة تزمًا ومغالة فى الحرص على التقاليد ومقاومة نزعات التحرر التى بزغت ريجها فى كتابات قاسم أمين ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل ، وغيرهم من دعاة الحرية والمساواة . . وبعد الفراغ من

التحقق من نسب الطرفين ، انتقلت المحكمة للتحقيق في « شرف » المهنة التي ينتمي إليها الشيخ على . فإذا بالشيخ الفندى يصول ويجول طعنا وتحقيرا من شأن الصحافة . . . وانتهى إلى أن الشيخ على يوسف - صاحب أكبر جريدة في الشرق ليس مشغولا بالصحافة . قائما بها . . . وإنما هو مشغول بشيء يشبهها لأغراضه . وهذا اشتغال بأخس الحرف وأدنتها . . .

وعبثا حاول « المتهم » أن يدفع عن نفسه ما لحق به من عار وشنار . . . وبعد الفراغ من نظر وقائع الدعوى ، اعتكف الشيخ أبو خطوة عن الناس لإعداد الحكم الذي أعلنه وسط تهليل العامة وتصفيقهم ويقضى بفسخ عقد الزواج . . . ونظر الناس إلى هذا الحكم على أنه انتصار للأخلاق والتقاليد وهزيمة للتبرج والفساد . . . أما رجال السياسة فقد اعتبروه انتصارا للحركة الوطنية ، وهزيمة للخديو عباس واللورد كرومر . . . وهكذا نظر كل منهم بالمنظار الذي يخصه . . . أما أبطال القصة الأصليون فقد انسحبوا خلف الكواليس بعد أن انفض السامر وانصرف الجمهور . . . وعكفوا على معالجة قضيتهم بعيدا عن صخب العامة وضجيج السياسة وتزمت القضية . . . وتدخل أهل الخير ودعاة الصلح بين الطرفين . . . فوافق الشيخ السادات على تزويج ابنته ممن أحببت بعقد جديد . . . وظن الشيخ العاشق أنه قد بلغ المرام بهذا الاعتراف ، وأنه سينهل من بحر العسل في عش الزوجية الجديد . . . ولكن حياته انقلبت جحима على يد زوجته الشابة التي كانت في سن إحدى بناته . . . واضطر الشيخ وهو في سن الكهولة إلى أن يهرب من البيت ، لينسى همومه في دوامة العمل فكان يقضى معظم ساعات النهار والليل داخل (المؤيد) يصول ويجول في دنيا السياسة بعد أن خسر معركة الحب . . . حتى إذا بلغ قمة المجد الصحفى والسياسى خرج على الناس بقرار غريب ، هو اعتزال الصحافة والسياسة معا ليتفرغ لوظيفة شيخ الطريقة الوفاية الصوفية . . . عساه أن يؤاسى الجرح الذى حطم كبريائه ويتنسب - ولو زورا وبهتانا - إلى الشجرة التى لفظته وهو في قمة المجد والسؤدد . . . وما هى إلا سنوات قليلة ، حتى ودع الشيخ على يوسف باشا الدنيا بعد أن أنهكه المرض وهدته معارك الحب والحرب . . . وخلف وراءه زوجة شابة لم تحقق له ما كان يطمح إليه من سعادة زوجية . . . ولقد عبر شاعر النيل حافظ إبراهيم عن مأساة

الشيخ على يوسف ضمن قصيدته الرائعة التي انتقد فيها علل المجتمع المصرى فى ذلك العصر ومطلعها :

حطمت اليراع فلا تعجى	وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يامصر دار الأديب	ولا أنت بالبلد الطيب
وكم ذا بمصر من المضحكات	كما قال فيها أبو الطيب

* * *

وقال (المؤيد) فى غمرة	رماه بها الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول	فجن جنونا بنت النبى
فنادى رجال بإسقاطه	وقالوا تلون فى المشرب
وزكى (أبو خطوة) قوهم	بحكم أشد من المضرب

* * *

فيا أمة ضاق عن وصفها	جنان المفوه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا	ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم	ويكرم فينا الجهول الغبى

محتويات

٧	هذا الكتاب
٩	مقدمة الطبعة الأولى بين يدى القارئ
١٤	غرباء .. لكن أمراء
١٦	الصعلوكة على عرش فرعون
١٩	فى الليلة الموعودة
٢١	عنزة السيدة نفيسة
٢٤	ياخفى الألفاف
٢٧	سنوات الحيرة
٣٠	تحریم التجنيد
٣٣	كذاب زفة
٣٧	الشيخ نابليون
٤١	عمدة الإسكندرية
٤٥	الشيخ صادومة
٤٩	مؤرخ الشعب
٥٣	العدل أساس الملك
٥٧	وجها لوجه .. !
٦١	الأفندية فى باريس
٦٤	نابغة الطب المصرى
٦٨	نجم الزعامة المصرية
٧١	مهرجان الدم
٧٤	على موائد اللثام
٧٧	عبد مأمور

٧٩	سياسة بلا أخلاق
٨١	شارع سليمان باشا
٨٤	قتيل بنها العسل
٨٦	النبأ السعيد
٨٩	حادث على النيل
٩٢	ثائر من الأزهر
٩٥	أفراح الأنجال
٩٨	فرعون الصغير
١٠٠	شيخ المنسر
١٠٢	سقوط فرعون
١٠٤	ذو الأصابع الفولاذية
١٠٦	نوبار باشا
١٠٩	نيللى .. وتوابعها
١١٢	ميرابو .. مصر
١١٥	أبو الاستبداد
١١٨	الأرستقراطية الحديثة
١٢١	إسماعيل .. الأفريقى
١٢٤	عاشق النهر الخالد
١٢٧	مجزرة همجية
١٣٠	حرق الإسكندرية
١٣٣	الشهيد البرئ
١٣٦	أبو الدستور
١٣٩	قصة مزعومة
١٤١	طوفان الفساد
١٤٤	الكبرياء الوطنية
١٤٧	الوطنية والخيانة
١٥٠	مسرحية متقنة الصنع
١٥٣	مذنب .. أم غير مذنب؟
١٥٦	أمراء .. لكن شرفاء

١٥٩	عصر الشهداء
١٦٢	خير أجناد الأرض
١٦٦	كيرلس الخامس
١٦٨	الكنيسة المصرية
١٧٠	أغانخان في مصر
١٧٣	قاطع طريق
١٧٦	صعيدية من لندن
١٧٩	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
١٨٢	المستبد عدو الحق
١٨٦	أصل الفساد
١٩٠	يا بهية وخبريني .. !
١٩٣	أولاد تيمور
١٩٦	العفريت .. !
١٩٩	تحرير المرأة المصرية
٢٠٢	عبيد وجوار
٢٠٦	غرام الشيوخ
٢٠٩	عاشقان جريئان
٢١٢	أبو خطوة يقلب المائدة
٢١٥	إضراب القضاة
٢١٨	نهاية المأساة

رقم الإيداع ٩٤/٢٤٤٣
I.S.B.N : 977 - 09 - 0199 - 7

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف ' ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

مصر من نافذة التاريخ

(كانوا إخوتنا)

يعرض هذا الكتاب مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث . . وإذا كان تاريخ مصر يمتد في القدم إلى عصور سحيقة ، فإن الحلقة الحديثة هي أقربها إلى عصرنا ، وهي أكثرها تأثيرا في حياتنا . . ولا تزال شخوص هذا العصر ماثلة في الوجدان المصري .

وقد نجح مؤلف هذا الكتاب - جمال بدوي - في أن يبعث الحياة في هذه الأحداث ، فإذا بنا أمام شريط حافل بالحركة ، وإذا بالأبطال الذين طواهم الشرى قد نهضوا من سباتهم يتكلمون ويحكمون لنا ماذا جرى ، وماذا حدث لمصر خلال هذه الحقبة الهامة من تاريخها .

لقد صاغ المؤلف مادته التاريخية في أسلوب أدبي أخاذ لإيانه بأن التاريخ ليس مجرد أحداث جامدة ، أو آثار حجرية ، أو نقوش على جدران المعابد ، ولكنه حياة متدفقة حافلة بالنبض .